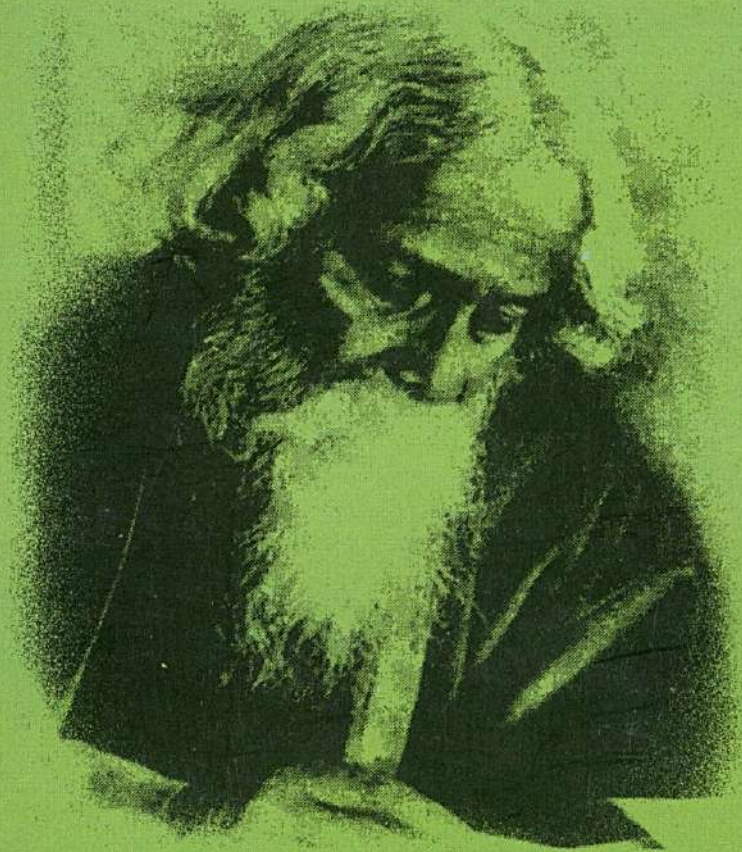


١٩١٣

مكتبة نوبل

رابندرانات طاغور

روائع في المسرح والشعر



علي مولا

ترجمة
بديع حقي

٢٠٠

١٥١٨٤١

روائع في المسرح والشعر

١٩١٣
مكتبة نوبل

رابندرانات طاغور روائع في المسرح والشعر

ترجمة
د. بديع حقي





مكتبة نوبل

Author: Rabindranath Tagore

Title: Masterpieces of Drama and Poetry

Translator: Dr. Badi Haqi

Al-Mada P.C.

First Edition : 1998

Second Edition : 2010

Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : رابندرانات طاغور

عنوان الكتاب : روائع في المسرح والشعر

المترجم : د. بديع حقي

الناشر : المدي

الطبعة الاولى : ١٩٩٨

الطبعة الثانية : ٢٠١٠

الحقوق محفوظة

دار المدا للنشر

سورية - دمشق من. ب. : ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail: al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - نهاية منصور - المطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٧ - ٧٥٢٦١٦

E-mail: al-madahouse@idm.net.lb

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٢ - بناء ١٤١

مؤسسة المدي للإعلام والثقافة والفنون

E-mail: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدمات .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

شاعر الهند

رابندراناث طاغور

مائة عام تمضي على مولد الشاعر الهندي (رابندراناث طاغور) ويحتفل العالم كله بذكرى الشاعر العظيم .

أفما خالستك النظر ، من قبل ، قصيدة له منشورة في مجلة أوديان ؟
بلى . وإنك لتذكر معنى نادراً إنسانياً عميق الغور قد نفش له فؤادك
ورقت له نفسك ، وتذكر أنك أعجبت بطاغور ، وظللت ، بعد هذا ، تلوب على
قصائده وكلماته ، لتلهج بها وتوسدّها شفاف قلبك .

فإذا التمست عينك صورة (طاغور) ، مطالأ عليك بطلته المهيبة ، فإن في
ميسور نظراتك أن تستشف وهي راكعة أمام خطوطها ، كلّ ما يزخر به قلب
هذا الإنسان الشاعر من محبة وطيبة وحكمة .

وإنك لتراعي جمته ، تنزلق من قمة رأسه الى قذاله وتثال على كتفيه ،
وحفة بيضاء ، كأنها حزمة من الأشعة طرية ، ثم تلتقي بسبال لحيته وشاربيه
وتحيط بوجهه الأسمر ، كأطار من غيوم ، لتعانقه ، لتحبو عليه ، لتستمد منه
صفاء جديداً ترفد به بياضها .

أما عيناه السوداوان الغائمتان بالحنان والرافة فتبدوان في بهرة هذا البياض

اللّخي ، نبعي نور فيضان أغاني ومعاني ، تترقّق منسابة الى قرارة نفسك ،
لتهب لك طمأنينةً سابقةً قريرة .

هذا هو الشعور الذي يخالجك ، إن اتفق لك أن تجيل طرفك في صورة
(طاغور) ، فكيف كنت تشعر لو أن الحظ أسعدك فاجتمعت إليه ؟ لعلك كنت
تردد ما أورده الكاتب الفرنسي (رومان رولان) الذي جلا لقاءه بالشاعر الهندي
بهذه الكلمات :

« حين تقترب من (طاغور) ، يناسم نفسك شعوراً أنك في معبد ، فتتكلم
بصوت خفيض ، وإن أتيح لك ، بعد هذا ، أن تتملى قسّمات وجهه الدقيقة
الأيّنة ، فإنك واجدٌ خلف موسيقا خطوطها وطمأنيتها ، الأحزان التي هيمن
عليها ، والنظرات التي لم يداخلها الوهم ، والذكاء الجريء الذي يواجه صراع
الحياة في ثبات » .

* * *

في ٦ مايس عام ١٨٦١ ، في قصر (جوروسنكو) الشامخ القائم في مدينة
(كلكتا) رزق المهارش^(١) (دافدرانات طاغور) سليل أسرة هندية عريقة في
النبيل وشرف النجار - رزق صبيّاً هو أصغر اخوته السبعة فسماه (رابندرا) أي
الشمس ، تيمناً بأنه سيشرق كالشمس ويأبى الأرض ستنعم ، ذات يوم ، بنوره
الوضي .

وعرف (طاغور) في فجر طفولته بلهنية الحياة وهناءتها ، واستمد من الجو
الذي عاش فيه ، كل ما كانت نفسه الطلعة تتشوّف إليه ، فقد شدا أفراد أسرته
كلهم فنوناً مختلفة ، بين رسم وغناء وشعر ، وعبّ (طاغور) من هذه الينابيع
الثرّة ، مستصفاً أطيبها وأعذبها وألصقها بروحه .

(١) أي القديس في اللغة البنغالية . وقد لقب به والد (طاغور) ، لما أثر عنه من ورع وتقى .

وكان أبوه أحد أعلام نحلة (اليوبانيشاد) الدينية التي تركت في الهند ،
أثراً صوفياً بالغا ، وكان يفرع الى العزلة أحيانا ، ليرتل أناشيده البرهمية بصوته
الهادئ العذب .

وأتمثل (رابندراناث) طفلاً صغيراً ، يعدو في أرجاء القصر الرحب ، لاعباً
لاهياً ، ثم يستوقفه صوت أبيه يلهج بنشيدته الديني ، ويتسمت الطفل للحن
الشجي ، ويمثل أمام حجرة أبيه ، ليجده قد انتبذ ركناً منها ، ينغم نشيده
خاشعاً متبثلاً .

وترتشف أذناه الواعيتان ، هذه الأناشيد الصوفية العميقة وتمتزج أنغامها
بروحه ، لتنبس ذات يوم وتوشّي شعره وألحائه وأغانيه .

ويغازل الطفل الحرف والوزن والقافية وهو بعد في منبلج عمره ، ولم يكن
آنثز ، قد بلا الحزن وعرف الألم ، فقد كان أبواه يرعياهن بالحب والحنان .

لم يكن له إذن بدء من تجربة عاطفية تحرك الوتر الغض من موهبته الوليدة
وتطلق النغم المبدع وتستل نسيما الشعر المهيمنة المتململة في أغوار نفسه .

وتعرض له هذه التجربة... ولعلها أن تحملنا على الابتسام ونحن نستمع إليه
يقصها من كتاب ذكرياته : « قبض ذات مرة على لص في دارنا ، فحملني التطلع
المعزج بالخوف على أن أخف إلى مكان الحادث لأرشق اللص بنظرتي الطلعة
المتسائلة ، فإذا أنا أجد إنساناً كالآخرين ، وما إن رأيت البواب يجذبه بعنف
وقسوة ، حتى شعرت برأفة تمس شفاف قلبي ، واشتهيت أن أنفض رأفتي
شعراً ، وكانت تجريتي الأولى التي حملتني على النظم ، وجعلت أقرزم أبياتاً من
الشعر ، مردفاً كلمة في إثر كلمة ، كيفما اتفق لها أن تأتي ، والآن حين أذكر
تلك الأبيات المسكينة وأقسو عليها فإن الرأفة تجاذبني ، كما جاذبتني حين
بصرت بذلك اللص المسكين » .

* * *

وسهر أبوه على تعليمه فندب له بعض المعلمين ، ليقدّموا إلى ابنه المعرفة ، بإشراف منه ، إذ لم يكن يتوفّر في المدارس الهندية آنذاك ، التعليم الصحيح الضروري للطفل .

ولم يجتزئ أبوه بالدراسة النظرية يزود بها ابنه ، بل حرص على أن يفسح آفاق معرفته بالتنقل والسفر فاستصحبه في رحلات كثيرة كان أبعدها أترأ في نفس الطفل النابه رحلته إلى جبال (الهمالايا) .

ها هو ذا يتوقّل مع أبيه في شعاف الجبل الشامخ ، وتتلقّف ذراه الذاهبة في الفضاء ، نظرات الطفل المتطلّعة المعجبة .

وبدل الجبل العملاق لعينيه تهاويله الساحرة الوحشية ليدرك الطفل الشاعر عظمة الكون وجماله ، واستمسكت ذاكرته الغضة بالصور المذهلة الرائعة تترادف في حواشي الأتق ، بالطيوف المبهومة في القنن السابحة مع قرعات الغيوم ، بالظلال الرهيبة تجثم في شعاب الجبل وغيرائه . والتأمت الصور والطيوف والظلال ، متناغمة ، مؤتلفة ، لتتسابق ذات يوم في قصائده ولوحاته إلى قلمه الصناع وريشته الملهمة .

وكذلك عبّت عينا الطفل الظامنتان ، من مناظر الطبيعة ، وانعقدت بين نظراته الرقيقة البرينة وبين الكون ألفة وأنسجام ، فهذه شجرة (البانيان) التي كانت تنصب في فناء الدار وهذه النخلة السموق التي كانت تنتصب خلف جدار القصر كانتا تحدّثانه عن الصداقة الخالدة التي تهبها الأشجار للإنسان ، وكانتا تهمسان في مطاوي نفسه نداء الطبيعة الصافي العميق .

وأخذ قلبه الصغير ينبض بالشعر ويهزّج به ، وقد احتفظت ذاكرته ، حين تقدم به العمر هذا البيت من قصيدة :

وينساقُ ، في الجو . هُمس المطرُ ليرعشُ بالحُبِّ عُصْنُ الشَّجَرِ
يقول (طاغور) :

- « حين أفكر في الغبطة التي تبعثها هذه الكلمات في عطفِي ، أدرك قيمة

الدور الذي يؤديه الجرس اللفظي والقافية في القصيدة ، أن الكلمات تفيء الى الصمت ، ولكن موسيقاها تظل ممتدة ، ويبقى صداها موصولاً بالسمع ، وهكذا فإن المطر ما يزال يهمس وأوراق الأغصان ما تنى ترتعش حباً ، حتى الآن في ذاكرتي » .

ويكبر الطفل ويصلب عوده ، ويصبح في مقدوره أن يذهب الى الصيد مع أخيه (جيوتير يندرا) ، وكان هذا ، الى ولعه بالغناء والموسيقا ، فتى شجاعاً كلفاً بالقنص والطراد ، وكان يحلو له ، وهو يمتطي فرساً من صافنات الخيل ، أن يردف أخاه (رايندرانات) خلفه ، لينطلق به في المدى الرحب المنفسح أمامه .

وقد صحب (رايندرانات) أخاه ، ذات مرة ، في رحلة لصيد نمر ، وضرباً معاً في قلب الغابة الموحشة ، حتى اقتربا من وِجار النمر ، فلم يكذب يبدو مزمجرأ متوعداً ، حتى سدّد إليه (جيوتير) رصاصة قاتلة فأصماه وجندله ، وكان الفتى الصغير خلف أخيه الجري ، فلو لم يقتل النمر لاقتربهما كليهما ، ولانطلقا ذلك النور الذي قدّر له أن يفتح الألق والخير .
وكذلك تمسّق (طاغور) منذ صفره الحرية مهما تكن محفوفة بالأخطار .

* * *

وأبى القدر إلا أن يمتحنه وهو بعد فتى ، حين ماتت أمه الحبيبة . وخلف موتها ألماً لا يمحي في نفسه ، وقد قص (طاغور) ذكرى وفاتها في هذه الكلمات الفميسة بالأسى : « كنا قد أوينا ليلة وفاتها الى النوم ، وقدمت في ساعة متأخرة خادمٌ عجوزٌ ، وهي تنشج باكية وتردّد :
- « ايه يا أطفالي لقد فقدتم كل شيء » .

فأسكتتها زوج أخي وصرفتها لتجنبنا وقع الفاجعة ونحن في موهن من الليل . وكنت نصف يقظان ، وأحسست بقلبي يذوي وينهار بين جنبي ، دون

أن أعني ، على نحوٍ ظاهرٍ واضحٍ ماذا جرى ، فلما انشقَّ الفجر ، أدركت معنى الموت الذي كنت أسمع بخبره .

ولما خرجنا الى الشرفة رأينا أمنا مسجاةً فوق سريرها ولم يكن مرآها يشي بأن الموت رهيب ، كان محياها عذباً آمناً ، كما لو أنها خلدت الى نوم هنيء ، ولم يكن أي شيء يبصرنا بالهوة السحيقة التي تفصل الموت عن الحياة .
وحين نقل نعشها وسعينا مع الموكب الحزين في الطريق المظلمة بالشجر هصر قلبي ألمٌ ممرضٌ ، وأنا أفكر في أن أمي لن تعود بعد الآن الى البيت .

وقد مضت الأعوام وظللت أذكر في أيام الربيع ، كلما تمشيت في الحديقة ، وداعب زهرُ الياسمين جبیني ظللت أذكر مداعبة أنامل أمي وهي تمسُ جبیني مساً رقيقاً ، مفكراً في أن الحنان الذي كان يحدو تلك الأنامل الساحرة يتجلى في لقاء زهر الياسمين وأن ذاك الحنان ما يزال باقياً لا ينفد ولا يفنى .

لقد حرمني القدرُ أمي وأنا بعد فتى صغير ، فأصبحت وحيداً ، ألوذ بنافذتي وأتأمل في الطبيعة وأرتسم في مخيلتي ما يترقق في الكون من صورٍ شتى .
لقد كانت الطبيعة رفيقي الذي وجدته الى جوارى دائماً » .

أجل . لقد أضحت الطبيعة رفيقاً وأماً ثانيةً له ، يناجيه ويأنس إليها ويغفر منها ، يوماً بعد يوم ، صوراً خلاصة .

ويكبر الطفل الصغير ، وترعرع معه قصائده الشجية الطليّة ، لتمهّد له طريق المجد .

* * *

ونوزت عبقرية (طاغور) الشعرية وهو ما يزال في رثيق العمر ، وكان يجد من أفراد أسرته تشجيعاً متصلاً ، غير أن أباه كان يُعدهُ لدراسة القانون ، فبعث به الى كلية (برايتون) في انكلترا .

ولم يجد (طاغور) في دراسة القانون ، ما يرضي نفسه النزاعة الى الفن

والأدب ، بيد أنه أفاد من إقامته في انكلترا الشيء الكثير ، فقد غدى نزعتَه الأدبية وارتضح اللغة الانكليزية بطلاقة وإجادة ، ممّا أعانه ، فيما بعد ، على نقل بعض مؤلفاته الى الانكليزية .

ونهل (طاغور) من معين الأدب الانكليزي الخصب ، ففرد ثقافته الشرقية بالثقافة الغربية ، وعاد الى وطنه دون أن ينهي دراسته الحقوقية ، وانتسخ أمل أبيه في إغرائه بمتابعتها .

* * *

وأهلّ ديوانه الأول (أغاني المساء) فتلقفته الأوساط الأدبية بالتشجيع ، وتلقاه النقاد بالثناء الذي يستحق وظفر (طاغور) وهو مايزال في ريعان الشباب ، بإعجاب كبار شعراء عصره الذين توسّموا فيه شاعراً ملهماً ينتظره المجد .

وأردف ديوانه هذا بديوان (أغاني الصباح) ، وتغيم فيه ظلالاً رمزية ، تضفي عليه مسحةً من الغموض حلوة ناعمة .

* * *

وفي الثانية والعشرين من عمره ، انتقت له أسرته زوجاً ، فتاة صغيرة ، لا تتجاوز سنّها الثانية عشرة هي (مريينيني ديفي) ، فاستجاب (طاغور) لرغبة الأسرة ، فقد كانت التقاليد في الهند تقسر الفتاة والفتى على الانصياع لإرادة الأسرة في اختيار رفيق الحياة . وقد انتقد (طاغور) فيما بعد هذه العادة البالية انتقاداً عنيفاً في مقالاته وقصصه ، وفي رواية (حطام السفينة) بوجه خاص . على أن حياته الزوجية كانت رغيدة ، فقد محضته زوجها المحبة الصادقة وتذوّقا معاً أفوايق السعادة وترادفت قصائده مشعشةً بالهناء الغامرة :

«لقد هلّت الفرحة مرعةً من جميع أطراف الكون لتسوي جسمي .
لقد قبلتها أشعة السماوات ثم قبلتها حتى استفاقت الى الحياة .
إن ورد الصيف المولي سريعاً قد ترددت زفراته في أنفاسها .
وغنت وسوسة المياه وهيممة الرياح في حركاتها .
إن الألوان المتقدة من الفيوم والغابات قد انثالت الى حياتها .
وداعبت موسيقا الأشياء كلها أعضاءها لتمنحها إهاب الجمال .
إنها زوجي... لقد أشعلت مصباحها في بيتي وأضاءت جنباته » .

ورزق (طاغور) ثلاثة أطفال ، أفعموا قلبه غبطة وبهجة ، بيد أن سعادته لم تدم طويلاً ، فإن كارثة عتيقة لم تلبث أن دهمته . فقد ماتت زوجته وهي بعد في ميعة الصبا ، ولحق بها ابنه وابنته وأبوه ، في فترات متتالية ، متقاربة ، وخلقّت هذه المصائب في نفسه جرحاً رقيقاً ، وكادت تهدأ وتفضي به الي اليأس ، لولا إيمانه بأن الموت هو صفحة تطوى لتفتح صفحة خالدة أنصر وأحلى .

وعلى حافة سرير ابنه المريض المدنف . نظم (طاغور) ديوانه (الهلال) مفتلداً من قلبه الحزين المعنى قصائده الساذجة المؤسية . يقول (طاغور) :
- « إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتني زوجي واختطفّت زهرة أولادي ، أضحت لي نعمة ورحمة . فقد أشعرتني بنقصي وحفزتني على نشدان الكمال وألهمتني أن العالم لا يفتقد ما يضيع منه » .

بيد أن حزنه الذي استبدّ بقلبه ، تسلّل الى شعره فطبعه بطابع الأسى ، وانسابت الى جانب قصائده السابقة المفوفة بحب الحياة . قصائد شائعة بحزن دفين - ضمّها الى ديوانه الرائع (جيتنجالي) - قصائد مترعة بمعاني الموت . يقول عنها الكاتب الفرنسي (أندره جيد) : « ليس في الشعر العالمي كله ما يدانيها عمقاً وروعة » .

اصغ إليه يقول :

«ايه أيها الموت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، تعال واهمس في أذني يوماً بعد يوم سهرت في انتظارك ، من أجلك تذوقتُ هناة الحياة وعانيت عذابها .

إن الكفن المنسدل فوقي هو كفن التراب والموت . وإنني لأكرهه ولكنني أشده وأجذبه في شغفٍ ووجدٍ »

* * *

وكذلك حلق شعر (طاغور) ، بعد أن استمسك واستحصد ، مجنحاً بالحب والألم ، والفكرة والنغم ، لتجاوب به آفاق الهند ، ثم يفرع جبالها ، ويجوز حدودها ويضطرب في كل مرادٍ من الأرض ، وينحدر كالشعاع النقي ، فيغسل بكلماته الحلوة القلوب الحزينة المتشوقة الى الطمأنينة والمحبة والسلام .

وفي عام ١٩٠١ ، أنشأ (طاغور) في إحدى ضواحي (كلكتا) مدرسة سماها : (شانتينيكيتان) أي مرفأ السلام ، وقد اختار أن تكون في قلب الغاب ، بين الأشجار المتواشجة المتعانقة .

ويتسق منهج الدراسة فيها على هذا النحو :

يستيقظ الطلبة ، عند منبثق الفجر ، فيرتلون الأناشيد العذبة ثم يمضون الى حجراتهم فينشقون فُرشهم وينظفون الأرض وينطلقون الى الملاعب ، حيث يزاولون تمارينهم الرياضية ثم يلوذ كل طالب بركن يفكر ويتأمل ، فإذا انتهت فترة التأمل ، أقبلوا على فطور الصباح ، ومنه الى الصلاة فالدراسة النظرية .

وللطالب ، إما شرع الأستاذ في إلقاء درسه ، أن يعلو غصن شجرة أو يقتعد عشب الأرض ، مستمتعاً بجمال الطبيعة وطلاوة الدرس معاً . وفي الساعة الثانية عشرة ينتهي برنامج الدراسة النظرية ، وبعد الغداء ،

يبتدى برنامج الدراسة العملية ، وينصرف الطلبة الى الحدائق ينسقونها
ويزرعونها ، ويتخذ بعضهم سمته الى القرى المجاورة لتعليم الفلاحين وإرشادهم
حتى يغلب الليل .

ويعكف الطلبة ، بعد العشاء ، على قراءة القصص أو تمثيل المسرحيات أو
ترتيل الأغاني ، وفي الساعة العاشرة يأوي الجميع الى النوم .

هذه هي المدرسة التي أنشأها (طاغور) جنّة ممرعة للنشء ، يقبلون فيها
على الدراسة المجدية ، دون قسر أو إكراه وتفتح فيها قلوبهم على محبة
الطبيعة وتقدير الإنسان ، وتنضج فيها شخصياتهم بالعمل والتعاون والاعتماد
على النفس .

وفي هذه المدرسة ألقى (طاغور) محاضرات شتى جمعها في كتابه الشهير
(سادهانا) .

* * *

وتعاقبت آثار (طاغور) من فلسفة وشعر ورواية وقصة ومسرح ، غزيرة
سخية ، تحمل رسالته الإنسانية السامية القائمة على المحبة والأمل ، وتشرب
قماً شوامخ في الأدب العالمي كله ، فلا عجب أن تسعى إليه جائزة (نوبل)
للأدب عام ١٩١٤ .

لقد أصبح (طاغور) ، كما يقول عنه (غاندي) بحق ، منارة الهند ، ولعله
أن يكون منارة الشرق كله ، منارة تبذل نور المحبة وتعيد الى الإنسان المشرّد
في متاهات المادية والإلحاد ، إلى الإنسان الذي افترست الحروب والطفيان ،
أحلامه الحلوة وأمنه واستقراره ، تعيد إليه الأمل والايامن والسلام والثقة
بمستقبل أفضل .

* * *

وقام (طاغور) برحلات عديدة في أوروبا والشرق الأقصى والاتحاد
السوفييتي وأميركا وأفريقيا ، ينثر أنى مضى بذور المحبة والطيبة والأمل ، وظلّ
دائبةً الظعن والرحيل ، حتى بعد أن تقدمت به السن . كانت عيناه الظامنتان
الى النظر والمعرفة معلقتين بأفاق العالم كله . وكان يقابل حيثما حل بترحاب
شعبي حار ، قيل إنه تجمّع في ساحة (كولوسيوم) في (روما) أكثر من ثلاثين
ألف شخص ، جعلوا يحيونه ويهتفون له ، هتافاً هادراً مدوّياً .
ولك أن تتمثل الشاعر العظيم ، رايندرا - الشمس المشرقة ، واقفاً بطلعته
المهيبة ، ودموعه تغم في مآقيه ونظراته المجدولة بالحنان ، تتطامن الى
الجموع المحتشدة الهاتفة ، وقلبه الكبير الطيّب ، ينبض بالحقيقة نفسها التي
تجذب بها قلوبهم جميعاً .

* * *

ولم يتوان (طاغور) وهو يرى الى الاستعمار البغيض يعيش في وطنه فساداً
وعسفاً ، عن مقاومته بشعره ومقالاته وخطبه فلم يقتصر شعره على تلك الخيوط
اللطيفة الناعمة التي ألف أن يغزلها في معاني المحبة ، بل كان يتعالى حراً صريحاً
مزمجراً ليذكر صروح الطفليان . كان كالفراشة التي نسجت خيوطها الحريرية في
فيلجتها واستمرت العيش فيها أمدأ ثم حطمت سجنها وانطلقت حرة في منفسح
الفضاء ، فإذا هذا الشعر الصافي المعطاء ، يحور في شفثيه الى صيحة مدوية تدعّم
صيحة زعيم الهند (غاندي) وتوقظ أبناء وطنه من سبات الاستسلام ، مهيبة بهم أن
ينزعوا الخوف من نفوسهم حامله لهم مشعل الحرية الموعودة فيقول :

« ايه يا وطني ، اطلب إليك الخلاص من الخوف ،

هذا الشبح الشيطاني الذي يرتدي أحلامك الممسوخة ،
الخلاص من وقر العصور ، العصور التي تحني رأسك وتقصم ظهرك .
وتصم أذنيك عن نداء المستقبل » .

ولما قامت في الهند عام ١٩١٩ ثورة (البنجاب) وقمعتها انكلترا بالدم والنار ، احتج (طاغور) على ذلك بمقالات تتأجج عنفاً ، وأعاد الى ملك انكلترا لقب (سر) الذي كان قد منحه إياه تقديراً لعبقريته .

* * *

ولما ذرف (طاغور) على السبعين ، وكان في أوج عظمته الأدبية والفكرية والموسيقية ، بدا له أن يزاول فن التصوير . وكان على الشاعر أن يفسر لوحاته ، فقد كانت مزيجاً من الألوان غريباً ، ولكنه كان يجيب دوماً : « إن على الصورة أن تفصح عن المعنى وأن تنفضه ، وليس عليها أن تفسره ، فالفن يماثل الحب في كونه غير قابل للتفسير » .

كتبت السيدة (دونوي) في أسلوب تصويره فقالت :

« إن لوحته تلد كالفكر حين يدخل في سبات ، مغلفة بسحب حالمة مبهمة ، ثم تتضح وهي في سبيلها الى التكوين ، وإن المرء ليعجب من دقة التصوير وروحانيته معاً . وتنبثق الألوان وتنساب : بقعة ضبابية فياض تلجئ تليها خضرة موشاة بلون بنفسجي ، وتأتلف الألوان لتفسح عالمًا حيًا » .

وكذلك اكتشف الناس جانباً آخر من عبقرية (طاغور) حسرت لهم ، من قبل ، عن أسرار النغم وهما هي ذي تحسر ، الآن ، عن أسرار اللون ، لتريقها لوحات رائعة ساحرة .

وأقيمت للفنان (طاغور) معارض جمّة ظفرت بإعجاب نقاد الفن والتصوير في العالم أجمع .

كأنني بطاغور ، بهذه العبقرية التي جرت من الفلسفة والأدب والفنون كلها على عرقي ، كأنني به قد وافى ، كما يقول (راجاراو) ، الى عصرنا هذا من عصر النهضة ، العصر الذي كانت تخفق فيه طيوف دانتي وليوناردو دافنشي ومايكل

انجلو ، العصر الذي كانت تتمايل فيه كلمات القصيد على رعشات الريشة
الملهمة ، وتترنح على ضربات الإزميل البارع ، وتلهث أمام مخططات الاختراع
ووساوس العلم .

* * *

وفي ٨ آب ١٩٤١ - وكان (طاغور) قد تخطى الثمانين - مَدَ الموتُ يده .
وقطف في هينة ورفق ، روحَ الشاعر الإنساني العظيم ، وهو بين أفراد أسرته
ورفاقه وروادة .

« أنا أعلم أنه سيأتي يومٌ ، أضيّع فيه هذه الأرض عن ناظري .
إن الحياة تغادرني ، في صمت ، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير ،
ومع هذا فإن النجوم ستلامح ساهرة في الليل ،
وسيسفر الفجر ، كما أسفر أمس ،
وستمتلئ الساعات ، كما تمتلئ أمواج البحر ، حاملةً اللذات والآلام » .

* * *

أجل ، لقد غربت شمس (رابندرا) ، كما سماه أبوه ، بغد أن منحت
الخير والنور .

وأغمض الشاعر عينيه اللتين أدامتا النظر الى الكون وأحبتاه وتفتتا بآيات فاطره .
انطفأ النغم الرائع الحنون في لهاة الشاعر العظيم ، الى الأبد ، ولكن صداه
سيظل دوماً مهوى كل قلب ينشد المحبة والأمل والسلام .
مات (رابندراناث طاغور) واقتدت الهند ، بغيابه الأبدي ، أكبر شاعر
عرفته عصورها كلها .

* * *

« أي هدية تقدمها الى الموت ، يوم يقدم ليقرع بابك ؟
آه ، سأضع أمام زائري كأسَ حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .
كلّ قطوف كرومي العذبة ، من أيام خريفي وليالي صيفي .
كل حصاد حياتي الدؤوب وجناها ، سأضعه أمامه ،
حين ينتهي أجلُ أيامي ، يوم يقدم الموت ليقرع بابي » .

* * *

أجل لقد بسط (طاغور) ، حين قدم إليه الموت ، قارعاً بابه ، كأسَ حياته
المترعة حناناً ومحبةً ووضع أمامه قطوف كرومه العذبة الشهية وحصادَ حياته
الجادة الدؤوب .
أجل ، لقد أزجى إليه باقةً ناضرةً مونةً تضم شعره وأغانيه وخواتمه
ومسرحياته ولوحاته ورواياته ومقالاته ، وآب الموت ، محملاً بأثمن هدية
يمكن أن يظفر بها من إنسان شاعر .

* * *

وتتلع زهرة الشعر رأسها من الباقة المؤتلفة المونة ، فلعلها أن تكون
أجمل الزهرات وأطيبها شميماً ، فإلى صفة الشاعر ينسب (طاغور) وبها يُزهى
ويفخر .
وشعر (طاغور) كله ، يطاوع روحه الخيرة ، ويزخر بموسيقا لفظية ،
قربت رعشاتنا من خفقات قلبه .
ولعل ولع (طاغور) برقة اللفظ وموسيقاه يفسر لنا ، على الجملة ، شغفه
بالغناء والموسيقا ، ويتضمن شعره ، حتى بعد نقله الى لغة أخرى ، موسيقا
خفيفة ناعمة ، تذكرنا ، كما يقول (أندره جيد) ، بأغنية لشومان أو بلحن
(أريا) لجان سباستيان باخ .

« إن نور الموسيقى يضيء الدنيا ، وإن لهاث موسيقاك المغمم بالحياة ،
ينسرب من سماء الى سماء .

ايه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في الشباك الممتدة من
موسيقاك » .

وقد تأثر (طاغور) بالرمزية ، وعانقت ظلالها الغامضة بعض شعره ،
كقصيدة (الصدى) ، فتأبّت معانيها الكامنة على التفسير ، وتعلل (طاغور) بإيثار
الرمز ، انك لو استنشيت أريج زهرة ، وقلت : « لا أفهم شيئاً » ، فالجواب يعني
أنه ليس ثمة شيء يتطلب الفهم ، فليس هناك سوى الأريج ، وكذلك الشعر
المبهم الرمزي الذي تطرب له ولا ينقاد معناه لفهمك .

وكثيراً ما يعمد (طاغور) الى القصص والأساطير فيرويهها شعراً ويرمز بها
الى شيء ، ويخلص منها الى فكرة مستجدة رائعة ، فما أحلى هذه القصة
الشعرية :

« لقد مضيت أستجدي من باب الى باب على طريق القرية ،
حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد ، كأنها حلم رائع .
ورقّت تعلّاتي ، فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظر
العطايا المغوية والخيرات المنثورة ، هنا وهناك على التراب .
وتوقفت المركبة ، حيث كنت أنتصب ، وصافحتني نظرتك فنزلت وأنت
تبسم ،

وشعرتُ بأن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ،
ومددت فجأة يدك اليمنى وقلت لي : ماذا لديك من عطاء ؟
آه . يا لعبتك الملكي وأنت تبسط راحتك الى المتسول لتستجدي منه .
وقد ارتبكتُ وحرّتُ ، وتناولتُ في خفية ، حبة قمح صغيرة من جرابي
وأعطيتك إياها ،

ولكن كم كان عجبي كبيراً . آخر النهار ،

حين وجدت ، وأنا أفرغ جرايبي على الأرض حبة صغيرة من الذهب بين
كوم من الحبات الحقيمة ، وبكيت أحر بكاء ، وتمنيت ، لو أوتيت الجرأة لأهب
لك نفسي كلها » .

* * *

وقد طَلَّعَ الرمز صوره الشعرية بالخصب والحركة ، على أن هذه الصور
تتراءى أبداً موشحةً بالوهم ، معلقةً بفوارب الحلم والخيال ، فإنها تظل منسجمةً
متناسقةً ، تستروح فيها عبق الأرض وتراتها وتحسُّ فيها خلجة الحياة الطيبة
السخية .

والى جانب الظلال التي تسفحها رمزيته الرقيقة ، فإن النور يلعب في صوره
ويوشئها بالألق والإشراق :

« أيها النور الذي يغمر الكون ، يا قبلة العيون ، يا عذوبة القلب ،
النور يرقص في مركز حياتي ، وحيي يتجاوب مع دفقة النور .
السموات تنفسح والريخ تهبُّ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .
إن نور الصباح قد غسل عيني ، تلك هي رسالتك الى قلبي ،
فانحنى طلعتك ، من عل ، وغابت عيناك في عيني ولامس قلبي قدميك » .
وفي الحق إن شعر (طاغور) ليس شعراً يتعد فيه اللفظ والنغم والمعنى ،
بل هو رسالة فكرية إنسانية تماثل ، في نبالتها وصفانها ، رسالة المفكرين
المصلحين العظام .

وقد اتسق له أن يجنح رسالته هذه بالشعر ، فوهب لها دماً جديداً ،
وأمدّها بنسج الحياة وبث فيها رِيشةً وحركةً وانطلاقاً ، فلا تسمى وأنت تقرأ
شعره الى الفكرة التي تضمّنتها ولكنها هي التي تأتي وتسلس لك وتدخل أغوار
نفسك ، فكأن شعره الطلي ثمرةً شهية ، تريد أنت منها في الظاهر استجابةً ولذةً
وتريد هي لك في الواقع فائدةً ومنفعةً وعبرةً .

ويقوم جذع آرائه الفكرية على مفهوم المحبة بمعناها الثمر الرحيب ، فهو يحب أخاه الإنسان ، دون أيما فارق في المنزلة والدين والتجار فيقول :
« إن قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم ،
بل نحو من لا رفيق لهم ، بين الفقير والحقير والضايع » .
وهو يحب الكون ويشفق به حين يتحد معه في كل واحد فيقول :
« إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ليل نهار ،
هو الذي ينساب في الكون ، ويرقص على إيقاع موزون .
إن شباب الأرض والماء يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ،
ولهاث الوجود كله يتردد ضمن أفكاره ، كما يتردد في ثقب الناي » .
ولا يريد (طاغور) لهذا الحب أن يكون نزوة عارضة عابرة ، بل حباً ندياً
مستمراً ،

« حب لي ذلك الحب الذي يود أن ينفذ إلى أغوار الوجود ،
ثم ينساب نسفاً خفياً في أغصان شجرة الحياة ليعث الثمار والأزهار » .
وهو يحب ربه متغنياً به ، باحثاً بفكره ، بقلبه ، بأغنياته . لا يحمله علي الاستقصاء في البحث ، القلق أو الشك ، بل الحب النقي المصافي البريء من أوضار اللذة ومن التصوف معاً ، الحب الذي لا يصدف عن الحياة ويهرب منها ، زاهداً بها متجانفاً عنها ، بل الحب الذي يغيره بالحياة الحرة الباسمة الجذلى ،
يقول :

« ليس الخلاص في الزهد ، أنني أشعر بضمة الحرية في ألف رباط من اللذات ،

لا ، لن أغلق أبواب حواسي ، إن لذات البصر والسمع واللمس سوف تنتظم لذتك ،

أجل إن أوهامي سوف تحترق في ألقة الفرح ، وإن رغباتي كلها سوف تؤتي ثماراً من الحب » .

وهو يحبُّ وطنه المتشوّف الى الاستقلال ، فيرجو له الحرية ويعمل على
إيقاظه :

« هناك حيث لا يلبس الفكر خوفاً ويكون الرأس متلعاً الى العلاء ،
هناك ، حيث تكون المعرفة حرة ،
هناك حيث لم يجزأ العالم بين حواجز ضيقة مشتركة ،
هناك حيث لا يضل العقل النير في الصحراء الموحشة من العادات البالية ،
أجل . في نعيم الحرية ، أبتاه ، دع وطني يستيقظ » .

* * *

يقول (طاغور) :
« إن الزهرة الأولى التي نورت وتفتحت على الأرض قد حملت الأغنية على
أن تولد » .

وتتطاول زهرة رنا . من الباقة الياقة ، تريد أن تعانق زهرة الشعر ، أن
ترتشف منها نداها ، إنها زهرة الموسيقى والغناء توأم زهرة الشعر ، وقد نورت
على شفتي (طاغور) ورشفت منها أعذب الأنغام وأحلاها ، أجل ، لقد حملت
الأغنية على أن تولد وتهزج وتنطلق .

كان لطاغور صوتٌ ندي ، وكان كأخيه (جيوثيرندرا) مولعاً بالموسيقا
والغناء ، وكانا يتعاونان على تلحين قصائده وتنظيمها ، فكان ، (جيوثيرندرا) يضع
اللحن ، و(رابندرانات) يصفي إليه وهو يعزف على البيانو ، فيستوحي من اللحن ما
يناسبه من الشعر ، وكان يؤثر هذا الأسلوب في التلحين . فقد كان يرى أن على اللحن
أن يسبق الشعر وأن على الشعر أن يحمل اللحن ويخدمه لأنه الجذع والأصل .

وفي الحق ان فتي الشعر والغناء هما من بين الفنون كلها ، أكثرها ألفة
وانجذاباً . فالشعر يتمم الغناء ويمتزج به على نحو وثيق مترابط .
وقد تعانق الشعر والغناء ، لدى (طاغور) في انسجام وتناغم عجيبين ،

حتى لقد وضع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية ، كان لها أثر كبير في الموسيقى المعاصرة الهندية ، وقد أتسق له خلال إقامته في لندن ، أن يستمتع بالموسيقى الغربية ، فأعجب بما فيها من عمق وانسجام وتنوع ، وأفاد منها كثيراً في تلوين أغانيه الشعبية . وكان (طاغور) يعتمد بعد أن امتدَّ به العمر على ابن أخيه ، وكان مثله مشغوقاً بالغناء ، فكان يردد الأغنية ويرجع فيها ويهزج بها وابن أخيه يأخذها عنه ويذيعها ، لتلهج بها كل شفة .

يقول (طاغور) في كتاب (السادھانا) :

« إن الموسيقى هي أنقى أشكال الفن . وهي أقرب تعبير عن الجمال ، وإننا لنشعر أن إفصاح اللانهاية في الأشكال المحدودة من الخلق ، هو الموسيقى نفسها تناسب صامتة ظاهرة . إن السماء الداجية التي تحصي النجوم دون ونى ، شبيهة بطفلٍ مشدود بكلماته الأولى المبهمة لا يني يردد لفظة واحدة ويصغي إليها بفرحة لا تنضب » .

* * *

وتتوالت من الباقية زهرات مرحات ، لعلها أن تكون قد هربت من مسرحية (طاغور) : دورة الربيع ، بعد أن لهت وتغنّت وتضوعت ، وأدّت دورها وهرقت شذاها ، ثم بدالها أن تستيق الى هذه الباقية ، لتغري بقراءة المسرحية .

وهذه المسرحية ، أدنى الى فن الشعر والغناء من فن المسرح ، فحوارها يتسلسل صوراً شعرية خلابة ، تهيم الموسيقى بين كلماتها ، هيمنة النسيم بين عذبات الأغصان ، وتلعب الأزهار أداواها في الربيع ، فتسعد وتشقى كالأناسي في الحياة .

ها هي ذي تتراءى براعم غضة ، تتغنى مع برعم (الشامباك) :

« إن حركتي تختبئ في سكون أعماقي ، في عذوبة ميلاد الأوراق الفضة ،

في فيض الزهور ،

في الاندفاع الخفي من الحياة الجديدة نحو النور ،

إن هزتها تُرعش السماء وتحركُ صمتَ الفجر» .
ثم تنورُ البراعمُ وتزهو مع بشائر الربيع الطلق ، وتنشد في مهرجانه ،
وتمضي كالأطفال عابثةً لاغيةً لاهية .

وفي المسرحية تتألق أفكارُ فلسفيةً وحكمٌ ، كما تتألق قطرات الندى على
أفواف زهرة ، فتجذبُ الى جانب الصورة الساحرة الأخاذة ، حكمةً بليغةً وفكرةً
بعيدة الدلالة .

وكذلك تأخذ جل مسرحيات (طاغور) بمدرجة هذه المسرحية في مؤالفتها
بين الصورة الشعرية والفكرة . وقد تطنى الفكرة على الصورة الشعرية في بعض
مسرحياته ، كمسرحية (الضحية) التي يسود فيها حوار فكري ممتع ، ونرى فيها
الى الملك (غوفيندا) يقرر تحريم الأضاحي ، بعد أن صدع قلبه مرأى فتاة تنشج
باكية حين أخذت عنزتها لتقدم قرباناً .

وتجد الصورة الشعرية سائدةً في مسرحية (شيترا) دون أن تتحيف من
عمق الفكرة .

وقد قبس (طاغور) موضوعها من ملحمة (المهابهاراتا) انها قصة المرأة
والرجل ، وتري فيها، الى البطل (ارجونا) مشغوفاً متيماً بشيترا ، وكان أبوها
الملك قد ربّاه كما لو كانت فتى ، فعلمها القتال والصيال والتزع في القوس ،
وقد صبا قلبها الى (ارجونا) ولكنها تأبّت عليه وقاومت حبه بإباء وكبرياء ، غير
أن انوثتها لانت أخيراً ، وانحنت أمام قوة الرجل الذي تحب ، وانكفأ بأسها
لتعود امرأة وحسب ، تغلب بسر وضاءتها وقسامتها ، وتقعن بالدور الأبدي
الذي قسم لها ، دور الزوج المحبة والأم الرؤوم .

ولطاغور مسرحية رائعة ، يترقق حوارها في دفء انساني عذب معبر ، هي
(مكتب البريد) ، تجد فيها الطفل الصغير (امال) ، قد اتخذ مجلسه ، بعد أن
أقعده المرض . أمام النافذة ، ينتظر في أمل متصل ، مقدم رسالة من الملك
(هيرالد) ، وتتطامن نظراته الى الطريق ويتحدث الى السابلة ، في حوارٍ ساذجٍ

وانهم ليضيّقون . في البدء ، ذرعاً بأسنلته ، ولكن الحديث يتصل ، رهواً
سلساً ، كنغم طلي ، لينفي همومهم ، ويسرّي عنهم .
بيد أن الرسالة المنتظرة لا تأتي ، والطفل مدنف ، ويمثل الملك نفسه ،
أخيراً ، أمام الطفل لتسامي روحه مطمئنة سعيدة .
وكذلك ترادفت مسرحيات (طاغور) وعددها أربع وعشرون مسرحية ،
تخطر فيها الصور والرموز والأفكار مسربلةً بنبضات قلبه . وأتت كل مسرحية
تحمل جانباً من رسالته الفكرية والانسانية ، في إطار وتزويق جديدين .
ولم يكن (طاغور) يرى ضيراً في أن يمثل في مسرحياته ، حتى عدّه
بعضهم من أعظم الممثلين في عصره .

* * *

وتطلّ من الباقة زهرة ذكية الأريج تهرق عطرها وتغازل الشاعر وتغريه بأن
ينسى أوزانه وقوافيه أمدأ قصيراً ، ليفسرها ويحوطها بمنطقة الهادي العذب ،
وها هي ذي تعطو غصنها الفينان ، متطلعةً إلى كتابه (السادھانا) الذي يجلو
فلسفته في الحياة والحب والجمال والروح ، لتزهي ، تبتاهة ؟ معجبة ، وهو
يتحدث عنها حديث المفكر الفيلسوف :
« انظروا إلى الزهرة ، إنها مدعوة ، مهما بدت رفاقة الحسن إلى أداء دور
وانجاز مهمة كبيرة .

ان شكلها ولونها موصولان بعملها ، وان عليها أن تؤتي أكلها جيداً ، لنلا
توقف ديمومة حياة النبات وتدع منظر الأرض قفراً يباباً . ان لون الزهرة
وأريجها متصلان السبب بذلك ، فما تكاد النحلة تلحق الزهرة حتى يأزف أوان
الشر ، وتتساقط أفواف تويجها الرقيقة ، وحتى يلجئها توفير قاس الى التخلي
عن أريجها العذب . بعد هذا ، لن يتاح لها فسحة تبسط فيها للشمس زينتها ،
فهي مشغولة بجماع كيائها .

ان الضرورة تتراءى من الخارج ، كأنها عامل الطبيعة الأوحـد الذي يحدو كل شيء ، ويدفعه . فالبرعم يفضي بالضرورة إلى زهرة وبها تحور الزهرة إلى ثمرة وتنشر الثمرة البذر في الأرض ، والضرورة تنبت البذر من جديد ، وبه لا تأتلي السلسلة المتصلة تنتقل من جهد إلى جهد .

ولكن هذه الزهرة نفسها ، حين تخاطب قلب الإنسان فإن قضية نفعها العملي تتوارى ولا تعود موضع بحث ، وها هي ذي تضحى رمزاً للمسرة والراحة . وهكذا فإن الشيء نفسه الذي يتجلى فيه الجهد المتصل ، هو من نحو آخر ، تعبيرٌ كاملٌ عن الأمن والجمال .

بهذا المنطق الهادئ الذي يخاطب القلب والعقل معاً ، يسلسل (طاغور) آراءه وخواطره في كتابه (السادها نا) ، فإذا بالشاعر الذي ألف أن يهدد اسماعنا بقصائده الحلوة الشجية ، يوافينا في سَمَتِ المفكر المتأمل ليسط لنا خواطره وفلسفته القائمة على المحبة المتممة لفلسفة (اليويانيشاد) .

وحين يروق لطاغور أن يجلو سمات الفكر الهندي الأصيل الذي يمتح من الطبيعة والكون ويتحد معهما في كلٍّ واحدٍ منسجِمٍ فإنه يصفه بالشمول ، ويؤول اتحاده الوثيق بأن المدينة الهندية قد نشأت وترعرعت في قلب الغاب ولم تنشأ كالمدينة الغربية ، ضمن اسوار المدن .

يقول (طاغور) :

« يرى الفكر الغربي ان كل شيءٍ منخفضٍ دائرٍ في سلم الإنسان هو الطبيعة ، وان كل شيءٍ يحمل سمة الكمال الفكري والخلقي هو إنساني . وبالمقابل فإن الفكر الهندي لا يتردد في الاعتراف بصلته وقربته من الطبيعة واستمرار وشأنجه بكل شيء » .

ويرى (طاغور) ان الهند قد اختارت المجالي الحافلة بمظاهر الجمال لتكون اماكن حجبها ، حتى يتيسر للفكر ان يجاوز افق المنافع الضيق ويشعر بأن مكانه هو في اللانهاية .

ولهذا السبب أيضاً ، نجد في الهند وحدها شعباً بأسره يمتنع عن أكل اللحوم ، رجاءً أن ينمي شعور المحبة الشاملة لكل شيء حي ، وهو حادث فريد في تاريخ الإنسانية .

في الباقة الياضعة المفضلة ، زهرة رشيقة لعوب ، تأتمر بريشة الشاعر الشيخ ، فتسارقها النظر ثم تشب إليها فتودد إليها ، ضاحكة ، مريضة ألوانها ، باسطة أفوافها ، مستجديّة نظرة عطف .

وتسلس الريشة العجوز لاغراء الزهرة العابثة المرحّة ، وتمتد إلى الأصابع فتمزجها وتؤلف بينها ، وتنسرح نظرات الفنان إلى الألوان الرفافة ثم تنكفي إلى نسيجة لوحته ، وتواكب نقلة ريشته وتهديها وتفصح أمامها عالماً من الزهر طريفاً مبدعاً .

وكذلك حلا لطاغور ان يدخل جنة الألوان . وهو شيخ ، ليجود في فن التصوير ويترك قرابة ألفي لوحة تُعدّ تراثاً فنياً ذا شأن .

وكان كثيراً ما يعتمد إلى مخطوطات قصائده ، فيمد يراعه خطوط بعض الأسطر التي شطبها ويمنحها شكلاً عجيباً ، فتتراءى كأنها أشباح غريبة وافت من عالم آخر لتستقي من جداول كتابته المنمقة وتهب لحروفها معاني جديدة .

ثم طاب له أن يفرع إلى الأصابع ويصور لوحات كبيرة - كان يدعوها بحق قصائد ملونة - وكانت تنسجم في خطوط وألوان وشيآت لا تسلكه في اتجاه معين من الرسم ، بل تجلوه مصوراً بارعاً ذا أسلوب خاص به ، تنساق فيه الألوان لريشته وتنقاد ، طيعة راضية .

في الباقية زهرات ناضرات ، تشير إلى مقالاته ورواياته وقصصه ، وتدلّك على النبع الشهى الذي تنهل منه ، انها تنفض لك ملامح المجتمع الهندي ، بأسلوب واقعي ، موشى بالصور الشعرية ، وتنتقد بعض عاداته وعيوبه ، وتشقّ له طريقاً لاجبة مشرقة .

أجل ، كان حصاده غزيراً ، كبيراً ، فقد أزجى (طاغور) كأس حياته المترعة حناناً ، وقطوف كرومه العذبة وجني حياته ، يتلخص في مائة وعشرين مجلداً .

وغاب (طاغور) ولكن اسمه يظل ينبوعاً من نور ومحبة ، وكأنني به مايزال حياً بين ظهرانينا ، يطلّ علينا طلّة الشمس ، بجبينه الرحب ، ينفس كالسماء ، بعينه الوديعتين المتألفتين ، بابتسامته الحلوة تأوي إلى شفثيه ، وكأنني بشفثيه ترتلان هذه الكلمات التي لهج بها ذات يوم :

« من أنت أيها القارئ ، أنت الذي سوف تقرؤني بعد مائة عام ؟

ليس في مكنتي أن أبعث إليك بزهرة واحدة من الاكليل الربيعي ،

ولا بشعاع مذهب واحد من تلك السحب هناك .

افتح الأبواب وتأمل في المدى القصي .

وأجن من حديقتك الزاهرة الذكريات العاطرة الفاغمة من الزهر المصوح

منذ مائة عام .

فقد يكون في ميسورك ان تشعر والسرور يملأ عطفك ،

بالفرحة الحية التي تغنت ذات صباح ربيعي ،

مريقة صوتها الهنيء ، عبر مائة عام » .

بيع حقير

جیتنے والی

١

لقد جعلتني لا نهائياً ، تلك هي لذتك .
 هذه الكأس الرقيقة ، انك ترتشف منها دوماً ، وتمعمها دوماً حياة ندية .
 هذا الناي الصغير من القصب ، لقد حملته معك إلى السهول
 ونفخت في ثقبه أناشيد لا تبلى جدتها .
 بلمسة خالدة من يديك ، فان قلبي الصغير قد فرع حدوده ، جذلان ،
 وهفا في مناجاة غائمة .
 أما هباتك التي لا تنتهي ، فليس لدي سوى راحتي الضئيلتين للامساك
 بها ، بيد ان العمر يمضي ، وأنت تهرق لي ، وسيبقى دوماً مكان ينتظر ان
 يمتلئ .

٢

حين تأمرني بأن اغني ، يخيل إلي ان على قلبي أن ينشق تيهها ،
 وأحدق إلى وجهك ، فتستبق الدموع الى عيني .

ان كل ما في حياتي من بحةٍ وتنافرٍ يذوب ويصير إلى تناغمٍ عذبٍ ،
وتبسط عبادتي جناحيها كطائرٍ فرحٍ في هيمانه عبر البحر .
إنني أعلم بأنه يسرُّك غنائي ، وأعلم بأنه يؤذُنُ لي كمنشدٍ فحسب ،
بأن أمثل أمامك .
إنني ألامس ، بأطراف الجناح المنبسط من غنائي ، قدميك اللتين لم
يكن في ميسوري ان أمل الوصول إليهما .
وانني لأنسى نفسي ، وأنا سكران في نشوة الغناء فأناديك :
- ايها الرفيق ، أنت يا مولاي .

٣

اما كيف يتردد الغناء في لهاتك ، أيها المعلم ، فذلك ما لا أعلمه البتة
وما عليّ إلا أن أصغي دوماً في طرب صامت .
إن نور موسيقاك يضيء الدنيا ، ولهات موسيقاك المفعم بالحياة ،
ينسرب من سماءٍ إلى سماءٍ .
ان الموجة المقدسة المنثالة من موسيقاك تعبر الحواجز الحجرية ثم
تهدر ماضيةً مسرعة .
ان قلبي يتشوف إلى الاتصال بغنائك ، ولكنه يجهد عبثاً في الوصول إلى
الصوت ، وأود أن أتكلم ، بيد أنه لا يتسق من كلامي أي أغنية ، وانتحب
باكياً ، مرتبكاً .
آه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في شباك موسيقاك التي لا نهاية
لها .

٤

يا حياة حياتي ، سأحاول دوماً ان احتفظ بجسدي نقياً ، عالماً بأن
لمستك الحية تستروح الغفوة فوق اعضائي كلها .
سأحاول ان اجعل أفكاري بمنجى من أي زيف ، عالماً بأنك أنت الحقيقة
التي توقف نور الحق في فكري .
سأحاول أن اقضي دوماً الشرور من قلبي ، وان ادع حبي موفياً بالزهر
عالماً بأنك تسكن في المذبح الخفي من قلبي .
وسأجهد في ان اجلوك في اعمالتي ، عالماً بأن قدرتك هي التي تمنحني
القوة في العمل .

٥

أطلب إليك أن تمن علي فتأذن لي بأن أستريح لحظة إلى جانبك ، أما
الاعمال التي شرعت فيها فسأنهيها إثر ذلك .
إن قلبي المحروم من التطلع إلى وجهك لا يعرف راحة ولا استقراراً ،
وان جهدي ليس إلا عناء متصلاً في بحر من العناء غير محدود .
اليوم وافى الصيف إلى نافذتي ، مصحوباً بزفرائه وهمساته ، وشرعت
النحلات المتسابقة تغازل الباقة المزهرة .
أزف وقت الاستجمام ، ووجهي قبالة وجهك ، وحان وقت الغناء الذي
تُنذر له الحياة ، في ذلك الصمت وذلك الفراغ الخصب .

٦

أقطفُ هذه الزهرة الصغيرة ، أمسك بها سريعاً ، لنلا يدهمها الذبول
وتتناثر أفوافُها في التراب .
وإذا لم تحظ بمكانٍ من إكليلك ، فلا تضنَّ عليها ، مع ذلك ، بشرف
اللمسة الموجعة من يدك : اقطفها .
أنا أخشى أن يتصرَّم النهار قبل أن اعرف ذلك ، وقبل أن يفوت وقتُ
تقديم الهدايا .
ورغم أن لون هذه الزهرة ناصِلٌ نحيلٌ ، ورائحتها وانيَّةٌ ، فخذها لخدمتك
واقطفها في أوانها .

٧

لقد تجردت أغنيتي من حليها ، فلن تُزهي بها بعد الآن ، ان الحلِّي قد
يعيق اتحادنا ويفصل بيننا ، فالجلبة التي تخلص من وسوسته قد يطفئ على
همساتك .
ان زهوي كشاعر ينكفي من الخجل أمام نظرتك ، آه أيها المعلم
الشاعر ، لقد اتخذت مجلسي بحذاء قدميك ذرني اجعل حياتي بسيطةً
مستقيمةً شبيهةً بقصة الناي حتى تقدر أنت أن تملأها بموسيقاك .

٨

ان الطفل الذي يرتدي ثوب الإمارة ، يضع حول عنقه الاطواق ، ويفقد
لذته كلها في اللعب . فان ثوبه يعيق كل خطوة يخطوها .

انه لينتيد مكاناً بعيداً ، لا يجرو ان يريم ، خشية ان يبلى ثوبه وان
يعلو خليه الغبار .
اماه . ايجدر به ان يكون حبيس هذا الترف ، بمنأى عن غبار الأرض
النافع ؟ أفما تحرمينه هكذا من حق مشاركته في العيد العظيم من الحياة
الانسانية المشتركة ؟

٩

ايها المخبول الذي يحاول ان يحمل نفسه على كتفيه ، ايها المتسول
الذي يقدم ليستجدي من باب بيته نفسه .
ضع اعباءك بين يدي من يستطيع ان يحمل كل شيء واياك أن تلقي
بنظرة حسيرة إلى خلف .
ان اشتهاك يطفى شعلة المصباح إما لامستها أنفاسه ، انه مدنس ، فلا
تقبل أي عطاء تعرضه يداه الملوثتان ، وارض بما يقدمه إليك الحب المقدس
فحسب .

١٠

ههنا المتكأ الذي تستريح فوقه قدماك ، حيث يعيش ذو المتربة
والحقير والضائع .
حين احاول أن انحني امامك ، فإن طاعتي لن يتأتى لها الوصول إلى ذلك
الغور العميق ، حيث تستريح قدماك بين الفقير والحقير والضائع .
حيث لا تُزهى الكبرياء ثمة تسير أنت ، في شملة المتواضع ، بين
الفقير والحقير والضائع .

ان قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم بل نحو من لا رفيق لهم ، بين
الفقير والحقير والضائع .

١١

اصدفُ عن تراتيلك وذرْ غناءك واهجر سبحتك ، من ذا الذي تتعبد له
في تلك الزاوية المظلمة من معبد نوافذه كلها مغلقة ؟ افتح عينيك وانظر لترى
ان الله ليس امامك ، وهنا .
إنه هناك ، حيث الفلاح يحرق الأرض الجاسية ، وعلى طول الطريق ،
حيث يجهد العامل في كسر الحجارة انه معهما ، بشيابه المعفرة ، تحت أشعة
الشمس ووابل المطر ، انضُ معطفك التقى واهبط مثله ايضاً إلى التراب .
الخلاص ؟ أين ترعم انك تجدُ الخلاص ؟ أفلم يُغنِ مولانا نفسه وهو
مغتبطُ ، بروابط الخلق ؟ لقد اتصل بنا إلى الأبد .
اترك تأملاتك ودع زهورك وبخورك ، ماذا يضر إن تمزقت ثيابك أو
تلوثت ؟ اذهب وألزم جانبه في جهدك وفي عرق جبينك .

١٢

إن الوقت الذي تستغرقه رحلتي طويلٌ ، فالدرب طويلة . لقد خرجتُ
وعلوتُ المركبة ، عند انسياب أول شعاع من النور ، وتابعت سفري في قفار
الdney ، تاركاً أثري فوق شتيت النجوم والكواكب .
إن أبعد مرحلة هي التي تجعلني أكثر دنواً منك ، وإن أكثر الانغمام
التيثاً هي التي تقودُ إلى بساطة اللحن الكاملة .
على المسافرين ان يقرع مختلف الأبواب قبل ان يصل إلى بابه ، ينبغي له

الضرب في جميع العوالم الخارجية حتى يصل أخيراً إلى أعماق المعبد .
لقد تركت عيني تنظران بعيداً ، فترة طويلة ، قبل أن أغمضهما وأقول :
أأنت هنا ؟
هذا السؤال ، هذا النداء : آه أين هو ؟ ذاب في دموع آلاف الجداول
وغمر العالم في موجة هذا اليقين : هأنذا .

١٣

ان النشيد الذي كان علي أن أغنية ، لم تهتف به شفتاي حتى اليوم ،
لقد امضيت أيامي في ضبط أوتار معزفي وارخائها .
لم يأت لي الوقوع على الضرب الصحيح ، فالألفاظ لم تكن متساوقة
جيداً ، غير أنه قد تبقى في قلبي احتضار أمنية .
إن البرعم لم يتفتح ، بيد أن الهواء ينسم قربهِ .
لم أر وجهه ، لم أعز أذني إلى صوته ، لكنني سمعت خفق خطاه الهادئة
أمام بيتي .
إن نهار حياتي كله قد انقضى ، وأنا أعِدُّ في بيتي مكانَ جلوسه ولكن
المصباح لم يشعل ولا أقدرُ أن أدعوه إلى دخول بيتي .
انتي أحياء على تعلقه لقائه ، بيد أن هذا اللقاء لم يتسق بعد .

١٤

ان رغباتي جمّة وشكاتي قمينة بالثرثاء ولكنك تنقذني دوماً برفض
متصلٍ قاسٍ ، وقد حيكت هذه الرحمة القاسية طوال حياتي كلها .
انك تهينني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بهذه العطايا الكبيرة

السادجة : - السماء والنور والجسد والحياة والفكر - التي تقدمها إليّ عفواً
والتي تقيني مخاطر الرغبة الجامحة .
وإنني لأتخلف حيناً وقد استبدّ بي السأم واستيقظ حيناً آخر فأبادرُ
بالسمعي خلف هدفي ، ولكنك تتواري عن وجهي في قسوة .
انك تهينني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بلقائك كله وذلك برفضك
إياي دوماً ، وانقاذك إياي من مخاطر الضعف والرغبة المتقلّبة .

١٥

إنني ماثلاً هنا ، لأهزج لك بالأغاني ، ان لي في هذه الغرفة التي
تحصك ، مكاناً اتخذ مجلسي فيه .
ليس لديّ أيّ عمل أقوم به في عالمك ، إن حياتي العقيمة لا تعرف إلا
أن تتسلسل انغماً لا غاية لها .
حين تأزف ساعة صلاتك الصامتة في حلقة معبد منتصف الليل ، مرني
يا مولاي ، أمثل أمامك لأغني لك .
حين يُعدّ المعزف الذهبي ، عند هبوب نسيم الصباح ، هب لي شرفاً
استدعائك إياي .

١٦

لقد تلقيت دعوتي إلى عيد هذا الكون ، وهكذا ظفرت حياتي بالبركة .
لقد رأيت عيناى وسمعت أذناى .
لقد كان نصيبي من هذا العيد ان أضرب على معزفي وقد قمت بكل ما
كان في مقدوري أن أفعل .

وإنني لأسأل الآن : ترى أيوافي الزمن الذي أستطيع فيه أن أقدم وأنظر
إلى وجهك وأزجي إليك تحيتي الصامتة ؟

١٧

إنني انتظر الحب فحسب ، لأهب نفسي بين يديه ولهذا فقد فات
الوقت ، ولهذا فقد أضحيت مسؤولاً عن مثل هذا التخلي .
انهم يأتون بقوانينهم ونظمهم ليقيدوني ، ولكنني انجو منهم دوماً ، اذ
انني انتظر الحب فحسب لأهب نفسي بين يديه .
يلومني الناس ويرمونني بالاهمال ، انني لا اشك في أنهم محقون في اللوم .
لقد مضى يوم البيع والشراء ، وتمت صفقة الأعمال ، إن الذين
يطالبونني ، عبثاً ، قد انكفأوا غاضبين ، انني انتظر الحب وحده . لأهب
نفسي ، أخيراً ، بين يديه .

١٨

إن شتيت الغمام يزحم بعضه بعضاً ، السماء مظلمة ، آه أيها الحب ، لم
تركنتني وحيداً انتظر أمام الباب ؟ .
في زحمة عمل النهار أكون مع جموع الناس ، بيد أنني في يوم مظلم
موحش كهذا اليوم ، لا أتمنى سواك .
إذا لم ترني وجهك ، وتخلّيت عني ، فإنني لا أدري كيف أمضي هذه
الساعات الطويلة الممطرة .
وأبقى لأتأمل في ظلام السماء المنتشر ، وقلبي الشاكي يروود ، دون
راحة ، مع النسيم .

إن لم تتكلم ، فسأتحمل ، في الحق ، صمتك ، وسأملأ به قلبي .
 سأنتظر ساكناً ، في الليلة المتلامحة النجوم ، ورأسي حانٍ مطرق .
 سيقبل الفجر ، بلا ريب ، وستنقشع الظلمة ، وسيسيل صوتك في
 رعشات مذهب تنسرب عبر السماء .
 حينذاك ، ستسقى كلماتك في أغنيات حول أي عش من أعشاشي
 وتتشقق أغنياتك زهوراً في جميع منعطفات غاباتي .

في اليوم الذي تنتور فيه زهرة اللوتس ، فإن فكري وأسفاه ، سيهيم في
 مغامرته دون أن يتاح لي أن أعقله^(١) .
 كانت سلتى فارغة ، فظلت الزهرة مهملة .
 غير أن حزناً كان يستبدُّ بي أحياناً ، فكنت استيقظ من حلمي ،
 مرتعداً وكنت اتنسم الأثر الناعم الذي يتركه العطر العجيب في ريح
 الجنوب .
 كانت هذه النعومة المبهمة تجعل قلبي مريضاً بالرغبة وكان يخيّل إليّ ،
 أنني اتقرّى فيها زفرة الصيف المتقد وهو يجهد مستشرفاً كماله .
 لم اكن أعلم أن كل هذا كان دانيّاً قريباً ، وأن ذلك كان لي ، وأن هذه
 العذوبة الكاملة قد تفتحت في أغوار قلبي .

(١) أعقله : أهدد .

عليّ أن أدفع زورقي : ان الساعات المفسنية تمرُّ على الشاطئ
 - وأسفاه - من أجلي .
 لقد أتى الربيع الطلقُ ثم ولّى ، وأنا الآن مثقلٌ بالزهور الذائبة ،
 انتظر واتخلف .
 لقد أضحّت الأمواج صحّابة ، ووراء الضفة ، ترتعش الأوراق الصفراءُ
 وتتساقط في الدرب الظليلة .
 في أي فراغ تتأمل ؟ ألم تشعر برعشة تجوز الفضاء وتواكب أنغام
 النشيد البعيد الذي يتناهى من غدوة الشاطئ ، الآخر ؟

في الظلال الممتدة من شهر تموز الممطر ، تسير أنت منسرق الخطأ ،
 كتوماً كالليل ، متحاشياً كل العسس .
 اليوم اغمض الصباح جفنيه ، غير ملتفت إلى نداء ملحاح من ريح
 الشرق ، وانتصب شراعاً صفيقاً في السماء الصاحية الزرقاء .
 لقد خنقت الغابات أغنياتها ، وأوصدت أبواب كل بيت .
 في هذا الشارع المقفر ، انت العابر المنفرد . آه يا رفيقي الوحيد ،
 يا حبيبي الأثير ، إن أبواب بيتي قد فُتحت فلا تذهب وتنتسخ كالعلم .

يا رفيقي ، هل كنت خارج البيت في هذه الليلة العاصفة ، متابعاً

رحلة حبك العاشقة ؟ ان السماء تنحب كالولهي اليائسة .
يا رفيقي ، لم يجد النعاس ، الليلة سبيلاً إلى جفني ، في كل لحظة ،
افتح الباب واتقري الظلمات بعيني .
لا ألمح شيئاً أمامي ، وانني لأحار أين تمتدُ دربك . يا رفيقي ، تُرى
حول أي ضفة مبهمه من النهر الأسود كالمداد ، وفي أي طرف قصي من
الغابة المتوعدة تنشد طريقك لتأتي إليّ ؟

٢٤

إذا انقضى النهار وتوقفت العصافير عن لغوها وانهدت الريح المتعبة ،
فاسدل فوقي قناع الظلام مثلما سربت الأرض بسجوف النوم ، وأطبقت في
رأفة وحنان ، أفواف زهرة اللوتس الوانية في غسق الليل .
أبعد الخزي والفقر عن المسافرين الذي فرغ مزوده^(١) قبل أن يتم رحلته ،
عن المسافرين الذي تهللت ثيابه وتعفرت ، عن المسافرين الذي تخاذلت قواه ،
وحدد حياته كالزهرة حين يشتملها ليلاً اللطيف الرقيق .

٢٥

في ليلة الضجر ، اسمح لي بأن أستسلم ، دون عناء إلى الرقاد ، ودع
ثقتي تستمسك بك . لا تسمح لفكري المضني بأن يهيئ لك عبادة تافهة .
أنت وحدك الذي يسدل قناع الليل على عيون النهار المتعبة لتتجدد
غضةً جذلي في يقظتها .

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد .

لقد جاء وجلس إلى جانبي ولكنني لم أستيقظ ، فلتحل اللعنة على ذلك
الرقاد ، آه يا لي من بائس!

لقد جاء حين كان الليل ساجياً ، وكان معزفه بيده وجعلت أحلامي كلها
تناغم أغنياته .

واحسرتي ، لماذا أصبحت ليالي كلها هكذا ضائعة ؟
آه ، لماذا يتوارى عن ناظري دوماً ذاك الذي تدغدغ أنفاسه رقادي ؟

النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلئ النور حياة من نار الرغبة المتأججة .
هذا هو الصباح ولكن لا ترتعش فيه أي شعلة .
أهذا هو قدرك يا قلبي ؟ آه لعل الموت أفضل لك كثيراً .
إن البؤس يقرع بابك ورسالته إليك هي أن يكون مولك ساهراً يقظان ،
وإن يدعوك إلى موعد الحب ، عبر ظلام الليل .
السما ، تغصُّ بركام الغيوم ، والأمطار لا تني أو تفتر ، لا أدري ما
الذي يجيش في قلبي ولا أعلم ما يعنيه .
إن وميض البرق المفاجئ قد أزجى إلى عيني ظلمة ممتدة ، وإن قلبي
يبحث عن الدرب التي تناديني منها موسيقا الليل .

النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلئ النور حياة من نار الرغبة المتأججة .
الرعد يتهزّم والرياح تهبُّ عبر المدى مزمجرة ، الليل داج كالحجر الأسود .
لا تدع الساعات تمر في الظلمة ، وأشعل مصباح الحب من قبس حياتك .

ان عقباتي لعنيدة ، وان الألم ليحزُّ في قلبي حين احاول أن اذلها .
 انني احتاج إلى الخلاص فحسب ، بيد انني استشعر الخجل إما تمنيته .
 انني موقنٌ ان في نفسك غنى لا يمكن تقديره وانك أثر رفيق لدي ،
 غير أنني لا أجرؤ على أن أزيل من غرفتي بهرجة الرياش التي تملؤها .
 ان الكفن المسدل فوقي هو كفن التراب والموت وانني لأكرهه ،
 ولكنني أشده وأجذبه إليّ بشغف ووجد .
 ديوني جمّة وخيبتني متصلةٌ وخجلي ثقیلاً خفيّ ، بيد أنني أرتعش ، حين
 أقبل مطالباً بشروتي ، خشية أن لا تليبي طلبتي .

إن اسمي هو سجنٌ يبكي فيه من أحبسه بين جدرانهِ أنني أعنى دوماً ،
 برفع صرح حول نفسي ، وحين يسمق هذا الصرح ، متطاولاً ، يوماً فيوماً ،
 فإنني أضيع عن ناظري في ظله المظلم ، وجودي الحقيقي .
 وانني لأتبه فخراً بهذا الصرح الكبير ، وأرمم أطرافه بالتراب والرمل ،
 خشية حدوث ثغرة ، مهما تكن صغيرة
 ولكنني ، في كل هذه العناية التي احيط بها اسمي فانني أضيع عن
 ناظري وجودي الحقيقي .

٣٠

لقد خرجتُ وحيداً ، لأذهب إلى هذا الموعد ، ولكن من الذي يتبعني في الظلمة الصامتة ؟
 انني أبعد متجنباً لقاءه ، غير أنني لم أنجُ من تعقبه ، انه يهيج الغبار بصلفه وزهوه ، ويواكبُ بصوته الصاخب كل كلمة ألهجُ بها .
 إنه تلك (الأنثى) الحقيرة ، آه يا مولاي ، إنه لا يعرف الخجل ، ولكنني أخجل من مثولي على بابك بصحبته .

٣١

- أيها السجين ، قل لي من الذي كَبَلَكَ بالقيد ؟ وقال السجين :
 - إنه لمعلمي... لقد كنت أحسب ان في استطاعتي أن أفوق أي إنسان في هذا العالم ثراءً وسلطاناً وكنت أحتجج^(١) ، في مخبأ كنوزي ، كل المال الذي كان عليّ أن أؤديه إلى ملكي ، فلما غلبني النوم ، تمددت فوق السرير الذي أعدّ لمعلمي ، فلما استيقظتُ ألفتني سجيناً في مخبأ كنوزي .
 - أيها السجين قل لي من الذي صنع هذا القيد الذي لا يتحطم ؟
 وقال السجين :
 - أنا الذي صنع هذا القيد ، بعنايتي ، وكنت أحسب ان سلطاني الغلاب سيشدّ العالم الأسير ، مثبتاً إياه ، ومتيحاً لي حرية لا يكدر صفوها شيء .

(١) احتجج اخترن .

وهكذا كنت ، لا أني اصنعُ القيد ، ليلاً ونهاراً ، وأسويهِ بنارٍ متأججة
وضربات قاسية ، فما كاد ينتهي العملُ وتتماسك حلقاتُ القيد حتى الفيئني
أنا الذي كُبلتُ به .

٣٢

أولئك الذين يحبونني في هذا العالم ، يحاولون بجميع الوسائل ، أن
يجعلوني بمأمنٍ ، وليس الأمرُ كذلك مع حبك الذي هو أكبر من حبهم ، فانك
تتركني حراً .
انهم لا يجروون أبداً على تركي وحيداً لنلا أنساهم ، ولكن الأيام
تتعاقب ، وأنت لا تبدو البتة ، وعلى أنني لا اذكرك في صلواتي ، وعلى أنني
لا أجدبك للبقاء في قلبي فإن حبك لي مايزال ينتظر حبي .

٣٣

حين متع النهار ، أقبلوا على بيتي وقالوا :
- لن نشغل هنا إلا أصغر غرفة .
ثم قالوا :
- سنمكد بالعون في عبادة ربك ، وسنقبعُ ، متواضعين راضين ، بنصيب
من رحمته فحسب .
ثم انتحوا زاويةً من الغرفة وقبعوا فيها ، هادئين .
ولكن ، حين جن الليلُ ، وجدتهم قد انتهكوا ، بجرأة وصخب وجشع
دنيء ، حرمة معبدي المقدس وألفيتُ المذبح سليباً من قرابينه .

٣٤

أبق لي بعض نفسي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أدعوك : يا جماع نفسي .
 أبق لي بعض ارادتي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أشعر بوجودك إلى جانبي وأن أوافيك مع الأشياء كلها ، وأن أقدم إليك حبي في أي لحظة .
 أبق لي بعض نفسي حتى لا يتأتى لي أن أخفيك .
 أبق لي تلك الصلة الصغيرة ، صلة حبك ، التي تربطني إلى ارادتك والتي انسابت بغيثك بواسطتها إلى حياتي .

٣٥

هناك ، حيث لا يلابسُ الفكرُ خوفاً ، ويكون الرأسُ متلعماً إلى العلاء .
 هناك ، حيث تكون المعرفة حرة .
 هناك ، حيث لم يجزأ العالم بين حواجز ضيقة مشتركة .
 هناك ، حيث تنبثق الكلمات من أغوار الاخلاص .
 هناك ، حيث الجهد الذي لا ينضب ، ويبسط ذراعيه نحو الكمال .
 هناك ، حيث لا يضلُّ العقل النيرُ في الصحراء الموحشة من العادات البالية .
 هناك ، حيث يتقدمُ الفكرُ - الذي تقوده أنت - في المدى الرحيب من الفكرة والعمل .
 أجل ، في نعيم الحرية ، ابتاه ، دُعُ وطني يستيقظ .

٣٦

هذه صلاتي إليك ، يا مولاي ، اضرب ، اضرب جذور ذلك الفقر في قلبي .

هب لي القوة لا تحمل في هينة ويسر ، آلامي وأفراحي .
 هب لي القوة لأجعل قلبي مثمراً في خدماته .
 هب لي القوة لأعمل على ألا أتكرر للفقير وألا أثني ركبتني أمام السلطان المتحدي .

هب لي القوة لأرقى بفكري بعيداً عن السفاسف اليومية .
 هب لي القوة لأضع قوتي ، في شغف ، تحت ارادتك .

٣٧

كنت أحسب أن رحلتي قد شارفت نهايتها ، حين توصلت إلى الحد الأقصى من سلطاني ، وأن الدرب الممتدة أمامي قد سدت ، وأن ذخيرتي قد نفذت ، وأن الزمن قد أتى ليضيء إلى ظلام صامت .
 بيد أنني اكتشفت أن ارادتك لا تعرف نهاية في نفسي ، وحين تذوي الكلمات القديمة في اللسان ، فإن اغنيات جديدة تتفجر في القلب وحيث تمحي آثار الأقدام القديمة ، فإن أرضاً جديدة تتراءى بمعجزاتها الرائعة .

٣٨

أنت الذي أريد ، أنت وحدك ، فليردّ قلبي هذا دون انقطاع .
 إن كل لذاتي التي انعم بها ، ليلاً ونهاراً ، هي زائفة حتى اللباب .

وكالليل الذي يخفي في ظلمته رغبة النور في الانبثاق . فان في أعماق شعوري تدوي هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .
وكما تتشوف العاصفة إلى نهاية هادئة ، حين تهب بجماع قوتها ، ضد الهدوء ، فإن ثورتي ، تهب ضد حبك وتدوي منها هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .

٣٩

حين يكون القلب جاسياً جافاً ، فاهبط عليّ في شؤوب من الرحمة .
حين تفقد الحياة عذوبتها ، فأقبل عليّ في غناء هادر .
حين يرفع العمل الصاخب صوته في كل الأرجاء ، مبعداً إليّ عن هناك ، فتعال إليّ يا سيد الصمت بأمنك وراحتك .
حين يجثم قلبي المعنى ، لائذاً بزاوية ، فادفع الباب يا ملكي ، وأقبل في مهرجان ملكي . حين تُعشي اللذة فكري بسرّاتها وغبارها ، فتعال إليّ أنت أيها القدس الأوحّد ، أنت أيها اليقظ ، ببرقك وورعدك .

٤٠

آه يا رب ، لم يهطل المطر منذ أيام عديدة في قلبي القاحل ، ان الأفق قد غُري بقسوة . فليس فيه أي شيء صغيرة لسحابة ولا إشارة قريبة إلى ديمة رطبة .
ارسل عاصفتك مغيظة كالحة ، مفعمة بالموت ، ان كانت هذه هي رغبتك ، وشقّ جنات السماء بإلهاب برقك .
ولكن اذكر يا مولاي ، اذكر ذلك الحرّ المقيت الصامت الشديد القاسي الذي يتلظى به قلبي اليانُس .

ارسلُ الينا من أعلى سمانك ، سحابة العفو الشبيهة بنظرة دامعة من عيني الأم ، حين يكون الأب حائقاً .

٤١

يا حبيبي ، أين تقفُ خلفهم جميعاً ، موارياً نفسك في الظل ؟ انهم يدفعونك وهم يمشون في الطريق المغبرة ولا يعيرونك أي التفات .
انني أمضي ساعاتٍ مضنية وأنا أقدمُ إليك قرابيني ، ولكن العابرين يأتون ليأخذوا زهوري ، زهرة فزرة ، وعما قريب ستصبحُ سلتِي فارغة .
لقد ولّى الصباحُ ، وانقضت الظهيرةُ ، ان عيني مثقلتان بالنعاس في ظلّ المساء ، ان الرجال الذين يؤوبون إلى بيوتهم يخالسونني النظر ويتسمون فأمتلي ، خجلاً ، انني اجلسُ مثل الفتاة المتسولة مدانية ذلاً ذلاً ثوبي^(١) إلى وجهي وحين يسألونني عما أريد فأنتني أغضّ طرفي ولا أجيب .
آه كيف يمكنني ، في الحق ، أن أقول لهم إنك أنت الذي انتظرُ وإنك وعدتني بأن تأتي ؟ كيف أبوح لهم أنني قبلت فقري صداقاً ؟ آه انني أجذب كبريائي إلى حنايا قلبي .
إنني جالسةٌ فوق العشب ، أتأملُ في السماء ، واحلمُ بروعة مجيئك المفاجيء ، تحيطُ بك المشاعلُ وترفُ حول مركبتك أجنحةٌ ذهبيةٌ ، إنهم يقفون على حيد الطريق وقد فغروا أفواههم وهم يرون إليك تتركُ مجلسك وتتشلني من التراب ، لتضعَ إلى قربك تلك الفتاة المتسولة المهلهلة الشياب ، وهي ترتعشُ خجلاً وزهواً ، كأنها عريشةٌ يجاذبها نسيمُ الصيف .
ولكن الزمن يتجرّم ولا أسمع دوماً ضجة عجل مركبتك ، وتترادفُ

(١) ذلاً ذلاً الثوب : أطرافه .

مواكبُ جمّة ، يصحبُها ضجيج المجد وجلبته وسحره ، أفلا يوجد اذن سواك
من يود البقاء ، صامتاً ، في الظل ، خلفهم جميعاً ؟ أفلا يوجد اذن سواي من
تود البقاء والانتظار والبكاء وإجهد قلبي بالأمل العقيم ؟

٤٢

عند منبجج الفجر ، تردد همس أننا سنبحر في زورقٍ وانه ليس ثمة
روحٌ في الكون تعلم عن رحلتنا التي لا غاية لها ولا نهاية .
في هذا الخضم الذي لا شاطئ له ، وعلى ابتسامتك الصامتة اليقظي ،
فإن اغنياتك قد تمتلئ انغاماً ، حرة كالأمواج ، حرة من أسر الكلام .
ألم يحن الوقت بعد ؟ ماذا تبقى من العمل هنا ؟ انظر ، إن السماء قد هبطت
الى الشاطئ وعلى النور الناصل ، هفت عصافير البحر ، طائفة نحو أعشاشها .
ألم يحن الوقت للانقلاع ؟ فليغب زورقنا أخيراً ، كأخر شعاع من أشعة
الغروب ، في الليل .

٤٣

كان ذلك يوماً ، لم أكن متهيئاً فيه إلى لقائك ، ولقد وسمت يا ملكي
وأنت تدخل دون دعوةٍ إلى قلبي كشخص من غمار الناس ، مجهولٍ من
نفسي - لقد وسمت بطابع الخلود بعض اللحظات العابرة من حياتي .
والآن ، حين أعثر عليها ، مصادفةً وأرى فيها إلى ميسمك فإنني أجدها
مطروحةً في التراب ، منشورةً بين هناءات الأيام العادية المنسية وأحزانها .
إنك لم تهزأ بلعبتي ، لعبة الطفل ، فوق التراب ، وإن خفق الخطأ الذي كان
يتناهى إلى سمعي من غرفة طفولتي ، هو الذي يتجاوب صداه بين نجم ونجم .

تلكم هي لذتي : ان أنتظر وأرغب على عذار الطريق حيث يسعى الظل وراء الثور ، ويوافي المطرُ في أعقاب الصيف .
ويحييني رسلُ قادمون بالآخبار من سماوات مجهولة ، ثم يغدّون السير في مدى الدرب ، إن حنايا قلبي ممتلئة بالغبطة ، ولهاتُ النسيم العابر عبيقاً بالعدوية .
من الفجر إلى الغروب أقف هنا ، أمام بابي ، انني أعرف ان اللحظة السعيدة ، ستقبل ، فجأةً ، حين يتيسر لي أن أرى .
ومع هذا ، فإنني أبسمُ وأغني ، في وحدتي ، ومع هذا فإن الفضاء معطرُ بشذا الوعد .

ألم تسمع خفق خطواته الصامتة ، إنه آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
في كل لحظة ، في كل عمر ، في كل يوم وليلة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
لقد غنيتُ أكثر من أغنية ، وعلى أكثر من ضرب ، ولكن كل نغمة منها ، كانت تنادي هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، دوماً .
في الأيام المضمخة بنيسان الضاحي ومن درب الغابة هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
في الليالي العاصفة المظلمة من تموز ، وعلى مركبة السحاب الصاخبة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
اشعرُ بأنم يعقب ألماً ، تلك هي خطاه التي تضغط على قلبي وحين تتألق فرحتي ، ففي الملمسة المذهبة من قدمه .

انني لا ادري من أي الأزمان الخالية أنت تقدم إلى لقائي ، لتكون دوماً
أكثر قريباً .

لن تقدر شمسك ونجومك أن تواريك عني إلى الأبد .
كم من صباح ومساءر ، تناهى فيهما خفق خطاك إلى السمع وتسَلَّلَ
رسولك إلى قلبي ، وأسَرَ إليّ نداءه .
انني لا أدري علام تبدو حياتي ، اليوم ، مستوفزة نشوى ، وعلام
تنسرب إلى قلبي فرحة راعشة .
وكان الزمن قد قَدِمَ إليّ ، لينهي عملي ، انني استنشي في الفضاء أريجاً
لطيفاً يضوع من وجودك العذب .

يكاد الليل أن ينقضي في انتظاره عبثاً ، انني أخشى أن يقدم فجأة ، في
الصباح إلى بابي ، وأنا نائمٌ متعبٌ منهوك القوى .
آه أيها الرفاق ، دعوا الطريق لاحبةً أمامه ولا تصدوه .
وإن لم يوقظني خفق خطاه ، فلا تحاولا إيقافني . أتمنى ألا يُرثَقَ نومي
بصداح الطير ولا بهينمة النسيم في نور الفجر الزاهي ، دعوني أغفُ ، في
دعة وهدير ، ولو أتى مولاي نفسه فجأة ، ومثل أمام بابي .
آه ، يا غفوتي ، أيتها الغفوة الغالية التي تنتظر لمستى فحسب حتى
اغيب .

آه ، ان جفني عيني المغمضتين ، لن ينفرجا إلا على نور ابتسامته ،
حين يقف امامي كحلٍ منبثقٍ من ظلمة النوم .
دعوه يظهر امام بصري كأول شعاع وأول شكل بين الأشعة والأشكال .

دعوه يقبل بنظرته ، عند أول رعشة من يقظة روحي واجعلوا عودتي
إلى نفسي تعقب ، على الفور ، عودتي إليه .

٤٨

كان الفجر الصامتُ الممتدُ كالبحر ، يرتعشُ بأغنيات الطيور ، وكانت
الزهور جذلي ، على حيد الطريق . ومن فرجات الغيوم ، كانت الاشعةُ
المذهبةُ تبذل خيرها ومع هذا فقد كنا نتخذ سمتنا في الطريق ، لا نغير
انتباهنا لشيء .

ولم نكن نشدُ أغنية فرحي أو نلهو ، ولم نكن نذهب إلى القرية
لنتكسب ، ولم نكن نتبادل أي كلمة بله أي ابتسامة ، ولم نكن لتخلف في
الطريق ، فكنا نحثُ خطانا ونغذُ السيرَ والزمنُ يدفنا .

واحتلت الشمسُ كبدَ السماء ، وجعلت طيور اليمام تهدلُ في الظل ،
وكانت ورقاتُ جافةٍ تتراقص وتهاوى في ريح الظهيرة ، وكان الراعي الطفل
يهوم ويحلم في فيء شجرة التين ، وقد استلقيتُ على ضفة الماء ووسدت
اطرافي المرتبكة^(١) على العشب .

وضحك مني رفاقي وأتلعوا رؤوسهم ، وقد ملأهم الاحتقار ثم مضوا دون ان
يصيبوا راحة أو يلقوا نظرهم إلى خلف ، لقد اختفوا في زرقة الفضاء الغائم البعيد .
لقد جازوا سهولاً وفرعوا ربى ، وضربوا في بقاع من الأرض غريبة نائية .
المجد لك يا كتيبة الابطال ، في الدرب التي لا تنتهي .
لقد غمر الهزء مني فنهضت على الاهانة . بيد أنني لم أجد شيئاً أردُّ
به ، واستسلمت ، وقد شملني خزيٌ هنيءٌ ، إلى ظل فرجة قاتمة .

(١) المرتبكة : المشرقة من التعب .

ان راحة الحلقة الخضراء الموشاة بأشعة الشمس تتسلل كسلى الى قلبي ، لقد نسيتُ لِمَ رحلت وتركت فكري يستسلم دون مقاومة الى شبكة الظلام والاحلام .
ولما فتحت أخيراً عيني واستيقظت من غفوتي ألفتك منتصباً أمامي ، وقد غمرت رقادي بابتسامتك .
لكم خشيتُ أن تكون الطريق طويلة شاقة . وان يكون الجهد المبذول في الوصول إليك صعباً قاسياً .

٤٩

من أعلى عرشك هبطت ، وامام باب كوشي الصغير وقفت .
وغنيت وحدي ، في زاوية ، فتأدت أغنيتي إلى أذنك ، وهبطت من عل ، ووقفت امام باب كوشي .
ان المغنين في قصر كُثُرُ ، والأغاني ترتلُ في أي ساعة ، غير أنه قد استهواك ذاك الغناء الساذج ، ينشده هذا الراهب الصغير .
وامتزج ايقاعُ شاكٍ خفيضٌ بموسيقا الكون الكبيرة ، فهبطت مع زهرة ، كجائزة سنية ، وقفت امام باب كوشي .

٥٠

لقد مضيت استجدي من باب إلى باب ، على طريق القرية ، حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد كأنها حلمٌ رائع ، وجعلت أرامق بإعجاب ، ذاك الذي كان ملك الملوك .
ورفت تملاتي فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظرُ

العطايا العفوية والخيرات المنثورة ، هنا وهناك على التراب .
وتوقفت المركبة حيث كنت انتصبُ ، وصافحتني نظرتك ، فنزلت وأنت
تبتسم ، وشعرت أن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ، ومددت فجأة ، يدك
اليمنى ، وقلت : ماذا لديك من عطاء ؟
آه ، أي عبث ملكي في بسطك راحتك الى المتسول لتستجدي منه ! ولقد
ارتبكت وحررت ، ثم تناولت ، في خفة ، حبة قمح صغيرة من جرابي واعطيتك اياها .
ولكن... كم كان عجبي كبيراً ، آخر النهار ، حين وجدت ، وأنا أفرغ
جرابي على الأرض حبة صغيرة من الذهب بين كوم من الحبات الحصىرة
وبيكيت أحز بكاء ، وتمنيت لو أنني أوتيت الجرأة لأهب لك نفسي كلها .

٥١

دجا الليل ، وانتهى عملنا اليومي ، وكنا نحسب ان آخر ضيف قد
قدم ، الليلة ، وان الأبواب كلها ، في القرية ، قد أوصدت ، بيد أن قاتلاً
قال : ان الملك ببيل القدوم .
فضحكنا وقلنا : حسنٌ غير أن هذا غير ممكن .
وكان يخيل إلينا ان الباب يقرع فكنا نقول : هي الريح ولا شيء
سواها .
وأطفأنا المصابيح ، وخلدنا إلى النوم ، بيد أن قاتلاً قال : ها هو ذا
الرسول .
فضحكنا وقلنا : بل هي الريح .
وترددت جلبةً ، في موهن من الليل ، فكنا نحسبها ونحن نائمون ،
هزيم الرعد البعيد ، وارتجت الأرض ومادت الجدران ، واضطربنا في رقادنا ،
غير أن قاتلاً قال : إن هذا هو ضجيج العجالي .

وهمسنا : لا ، بل انه وعيد الغيوم .
وكان الليل طاغياً ، حين قرع الطبل ، وتناهى إلينا صوتٌ يقول :
استيقظوا ولا تضيعوا وقتاً .
وشددنا أيدينا الى قلوبنا ، وارتجفنا هلعاً ، وقال قائل : انظروا ، ها هي
ذي راية الملك .
ونهضنا وجلين وهتفنا : ليس ثمة وقتٌ نضيّعه .
وقدم الملك ، ولكن أين الأنوار ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش الذي يتخذ
مجلسه فوقه ؟
يا للعار ! يا للعار الشديد ! أين القاعة ؟ وأين الزينة ؟ وقال قائل : ما نفع
النحيب ؟ سيّوه بأيديكم الفارغة واستقبلوه في غرفكم العارية كلها .
افتحوا الأبواب ، ولتهتف الأبواق ، لقد أتى ملك في موهن من الليل ،
من بيتنا المظلم .
الرعد يتهزّم في السماء ، والحلكة يرعشها البرق ، هاتوا البساط الممزّق
ومدوه في فناء الدار ، لقد أقبل ملكنا فجأة مع العاصفة ، وفي الليلة الرهيبة .

٥٢

كنت اود أن اطلب اليك واستهديك - بيد أنني لم اجرؤ - عقد الزهر
الذي كنت تطوق به جيدك ، وهكذا فقد انتظرت في الصباح رحيلك ، لأجد
اثارةً منه على سريرك ، وكالمتسولة جعلت أستجدي عند الغسق ، ورقة أو
ورقتين من زهرة .
مسكيناً أنا ، ماذا نقيت ؟ أي ضمان تركه لي حبك ؟ انه ليس بزهرة ،
ولا بقارورة طيب أو عطر ، انه سيفك القوي ، المتألق كاللهيب ، الثقيل
كالصاعقة . ان شعاعة الفجر الفتية ، تتسلّل من النافذة وتتطامن من فوق
سريرك ، وعصفور الصباح يلغو ويتساءل :

- أيتها المرأة ماذا لقيت ؟

لا ، انه ليس بزهرة ولا بقارورة طيب أو عطر ، رباه إنه سيفك الرهيب .
واجلس متأمة ، وأعجب ، أي عطاء منحنيته ؟ إنني لا أجد مكاناً أواريه
فيه ، واستخذي وأنا بعد طرية العود ، نحيلة ، أن أحمله معي ، وإنه
ليجرحني وأنا أضمه إلى صدري ومع هذا ، فعلي أن أحمل في قلبي هذا
الشرف الذي قلدتني في عطائك المثل بالآلم .

لن أبلو ، بعد الآن ، أي خوف في الدنيا ، وفي أي خلاف يقوم بيننا
ستكون أنت دوماً المنتصر ، لقد تركت لي الموت رفيقاً ، وسأكلل به
حياتي ، إن سيفك هو معي لأفري به قيودي . ولن أبلو ، فيما بعد ، أي خوف
في الدنيا .

منذ الآن ، سأعزف عن أي زينة باطلة يا سيد قلبي ، لن اعرف
الانتظار ، ولا البكاء بنجوة من الناس ، لن اعرف التحفظ ولا لطف التكلف ،
لقد اعطيني سيفك لازدان به ، فما لي الآن وزينة الذمى ؟

٥٣

رائع سوارك المحلى بالنجوم ، المرصع بآلاف الجواهر المختلفة الألوان ،
ولكنني أجد سيفك أروع منه بظبته المحنية الشبيهة بطائر (فيشنو) الالهي ،
وقد بسط جناحيه ، واستوى فوق أشعة الغروب المخضبة الثائرة .

انه يرتعش كأنه آخر جواب . الحياة تنتفض ، وهي في نشوة آلامها ،
انتفاضة الموت الأخيرة ، انه يتألق كأنه شعلة الوجود النقية وهي تلهب
بوميضها المتقد ، إحساسنا الأرضي .

رائع سوارك المرصع بالجواهر النجمية ، أما سيفك - اه يا سيد الرعد -
فهو مصنوع من جمال أخاذ يرهبه النظر والفكر .

لم أسألك شيئاً ولم أخدش أذنك باسمي ، وحين تركتني بقيت صامتة ،
وكنت وحيدة قرب النبع ، حيث بسطت الشجرة ظلّها المنحرف ، وقد قفلت
النساء ، عائدات إلى بيوتهن ، بعد أن ملأن جرارهن السمر الترايبية ، وكنّ
ينادينني ويهتفن :

- تعالي معنا ، فالفجر قد مضى ، وحن وقت الظهيرة ،
ولكنني كنت اتخلف في فتور ، وأنا مستغرقة في تأملاتٍ مبهمه .
ولم أسمع وقع خطاك ، حين قدمت ، وكانت عيناك حزينتين ، حين
تطامنت نظراتك نحوي وكان صوتك متعباً خفيضاً حين قلت لي :
- آه ، أنا المسافر الظامي .

وانتفضت من أحلامي وتأملاتي وسكبت من جرتي الماء في راحتيك
المضمومتين وكانت الأوراق فوقنا ترتعش وطائر (الكوكو) يغرّد في الظلمة
الخفية ، وكان شذا زهور (البلا) يوافينا من منعطف الطريق .
وظلمت صامتة خجلى ، حين استوضححتني عن اسمي ، ماذا عملت ، في
الحق ، حتى تتذكرني ؟ ولكن ، إما خطر في بالي ، انه قد تيسر لي أن اروي
ظمأك ، فإن هذه الفكرة تهصر قلبي ، وتلقه بعدوبة ناعمة .
لقد ولّى الصباح ، والطائر يردّد تغريده الرتيب ، وأوراق شجر (النيم)
ترتعش فوقي ، وأنا جالسة أتأمل وأتأمل .

لايزال السأم يستبد بقلبك ، ولايزال النعاس يجاذب عينيك .
ألم تسمع بأن الوردة تزهي رائعة كالملكة ، بين الاشواك ؟ استيقظ ، آه

استيقظ ، ولا تذر الوقت يمر عبثاً .
 في نهاية الدرب الوعاء وفي بلد الوحدة العذراء ، يجلس رفيقي ،
 وحيداً فلا تخبث انتظاره ، استيقظ ، آه استيقظ .
 اذا خفق الفضاء ، وارتعش في حر الهاجرة ، واذا مدت الرمال سربال
 الظمأ...
 أفلا تشعر بالفرح في أعماق قلبك ؟ أفلا يرددُ معزفُ الطريق على وقع
 كل خطوة من خطاك موسيقا الألم العذبة ؟

٥٦

وهكذا فان الفرحة التي تحظى بها مني هي مفعمةٌ ، وهكذا فقد هبطت
 نحوي ، آه يا رب يا مالك السماوات ، لو لم أكن موجودة فأين يتجلى
 حبك ؟
 لقد اتخذتني شريكاً لك في هذا الغنى كله ، وفي قلبي لاتني سعادتك
 تلهو ، ان ارادتك تتجسد دوماً في حياتي...
 ولهذا فقد ازيئت بالجمال - أنت يا ملك الملوك - لتأسر قلبي . ولهذا
 فإن حبك يذوب في حب حبيبك ، وانك تبدو هنا حيث يكون اتحاد الاثنين
 تاماً .

٥٧

أيها النور ، يا نوري ، أيها النور الذي يغمر الكون أيها النور ، يا قبة
 العيون ، أيها النور يا عذوبة القلب .
 آه يا حبيبي ، إن النور يرقصُ في مركز حياتي ، ان حبي ، يا حبيبي ،

يتجاوب ، مع دفقة النور . السماوات تنفسح ، والريح تهبُّ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .

يا حبيبي ، على بحر النور تبسط الفراشة جناحيها ، وعلى ذرى أمواج النور يتلألأ الزنبقُ والياسمين .

يا حبيبي ، النور يذرُّ الذهب فوق كل غيمة ، وينثر الجواهر في جودٍ وخصبٍ وانسابٍ غبطةً من ورقة إلى ورقة ، يا حبيبي ، وامتد حيورٌ متصلٌ لا حدَّ له .
ان نهر السماء قد فاض على الضفاف ، وجازت موجة الفرح كلها الحفافي .

٥٨

فلتسقى في نشيدي الأخير كلُ انعام الفرح ، الفرح الذي يهيب بالأرض
ان تمرع العشب الغزير الخصب ، الفرح الذي يجعلُ هذين التوأمين :
الموت والحياة ، يتراقصان ، في الأرض الرحيبة ، الفرح الذي يسوق
العاصفة ، وهو يهزُّ الحياة كلها بضحكة ، الفرح الذي يفيء إلى دموعه ، في
زهرة (لوتس) الألم المنورة الحمراء ، الفرح الذي ينفض كلَّ ما لديه إلى
التراب ولا يعرفُ أيَّ كلمة .

٥٩

أجل يا حبيب القلب ، إنني أعلم ذلك ، إن هو إلا حبُّك ، هذا النور
المذهب الذي يرقص فوق الأوراق ، وتلك الغيوم الكسلى التي تسعى في
السماء ، وذلك النسيم العابرُ الذي يترك رطوبته فوق جيني .
إن نور الصباح قد غسل عيني ، تلك هي رسالتك الى قلبي ، فأنحنتُ
طلعتك من عل ، وغابت عيناك في عيني ولا مس قلبي قدميك .

على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال ، السماء غير المتناهية تنفسح ، هادئة فوق رؤوسهم ، والموج الموار يصطخب . على شاطئ الدنى غير المتناهية ، يجتمع أطفال ، هاتفين راقصين .

انهم يبنون بيوتهم من الرمل ، ويلهون بالاصداق الفارغة ، انهم يصنعون من الأوراق الجافة قواربهم ، ثم يدفعونها باسمين ، إلى المدى العميق ، على شاطئ الدنى يفزع اطفال إلى اللعب .

ويشرب البحر مرتفعاً ، مطلقاً ضحكة ، ويشعشع وهو شاحب بسمة الشاطئ ، وتغني الأمواج المترعة بالصوت للأطفال أغنيات خاوية المعنى ، كأنها أم تهدد طفلها في المهد ، ويلعب البحر مع الأطفال ، ويشعشع وهو شاحب ، بسمة الشاطئ .

على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع اطفال ، وتهيم العاصفة في السماء الخالية من الدروب ، لقد غرقت سفن في الماء ، دون ان تخلف أثراً ، وترود المنية ، ويلهو أطفال .

على شاطئ الدنى غير المتناهية ، يلتئم أكبر جمع غفير من الأطفال .

- ان النعاس يرقرقر على عيني الطفل الصغير ، - من يدري من أين قد وافي ؟

- أجل ، لقد قيل إنه كان يسكن في قرية الجن بين أفياء الغابة التي تضيء فيها بنور رقيق ، دويبات القطرب ، حيث يتفتح برعمان حيان ،

نشوةً وطرباً ، من هناك ، اقبل النعاس ليثم عيني الطفل الصغير .
- ان الابتسامة تتألق على شفتي الطفل الصغير - حين يغفو - من يدري
أنتى قد ولدت ؟
- اجل ، لقد قيل ان شعاعاً فتياً شاحباً قد انسلّ من الهلال فمسّ
أطراف غمامة واهية من غمام الخريف ، هناك في حلم الفجر المخضّل
بالندى ، ولدت الابتسامة المتألقة على شفتي الطفل حين يغفو .
- ان النضرة العذبة الرياً تترقرق على أطراف الطفل الصغير - من يدري
أين كانت خبيئةً من قبل ، أمدأ طويلاً ؟
- أجل ، حين كانت الأم في ريق الصبا ، كانت ترقد ، وكانت تمتد
وتسلّل إلى قلبها ، بغموض المحبة الرقيق الصامت تلك النضرة العذبة الرياً
التي تترقرق ، الآن ، على اطراف الطفل الصغير .

٦٢

متى احمل إليك دُمىً ملونةً ، أدرك لماذا يلعب هذا المزيج من
الألوان فوق الغيوم وعلى صفحة المساء ، ولماذا وثّيت الازاهير بالألوان -
متى احمل إليك دُمىً ملونة .
متى انشدك لترقص ، أعرف حقاً ، لماذا تنسرب الموسيقى بين
الأغصان ، ولماذا تريق الأمواج أصواتها المؤتلفة في قلب الأرض الصاغية -
متى انشدك لترقص .
متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين ، أدرك لماذا يكمن
الشهد في أكمام الزهر ، ولماذا تمتلئ الثمار خفيةً بهذا الرحيق السانع ، -
متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين .
متى الشم محياك لأجملك تبتسم ، يا طفلي الحبيب ، أفهم أي فرحة

تتسلل من السماء إلى رآد الضحى ، وأي لذة يزجيهها نسيم الصيف إلى
جسدي - متى أَلَمَّ محياك لأحملك على الابتسام .

٦٣

لقد عرفتني باصدقاء اجهلهم ، وادخلتني في منازل لا عهد لي بها من
قبل ، وقد استقدمت البعيدَ فأدنيته وأخيتَ الغريب .
ان قلبي لَيَجِبُ ، حين أَلَمَّ أنَ عليّ أن أغادر مسكني فأنسى ،
حينذاك ، أن القديم يمكثُ في الجديد ، وانك أنت أيضاً تمكثُ هناك .
عبر الولادة أو الموت ، في هذا العالم او في عوالمٍ أخرى ، وحيث
تقودني أنت فإنك أنت الرفيقُ الوحيدُ لحياتي اللامتناهية الذي يربط قلبي ،
دوماً ، بأواصر الفرح إلى الأشياء الخارقة .
إن من يعرفُك ليس بغريبٍ أو عدوٍ ، فليس ثمة بابٌ مفلقٌ ، آه استجب
هذا الدعاء : لا تحرمني ذلك الحظَّ بأن أَلَمَّ واحداً بين أولئك اللاهين
الكثيرين .

٦٤

على عدوة النهر الموحش ، وبين الأعشاب الطويلة سألتها :
- أيتها الفتاة ، إلى أين تذهبين ، واقيةً ، بمعطفك شعلة مصباحك ؟ ان
بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .
ورامتني بعينها الكئيبتين ، وحدقتُ إليّ عند الغروب وقالت :
- لقد أقبلتُ نحو النهر لاستودع التيارَ مصباحي . حين ينطفئ ، أختر
شعاعٍ من أشعة الشمس في المغرب .

ولبثت وحيداً بين الأعشاب الطويلة ، أتأمل في تلك الشعلة الوانية التي
لا تنني تحبو على الموج وفي صمت الحلقة الداجية ، سألتها :
- ان الأنوار كلها قد شَعَتْ ، إلى أين تذهبين بمصباحك ؟ ان بيتي
لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .
ورامتني بعينيهما الكنيتين ولبثت مترددة ، لحظة ، ثم قالت :
- لقد جئت لأهدي مصباحي إلى السماء .
وبقيت ، ثمة ، أتأمل في تلك الشعلة وهي تذوي شيئاً فشيئاً في
الفراغ .

وفي ظلمة منتصف ليل غاب قمره سألتها :
- أيتها الفتاة عمّ تبحثين هكذا وأنت تحملين مصباحك قريباً من قلبك ؟
إن بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ألا أعيريني نورك .
وتوقفت لحظة ثم فكرت وحدجنتني في الظلام وقالت :
- لقد حملت نوري هذا لأشترك في عيد المصباح .
ولبثت ، ثمة ، أتأمل في مصباحها الصغير يغيب شيئاً فشيئاً بين الأنوار .

٦٥

يا رب ، أيّ شراب الهي ترجوه من تلك الكأس الطافحة ، كأس حياتي .
يا شاعري ، أهني متعتك في أن ترى إبداعك بعيني وان تصغي صامتاً إلى
الحانك المنسجمة الأبدية على كفاف أذني^(١) ؟
إن عالمك يسلسل الكلمات إلى فكري فيجتنحها فرحك بالنغم ، وإنك
تستسلم إليّ حباً ووجداً ، وتجد في ذاتي عذوبتك الكاملة .

(١) كفاف الاذن : طرفها .

ان التي تسكن ، دوماً ، أغوار حياتي ، في ملس الظلام^(١) وشحوب
النور ، ان التي لم تسفر قناعها في نور الصباح ، ستغدو ، هديتي الأخيرة
إليك ، يارب ، وهي مَشْحَة بنشيدي الأخير .
ان الكلمات قد توددت إليها ، بيد أنها لم تستأثر بها ، ومدّ إليها
الإقناع يديه المتأججتين عبثاً .
وكنّت أنتقل من بلد إلى بلد ، وأنا أحملها في شغاف قلبي ، وقد مار
حولها مدّ حياتي وجزره .
إنها تهيمن ملكة على أفكاري وأعمالي ورقادي وأحلامي بيد أنها تنتبذ
مكانها منزلة وحيدة .
كثيرون هم الذين طرّقوا بابي ، وسألوا عنها ، ثم عادوا يائسين .
لم يرَ احد وجهها ، وانها لتنتظر ، في وحدتها ، مقدمك لتتعرف
عليها .

أنت السماء وأنت العش أيضاً .
آه ، أنت البديع ، هنا في العش يحبس حبك الروح مع الألوان والأنغام
والطيوب .
ها قد وافى الصباح وفي يمينه سلّة ذهبية مثقلة باكليل الجمال لتزين به
الأرض في صمت .

(١) ملس الظلام : بين المغرب والعمّة .

ها قد اقبل المساء ، من دروب عذراء ، إلى المروج المنعزلة المقفرة
من القطعان ، حاملاً في جرتة الذهبية شراباً رطباً من السلام ، شراباً اغترفه
من ضفة بحر الراحة الغربي .

ولكن ، هناك ، حيث تنفسح السماء دون حدود ، لتستطيع الروح ان
تنبسط محلقة ، هناك تزهى الروعة ناصعةً بيضاء . ليس ثمة نهار ولا ليل ،
لا شكل ولا لون ليس ثمة كلام أبداً ، أبداً .

٦٨

على هذه الأرض التي أقيم فيها ينحدر شعاعك ، منبسط الذراعين ، ثم
يقف أمام بابي ، مدى نهار حياتي ليقطف شيات الغيوم ويزججها إلى
قدميك . تلك الغيوم المغزولة من عبراتي وزفراتي وأغنياتني .

إنك تسدل ، بلذة ناعمة ، وشاح الغيوم الندى على صدرك المطرز
بالنجوم ثم تلمه وتطويه في شتيت الأشكال ، وتسبغ عليه ألواناً قلقةً
متغيرة .

إنه لخفيف ، لين ، مليس ، ندى بالدموع ، قاتم ، ولهذا فقد شغفت به
حباً ، أنت النقي الصافي ، ولهذا فانك تخفي بظله الحنون ، نورك الأبيض
السامي .

٦٩

إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ، ليلاً ونهاراً ، هو الذي
ينساب في الكون ويرقص على ايقاع موزون .

انها تلك الحياة نفسها التي نبتت فرحتها فوق أديم الأرض أعشاباً لا

عدادٌ لها وتتدفقُ أمواجاً هادرة من الأوراق والزهور .
انها تلك الحياة نفسها التي يهددها المد والجزرُ في مهد بحر الولادة .
والموت .

أشعر بأن اعراضي قد تمجدتْ بلمسةٍ من عالم تلك الحياة ، وانني
لفخورٌ بخفقةِ حياة الأجيال وهي تتراقصُ ، الآن ، في دمي .

٧٠

هل يُتاحُ لك أن تبتهِجَ بتذوق طلاوة ذلك اللحن ، وأن ترتمي وتغيب
وتتكسر في عاصفة تلك الفرحة الهائلة .
كل شيءٍ يغدُ السير ، دون توقفٍ أو تطلُّعٍ إلى خلفٍ ، دون أن يتسنى
لأي قدرةٍ أن تعيِّفه . كل شيءٍ يغدُ السير .
واقبلتِ المواسمُ هازجةً عابرةً ، وخطاها تتابعُ إيقاع تلك الموسيقى
المسرعة المتعبة ، وتسلسلت ألوانٌ وأنغامٌ وعطورٌ وشلالاتٌ لا نهائيةً ،
منهمرةً في تلك الفرحة الثرة التي تتفرق وتستسلم ثم تموت في كل لحظة .

٧١

لئن وجب علي أن انثر الفيض والسخاء كثيراً ، واهفو ، في كل اتجاهٍ ،
ما ذلك سوى (مايك) .
إنك تضع حاجزاً على كيائك نفسه ، ثم تنادي نفسك المنفصلة في آلاف
النعيمات ، ان انقسامك هذا قد تجسد في كياني .
ان غناءك ينثال عبر السماوات ، في دموعٍ ملونةٍ وابتسامات ، في
مخاوف وتعلاتٍ . وارتفعت الأمواج ثم تطامنت ، وانتسخت أحلامٌ ثم

التأمتُ ، ان في نفسي يتسقى اندحار كيائك .
يلون تعاقب الليل والنهار حجابك الذي اقمته باصباغ شتية ، وخلف
ذلك ، يبدو مجلسك وقد حيك من منحنياتٍ عجيبة خفية . عازفاً عن جميع
الخطوط القاسية المستقيمة .
من مهرجاننا الكبير تنفسح السماء ، ومن نعمتي ونعمتك يهتز الفضاء
كله ، وتترادف الأعمار كلها ونحن نلهو في لعبة الاستخفاء ، نظهر ونختبئ .

٧٢

انه نفسه ذلك الودود القريب ، الذي يوقظ كياني بلمسته العميقة
المبهمة .
وهو نفسه الذي يهرق جذلة في عيني ويدق وهو مبتهجٌ ، على أوتار
قلبي أوزاناً مختلفة من الطرب والألم .
وهو نفسه الذي ينسج تلك (المايا) في أصباغ زانلق ، ذهبية ، فضية ،
زرقاء ، خضراء ، ويتيح من طيات النسيج ، رؤية قدمه ، فأنسى نفسي ، في
لمسةٍ منها . وتمضي الأيام وتمرُّ الأعمار ، وانه ليظل نفسه ذلك الذي
يرعش قلبي باسم من الأسماء ، بأسلوبٍ من الأساليب ، بنقلةٍ من نقلات
الفرح والحزن .

٧٣

ليس الخلاص ، في رأيي ، بالزهد ، إنني أشعر بضمة الحرية في ألف
رباطٍ من اللذائذ .
إنك لتريق من أجلي سلسال خمرك المنعشة المشعشة ، بمختلف

الألوان والعطور حتى ليطفح منها كوبي الخزفي .
سينير كوني بشعلتك مائة من شتيت المصابيح ثم يضغها في مذبح
معبدك .
لا ، لن أغلق أبداً أبواب حواسي ، ان لذائذ البصر والسمع واللمس
سوف تنتظم لذتك .
أجل . إن أوهامي كلها سوف تحترق في ألفة الفرح وإن رغباتي كلها
سوف تؤتي أكلها ثماراً من الحب .

٧٤

لقد مضى النهار ، وزحف الظل فوق الأرض ، وحان وقت ورودي النهر
لأملأ جرّتي .
ان نغم السماء نافد الصبر من موسيقا الماء الكنيية ، آه انه يناديني في
الظلام ، ليس ثمة أحد في الدرب ، الريح تهب ، وفوق صقال النهر تحبو
رعشات .
لا أدري ان كنت سأعود إلى البيت ، ولا أعلم أي لقاء عابر يتاح لي ، هناك ،
قرب معبر النهر ، وفي الزورق الصغير ، يعزف الرجل المجهول على العود .

٧٥

إن عطايك لنا ، نحن الزائلين الفانين ، تقي بحاجاتنا كلها ومع هذا
فإنها تسارع في العودة إليك ، تامة غير منقوصة .
إن النهر يؤدي عمله اليومي ، وإنه ليمضي مسرعاً نحو الحقول
والقرى ، ولكن جدوله لا يني يلتوي ليغسل قدميك .

إن الزهرة تفعمُ الجوَّ بأريجها الشذيّ ، بيد أن قصارى جهدها هو أن
تمنحك نفسها .

إن عبادتك لا تفقر الكون .

إن كلمات الشاعر تزجي إلى الناس المعاني التي تروق لهم ، ولكن
معناها الأخير يتجلى في الإشارة إليك .

٧٦

يا سيد حياتي ، هل أقفُ يوماً فيوماً أمامك وجهاً لوجه ؟
يا سيد الأكوان ، هل أقفُ أمامك . ويداي مضمومتان ووجهي قبالة وجهك ؟
تحت سمانك الرحيبة ، وفي صمتٍ وانفراد ، هل أقفُ بين الجموع
الدائبة الساعية أمامك وجهاً لوجه حاملاً قلبي المتواضع ؟
في هذا العالم المضني الذي يعمج بالجهد والكفاح هل أقفُ أمامك وجهاً
لوجه ؟
وحين انتهى من عملي في هذه الدنيا ، يا ملك الملوك هل أقفُ وحيداً
صامتاً أمامك وجهاً لوجه ؟

٧٧

أجل ، إنني أعرفك كربّ لي ، فأنتبذ مكاناً منعزلاً .
- ولكنني لا أعرفك ملكاً لذاتي فاقترّب منك ، انني أعرفك كأبٍ فاجثو
عند قدميك - ولا أشدُّ على راحتك كما أشدُّ على راحة صديق .
حيث تطأ الأرض وحيث تهب لي نفسك ، كما لو كانت لي فأنني لا
أقف ، هناك أضمك إلى قلبي وأتخذك رفيقاً لي .

أنت الأخ بين اخوتي ، ولكنني لا أكثرث لهم ، ولا أقاسمهم ارباحي ،
وبذا فانني اقسامك ذاتي كلها .
انني أعزف ، في اللذة والألم ، عن الناس ، وبذلك أظل الى جانبك .
انني اتردد في التخلي عن حياتي ، وهكذا فانني اغوص في مياه الحياة
الزاهرة .

٧٨

حين كان خلق الكون جديداً ، وكانت النجوم تتوافض في روائها
البكر . عقد الآلهة اجتماعهم في السماء وأنشدوا : آه ، يا لمنظر الكمال! يا
للفرحة النقية!
ولكن أحد الآلهة هتف بغتة : يخيل إلي ان ثمة ثلمة في هذه السلسلة
من النور وان نجماً من هذه النجوم قد ضاع ، وانبت وترٌ ذهبي من معزف
الآلهة ، فقر غناؤهم وشرعوا ييكون وجلين :
- أجل لقد كان ذلك النجم أروع النجوم وكان مجد السماوات كلها .
ومنذ ذلك اليوم ، والبحث لا يني يدور عليه ، ولا تأتلي الحسرة تنتقل
من واحد الى آخر ، فقد خسر العالم به هناء الوحيد .
ومع هذا فان النجوم تبتسم ، في صمت الليل العميق ، وتهامس :
- ان البحث عنه غير مجدر ، ان الكمال الدائم المتصل هو في كل مكان .

٧٩

ان لم يكن من نصيبي أن ألتقي بك في هذه الحياة ، فذرني أشعر اذن
بانتي أفتقد مراك دوماً ، شعوراً لا انساه لحظة واحدة وأتركني احمل عذاب

ذلك الحزن ، في أحلامي وفي ساعات يقظتي .
حين تمر أيامي ، بين الساعين وراء أرزاقهم . وتمتلي يداي بأرباحي
اليومية فذرني أشعر بأنني لم أربح شيئاً . شعوراً لا أنساه لحظة واحدة .
ودعني أحملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .
حين أقف ، على حيد الطريق ، متعباً لاهثاً ، وحين أسوي مضجعي من
التراب ، فذرني اشعر دوماً بأن المرحلة الكبرى مازال أمامي ، شعوراً لا
أنساه لحظة واحدة . ودعني أحملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات
يقظتي .
وحين تزددان غرفي ، وتعالى أغاني الناي ، وترددُ هناك الضحكة ،
فذرني اشعر دوماً بأنني لم أدعك إلى منزلي . شعوراً لا أنساه لحظة واحدة .
ودعني أحملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

٨٠

إنني كقزعة^(١) من غيم ، تهيم عبثاً في سماء الخريف .
- إيه يا شمسي ، يا ذات المجد الدائم ، إن لمستك لما تبدد ضبابي ،
ولهذا فأنني اتحد مع نورك ، ولهذا فأنني أحصي الشهور والسنين التي
تفصلني عنك .
إذا كانت تلك بغيتك ، وكانت تلك لعبتك ، فاقبض اذن على ذلك الفراغ
الشارد من كياني ولونه بالتهاويل ، واطله بالذهب ، ودعه يرفرف مع الريح
الهيمي ثم يتفطر في معجزات شتى .
وأما طاب لك من جديد انتهاء هذه اللعبة في الليل . فأنني أذوب وأمحي

(١) القزعة : القطعة من الغيم .

في الظلام ، وقد أغيب في ابتسامة الفجر الأبيض . في طراوة ذلك النقاء الصافي .

٨١

كم بكيت في أيام الكسل على الزمن الضائع ، بيد انه غير مضيع أبداً يا رب ، فقد قبضت يدك على كل لحظة من لحظات حياتي .
إنك تغذي - وأنت متوارٍ في قلب الأشياء - البذرة حتى تنبت ، والبرعم حتى ينور والزهرة الناضجة حتى تؤتي أكلها .
والم يبي التعب ، فأغفيت على سرير الكسل ، وأنا أتصور أن العمل كله قد انتهى ، وحين أسفر الصباح استيقظت فالفيت حديقتي مملأى بالمفاتيح والزهور .

٨٢

ان الزمن غير متناه في يديك ، يا رب ، وليس ثمة أحدٌ يحصي دقائقك .
ان الأيام والليالي تتعاقب ، والأعمار كالزهور تتفتح وتذوي ، لقد عرفت كيف تنتظر .
ان القرون تترادف ليتيسر لها ان تهب أسباب الكمال لزهرة نحيلة وحشية .
ليس لدينا وقت نضيجه ، ولأنه ليس لدينا وقت ، فعلينا أن نسمى لنهتبل فرص حظوظنا ، واننا لأفقر من ان يتاح لنا ان نتخلف .
وهكذا فإن الزمن يمضي ، فيما أتركه أنا لكل شاكٍ يدعيه ، ورغم ذلك فإن مذهبك يظل عارياً خالياً من القرابين .

وفي المساء أحثُّ الحُطَا لنلا أجدر رتاج بابك موصداً ، ومع هذا فإنني
أجد أن الوقت لم يفت بعد .

٨٣

أما ، سأضع من أجلك عقد لآلئ يلتئم من دموع حزني .
ان النجوم جعلت تفري هالاتها المنيرة وتريقها فوق قدميك ، ولكن
عطائي يود أن يطوق عنقك .
ان الغنى والشهرة ينبثقان منك ، وانه لموكل إليك منحهما أو ردهما ،
غير أن حزني يخصني أنا وحدي ، وحين أقدمه إليك قرباناً ، تكافئني أنت
بعذوبتك .

٨٤

هو ألم الفراق الذي ينتشر في الكون كله ، ويبعث اشكالا لا عداد لها
في السماء اللانهائية .
هو حزن الفراق الذي يرنو صامتاً ، في هدأة الليل . من نجم إلى
نجم ، والذي يوقظ القيثارة بين الأوراق المتهامسة ، في ظلمة تموز
الممطرة .
هو ذلك الألم الجارف الذي يمتلئ ، محبة ورغبة ، ترحاً وفرحاً . في
بيوت البشر ، إنه هو نفسه الذي يذوب ، دوماً ، في قلبي أنا الشاعر . ثم
يتسلسل أغاريد وأناشيد .

حين غادر المحاربون قصر مولاهم ، أين أخفوا سلطانهم وأين كانت دروعهم واسلحتهم ؟

انهم يبدون مساكين لاغبين ، تتساقط فوقهم السهام غَدَقَةً^(١) متدركة ، حين غادروا قصر الرب .

وحين عاد المحاربون الى قصر الرب ، أين أخفوا سلطانهم ؟
لقد القوا السيوف ، ورموا بالقوس والسهم ، كان السلام يظللُ جباههم ،
مخلفين وراءهم ثمار حياتهم ، يوم عادوا إلى قصر مولاهم .

أيها الموتُ ، ان خادمك مائلٌ أمام بابي ، لقد جاز البحر المجهول ،
حاملًا نداءك إلى بيتي .

الليلُ مظلمٌ ، وقلبي واجفٌ ، ومع ذلك فإنني سوف أمسك بالمصباح ،
وأفتحُ الباب ثم أرحبُ به ، إنه رسولك ذلك الواقف أمام بابي .
سأعظمه بدموعي ويدي المنبسطتين ، سأعظمه ، غامراً قدميه بكنز
قلبي .

وسيؤوب برسالته التانهة ، سافحاً ظلاً قاتماً على فجري ، وفي بيتي
المنعزل لن يبقى سوى نفسي اليانسة أقدمها ، كأسمى هبةً إليك .

(١) غدقة : غزيرة .

في ترقب يانس ، سأذهب للبحث عنها في كل زوايا غرفتي ، غير أنني
لن أعثر عليها .

إن بيتي لصغير ، وما يخرج منه مرة لن يتيسر أرجاعه .
ولكن قصرک يا رب ، فسيحُ الجنبات ، وبينما كنت ابحتُ عنها ،
ألفيتني انتهيت الى بابک .
إنني أقفُ تحت القبة الذهبية من سمائك المسائية لأراق وجهک بعيني
المليئين بالرغبة .

لقد وصلت إلى شاطئ الأبدية ، حيث لا يمحي شيء ، لا أمل ، لا
هناءة ، ولا ذكرى وجه يترقرق عبر الدموع .
آه ، ألا أغمسُ حياتي الفارغة في هذا البحر وغص بها في امتداد
اعماقه ، دعني اشعرُ مرةً أن تلك العذوبة المفقودة هي شائعة في الكون
كله .

يا آلهة المعبد المهذوم ، أن أوتار المعزف (فينا) المقطوعة لن تهزج
بعد الآن بحمدك وأن الأجراس ، في المساء ، لن تغري أحداً بعبادتک .
الفضاء حولک مستغرق في صمت .

في بيتک الحزين تنسمُ ريحُ الربيع الهيمي ، أنها تنقلُ اخبار الزهور -
الزهور التي لن تُزجى أبداً إلى عبادتک .

إن عابذك القديم يهيم دوماً خلف نعمة ماتزال محرمةً عليه ، وفي
المساء حين تذوب الأنوار والظلال في ملس الغروب ، فإنه يعود حزيناً إلى
معبدک المهذوم ، وفي قلبه سغب .

ان بعض أيام الأعياد تقدم إليك في صمت يا الهة المعبد المهدوم ، ان
بعض ليالي العبادة تمضي دون ان يضاء المصباح .
ان كثيراً من الصور الجديدة قد سواها فنانون مهرة ، بيد ان نهر
النسيان سيجرفها حين يأزف وقتها .
ولكنك ، تبقي أنت ، يا آلهة المعبد المهدوم ، المهجور إلى الأبد .

٨٩

غير متاح لي الكلام المجلجل ولا الألفاظ الصاخبة ، كذلك يريد ربي ،
سأفزع اذن إلى الهمس ويتسلسل ، منذ الآن ، حديث قلبي في وشوشات
أغنية .
يتدافع الناس إلى سوق الملك ، البانعون والشارون كلهم هناك ، أما أنا
فقد صُرفتُ في منتصف النهار وفي زحمة العمل .
فلتنور الزهور اذن في حديقتي ، ولو لم يحن أوانها ، ولتملاً نحلات
الظهيرة الفضاء بطينيتها الكسول .
لقد سلخت ساعات عديدة في نضال مع الخير والشر وانه ليلذ الآن ،
لرفيق أيامي الخاوية ان ينوط قلبي به ، ولا أعلم ماذا تعني تلك الدعوة
المفاجئة لتناقض عقيم .

٩٠

أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يقدم ليقرع بابك ؟
آه ، سأضع امام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .
كل قطوف كرومي العذبة من أيام خريفي وليالي صيفي ، كل حصاد

حياتي الدؤوب وجناها سوف أضعه أمامه ، حين ينتهي أجل أيامي ، يوم
يقدم الموت ليقرع بابي .

٩١

آه أنت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، أيها الموت ، يا موتي ، تعال
وأهمس في أذني .
يوماً بعد يوم ، سهرت في انتظارك ، من أجلك ، تذوقت هناء الحياة
وعانيت عذابها .
انني كلي ، كل ما أملك ، كل ما اتعلّل به ، كل حبي ، كل ذلك قد مرّ
مبهماً نحوك ، حسبي النظرة الأخيرة من عينيك حتى تصبح حياتي في
حوزتك دوماً .
لقد ضفروا الزهور ، وأعدّوا الاكليل للزوج العروس ، وبعد الزفاف
تغادر العروس منزلها ساعيةً إلى مولها ، وحيدةً في عزلة الليل .

٩٢

أنا أعلم بأنه سيوافي يوم ، أضيق فيه هذه الأرض عن ناظري ، وان
الحياة ستغادرني ، في صمتٍ ، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير .
ومع هذا فإن النجوم ستلامح ساهرةً في الليل ، وسيسفر الفجر كما
أسفر أمس ، وستمتلئ الساعات ، كأمواج البحر ، تحمل اللذات والآلام .
وحين أفكر في انقضاء لحظات عمري ، تتلاشى حواجز هذه اللحظات ،
ويترأى لي فينور الموت عالمك بكنوزه اللطيفة ، أحقر منزلٍ فيه عزيزٌ
وأخفّ عيشٍ فيه كريم .

أما الخيرات التي تقمت إلى احتيازها عبثاً ، والثروات التي احتجنتها
فدعها تذهب مني .
دعني اتعلق بالخيرات الحقّة فحسب ، الخيرات التي تجانفت عنها
واحقرتها دوماً .

٩٣

لقد أذن لي بالرحيل ، فتمنوا لي يا اخوتي سفرأ سعيداً ، سادع كل
شيء ثم أخذ أدراجي وتهيأ للرحيل .
ها هي ذي مفاتيح بابي ، أعيدها إليكم ، متخلياً عن جميع حقوقي في
بيتي ، ولكن زودوني ، عند الرحيل بكلماتٍ حلوة .
لقد كنا متجاورين أمدأ طويلاً ، ولقد تلقيت منكم أكثر مما كان في
استطاعتي ان أعطيكم ، ولأن ، فإن النهار قد طلع ، والمصباح الذي اضاء
زواييتي المظلمة ، قد نفذ نوره . وتناهى إليّ نداء وأنا اتهيأ للظعن
ورحيل .

٩٤

ازف الترحل ، فتمنوا لي ، الآن . يا رفاقي حظاً طيباً ، ان السماء
خضيبه بحمرة الفجر ، ودربي تنفسح رائعة .
لا تسألوني ، ماذا احمل معي . سأبدأ رحلتي . ويدي فارغتان ، وقلبي
منعم بالانتظار .
سأترين باكليل عرسي فقد نضوت ثوب السائح الأحمر الأغبر ، أما
فكري فلا يستشعر الخوف وإن تكن الطريق مخوفة بالأخطار .

في نهاية رحلتي ، سيظل نجم السماء وستعلو نفحات أغاريد الغروب
الشاكية من القباب الملكية .

٩٥

لم أع اللحظة التي جاوزت فيها وصيد الحياة .
أي قدرة جعلتني افتتح على ذلك السر الوسيط مثل برعم الغاب الذي
يتفتح عند منتصف الليل .
وحين صافح النور عيني ، في الصباح ، شعرت بأنني لست غريباً عن
هذه الأرض ، وان ذلك المغلق المجهول الذي لا شكل له ولا اسم ، كان
يضمني بين ذراعيه ، بادياً في اهاب أُمي .
وكذلك ، عندما يحين الموت ، فإن المجهول ينحسر أمامي كأنني
أعرفه منذ الأزل ، ولأنني أكلف بالحياة ، فسأكلف بالموت أيضاً .
ان الطفل يبكي ، حين تنحيه أمه عن ثديها الأيمن ، ولكنه يجد في
اللحظة التالية سلواه في ثديها الأيسر .

٩٦

حين أرحل من هنا ، فلتكن كلمتي عند الوداع : ان ما رأيته لا يمكن
ادراكه والوصول إليه .
لقد تذوقتُ الشهدَ الخفي من زهرة (اللوتس) التي تبسط أوراقها على
خضَمَ النور ، فكان ذلك يمناً وبركةً علي ، لتكن تلك كلمتي عند الوداع .
لقد لهُوتُ في قصرٍ شتيت الأشكال ، وثمة بصُرتُ بذلك الذي لا ينتظمه
شكل .

ان اعضاء جسمي كله قد جاذبتها رعدةً بلمسة ذاك الذي لا يمكن لمسهُ ، واذا كان على الأجل ان يوافي ، فليوافِ ، تلك هي كلمتي عند الوداع .

٩٧

حين كنت ألهو معك ، لم أسألك قط من أنت ، ولم أكن أعرفُ الخجلَ ولا الخوفَ . كانت حياتي تهدر هوجاء .
عند منبج الفجر ، كنتُ توقظني من غفوتي ، كأثر رفيقٍ لدي ، وكنت تقودني ، ونحن نعدو من غابٍ إلى غاب .
في تلك الأيام لم يكن يكرئني معرفةً معاني الأغاريد التي كنت تنشدها لي ، وكان صوتي يلهج بالأنغام وقلبي يرقص طرباً على ايقاعها .
والآن ، وقد مرت ساعة اللهو ، فما هي تلك الرؤيا المفاجئة التي تعرض لي ؟ ان الكونَ بطرفه المتطامن إلى قدميك ، يقف اجلالاً لك مع كل نجومه الصامته .

٩٨

سأزينك بالأسلاب ، باكاليل هزيمتي . ليس في استطاعتي ، أن انجو وأنا غير مغلوب .
وفي الحق ، انني أتوقع ، في يقين ، هزيمةً كبريائي ، وأعرفُ أن حياتي في ذروة ألمها ستحطم حدودها ، وان قلبي الخاوي سيجهش في موسيقاه كقصبة جوفاء ، وان الحجر سيحور الى دموع .
أعرف ، في يقين ، ان مائة افواف التويج من زهرة اللوتس لن تظلل

دوماً مغلقة ، ولكنها ستفتح عن شهدها الخفي .
في السماء الزرقاء عينٌ ترامقني ، وتدعوني في صمت ، لن يتبقى لي
شيء ، أي شيء ، وعند قدميك سأحظى بالموت الكامل .

٩٩

حين اترك دفءَ سفيتي ، أدرك أن الوقت قد أزف لتمسك بها أنت ،
وأن ما يجب عمله سيتم وشيكاً ، فلا جدوى من الألم .
فأضممُ يديك خاضعاً يا قلبي ، واقبل بهزيمتك راضياً صامتاً ، واعتبر
انه من حسن حظك ان تجلسَ هادئاً حيث وضعت .
ان المصابيح لا تألو تنطفئ على أي هينةٍ من هينمات الريح ، وحين
اجهدُ في اشعالها فأنني لا افتأ أنسى سواها .
بيد أنتي سأكون في هذه المرة حكيماً ، وسأنتظر في الظلمة ، ماداً
بساطي على الأرض ، وحين يروق لك يا مولاي ، فتعال في صمتٍ واتخذ
مجلسك هنا .

١٠٠

انني اغوصُ في أغوارِ خضمِ الأشكال ، آملاً ان أظفرَ باللؤلؤةِ الكاملةِ
التي لا شكل لها .
لن ابحر بعد الآن من مرفأٍ إلى مرفأٍ ، على ذلك الزورق الذي
حطمته العاصفةُ ، لقد مضت الأيام البعيدة التي كان دأبي فيها مغالبةَ
الأمواج .
أما الآن فأنني اتشوف إلى أن أموت لدى من لا يموت .

وفي ردهة المقابلة ، قرب الهاوية التي لا قرار لها ، حيث تتناهى
موسيقا لا نغم لها فائني سأمسك بمعزف حياتي .
سأضرب عليه لحن الخلود ، وحين تعلق شهقته الأخيرة ، دعني أضغ
معزفي الساكت على قدم الصمت .

١٠١

لقد بحثت عنك ، عمري كله ، بأغنياتي ، فهي التي قادتني من باب إلى
باب ، وبها شعرت بما حولي ، وأنا اتقرب دنياي وأبحث عنها .
أن أغنياتي هي التي علمتني ما تلقنت من دروس ، هي التي دلتني على
الدروب الخبيثة وازجت إلى ناظري بعض النجوم المناسبة على أفق قلبي .
لقد قادتني طوال النهار ، إلي البقعة المبهمة من اللذة والألم ، والآن ،
وقد حلّ المساء ، واستوفت رحلتي نهايتها ، ترى إلى باب أي قصر
تقودني ؟

١٠٢

أجل ، لقد زهوت أمام الناس ، بأنني حظيت بمعرفتكم ، انهم ليستينون
صورتكم في آثاري كلها ، انهم يقبلون ويسألونني : من هذا ؟ ولا أدري سوى
أن أجيب :
- حقاً لا أستطيع أن أقول .
انهم يتناولونني باللوم ، ثم ينكفئون في احتقار ، أما أنت فتظل ، ثمة ،
والابتسام يرف على شفئك .
لقد تحدثت عنك في أغاني لا تبلى جديتها فانزاح السر عن قلبي
وتجلى ، انهم يقبلون ويسألونني :

- قل لنا كل ما تضمنت من معان .
 ولا أدري سوى أن أجيب :
 - ترى من يدري ماذا تعني ؟
 انهم يتسمون ثم ينكفنون ، في احتقار كبير ، وتظل أنت ، ثمة ،
 والابتسام يرف على شفئك .

١٠٣

يا رب ، لتجبه حواسي كلها ، لتلامس هذا الكون عند قدميك ، تحية
 أخيرة لك .
 وكفمامة تموز التي تتطامن ، وهي تنوء بصوبها الدقيق^(١) ، لينحن
 فكري أمام بابك ، تحية أخيرة لك .
 لتلتئم أنغام أغنياتي في وزن مشق واحد ، لتنصب في خضم الصمت ،
 تحية أخيرة لك .
 وكسرب مهاجر من الطيور ، التي تحن وتهفو ، في صبر نافذ . ليلاً
 ونهاراً ، إلى أعشاشها التي تركتها في الجبل ، دع حياتي ، يا رب تتخذ
 سمتها نحو مقرها الأخير ، تحية أخيرة لك .

(١) صوب النمام : المطر .

جَنِّي التِّمَارِ

١

مُرَني ، ابادر بقطف ثماري كلها ، لأجلبها إلى حديقتك ، في سلال
 ملاءى ، ولو كان بعضها قد فسد وبعضها ما يزال فجاً .
 فالموسم مثقلٌ بروعته ، ونائي الراعي يستمرى النجوى في الظل .
 مُرَني أنصب الشراغ في النهر .
 فنسيمُ أذار يجاذبُ همساتٍ من الأمواج الوانية .
 لقد نفضت الحديقة جماع روحها ، وأقبل في ساعة المساء الحزينة ،
 نداءً من بيتك إلى الشاطئ المذهب بأشعة الشمس الغاربة .

٢

كانت ، حياتي ، في عُفرة صباها ، شبيهة بالزهرة التي يتهاوى من
 تويجها ورقةٌ أو ورقتان ، ولا تشعر بخسارها البتة ، إنما جاء نسيم الربيع
 يستجدي على بابها .
 والآن ، وقد استشرف الشباب نهايته ، فقد أضحت حياتي شبيهةً

بالثمرة التي لا تضنّ بشيء : انها تنتظر لتسلم نفسها جميعاً مع كل ما تنوء به من حلاوة .

٣

تري أوجد عيد الصيف ، من أجل الازاهير المنورة ؟ ام الزوراق الميتة ، أم الازاهير الذابلة ؟

تري أيتلاءم غناء البحر مع تلاطم أواذيه المزيدة فحسب ؟
أفلا يغني أيضاً مع الأمواج الهادئة ؟
ان البساط الذي يقف فوقه ملكي قد رُصّع بالجواهر ، بيد أن الأرض المتواضعة تنتظر صابرة ، قدميه تمسانها .
قلانل أولئك العقلاء العظماء الذين يجلسون حول مولاي ، بيد أن مولاي مدّ ذراعيه على البسطاء واتخذني خادماً له دوماً .

٤

لقد استيقظت ، فألفيت رسالته قادمة مع الصباح .
لا اعلم ماذا كانت تقول ، فلم يؤت لي أن أتعلّم القراءة .
ساعد الرجل العالم عاكفاً على كتبه ، ولن اضايقه أبداً ، ثراه يستطيع أن يفهم ما تعني الرسالة ؟
دعني ألمسها بجيبي وأشدّها الى قلبي .
حين يمتدّ الليل ، ساكناً ، وتسري النجوم ، نجماً في اثر نجم ، سأفتح الرسالة على ركبتني وألوذ بالصمت .
ستلوها عليّ الأوراق المتهامسة ، عالياً ، وسينغمها لي الجدول الهادر

وستغنيها لي النجوم العاقلة السبعة من السماء .
لم يتأت لي أن أحظى بما أبحث عنه ، لم أستطع أن أفهم ماأتشوف الى
معرفته ، ولكن هذه الرسالة التي لم تتم لي قراءتها ، قد خففت من أعبائي ،
وأحالت أفكارى الى أغنيات .

٥

كان في استطاعة حفنة رمال أن تخفي عني علامتك ، حين كنت لأفقه
معناها .
أما الآن ، بعد أن اضحيت أوسع معرفة فإنني استجليها في كل شيء . كان
يواريها عني من قبل .
فهي التي تتلون فوق أفواف الزهر ، وتتألق على زبد الأمواج ، وتزهى
في قنن الجبال .
لقد نحييت وجهي عنك ، ولذا فقد جعلت أقرأ رسائلك ، غرضاً ، دون
أن أفهم معانيها .

٦

أتى تكن الدروب معبدة ، أضلّ طريقى .
في المياه الممتدة ، وفي زرقة السماء لا يوجد أثر مرسوم يقتنى .
الممر مظلل بأجنحة الطيور ، بجذى النجوم ، بأزاهير المواسم
المتعاقبة .
وإنني لأسائل قلبي عما إذا كانت دماؤه تستبين معالم الدرب الخفية .

٧

وأأسفاه ، لن أطيع المكوث في الدار ، فالمسكن لم يعد مسكني بعد
الآن . إن الغريب الأبدى يناديني ، وهو سائرٌ في مدى الدروب .
إن خفق خطاه يقرع صدري ويؤلمني .
الريح تهبُّ ، والبحر ينن .
سأترك مشاغلي ووساوسي كلّها لألحقَ بذلك الموجِ التائه ، فإن الغريب
يناديني وهو يسعى في مدى الدرب .

٨

يا قلبي ... كن متحفّزاً للانطلاق وذُرْ أولئك الذين عليهم أن يتخلّفوا .
لقد تعالى نداءٌ باسمك في سماء الفجر .
لا تنتظر أحداً .
إن البرعم يتوق الى الليل والندى ، غير أن الزهرة المتفتحة تنادي النور
ليخلصها . حطّم قيودك ، أيها القلب ، وانطلق .

٩

حين تخلفتُ بين كنوزي المحتجّة^(١) ، كنت أشعر بأنني أشبه بالدودة
التي تتغذى في الظلام ، ضمن الثمرة التي ولدت فيها .
سأترك هذا السجن الغائي .

(١) المحتجّة : المختزنة .

لأريد الطمأنينة الغفنة ، فإنني أسعى للبحث عن شبابٍ دائم . سأقذف
بكل شيء لا يتلائم مع حياتي ، بكل خفيف كضحكتي .
سأعدو عبر الزمن ، فعلى مركبتك ، يا قلبي ، يرقص الشاعر الذي يغني
تائها هائماً .

١٠

لقد أمسكت بيدي وقدتني إلى عرش ثم أجلسني أمام الناس كلهم إلى
جانبك ، واستشعرت من ذلك الخجل ، فلم أقدر أن أريم أو أسير في
طريقي ، مسترياً ، ومقدراً كل خطوة أخطوها خشية أن أطأ على شوكة من
أشواك سخطهم .
وتحررت أخيراً .

ودهم الخطب ودوى بوق الإهانة ، وتداعى عرشي على الثرى .
وانفسحت الدروب أمامي .
وامتلأت أجنحتي رغبة في السماء . سامضي محلقاً لأنضم إلى نجوم
منتصف الليل وأغوص في الظل العميق .
إنني شبيه بالغمامة التي تطاردها ريح الصيف ، حتى إذا أضحت سلبية
من تاجها الذهبي ، شالت صاعقة كالسيف فوق سلسلة من البروق .
في فرحة يائسة سأركض في درب المنبوذين المغيرة ، مقترباً ، شيئاً
فشيئاً ، من لقائك النهائي .
إن الطفل ليجد أمه حين يغادر أحشائها .
وكذلك ، حين غادرتك ، ورميت بعيداً عن وصيد بيتك . ألفتني حراً
في النظر إلى وجهك .

١١

إنّها لاتزيّنني إلاّ لتسخر منّي ، هذه السلسلة الثمينة التي تخصني .
 إنّها لتؤلمني حين تطوق عنقي ، وإنّها لتخنقني حين أحاول نزعها .
 إنّها تتشبّث بعنقي ، وتُخرس أغنياتي .
 إن أمكنني أن أمبها ليدك ، يارب ، فقد أنجو .
 خذها منّي ، وعوضاً عنها ، شدّني اليك بإكليل ، فأنا أخجل أن أمثل
 أمامك ، وفي عنقي هذه السلسلة الثمينة .

١٢

كان نهر (الجومنا) يسيل صافياً متدفقاً في الوادي ، تهرّره ضفافه الناتئة .
 وكانت الرُبى الظليلة بالأشجار ، المملأ بأخاديد السيول ، تتدوّر حواليه .
 وكان المعلم الأكبر (غوفيندا) جالساً على صخرة ، يتلو صحفهُ ، حين
 قديم تلميذه (راغونات) المعتدّ بثرائه وانحنى أمامه قائلاً :
 - إنني أقدم اليك هديتي المتواضعة ، إنّها غير جديرة بقبولك .
 ولما استوفى كلامه ، وضع أمام المعلم زَوْجِي أساور مذهبة ، مرصعين
 بأحجار كريمة .
 وتناول المعلم سواراً وأداره حول إصبعه . فنفضت الجواهر أنوارها البراقة .
 وعلى حين غرة ، أمّلس السوارُ من يده ، ثمّ تدحرج ووقع في النهر .
 وصاح راغونات : وأأسفاه !
 ثمّ قفز الى عباب الماء .
 وأرّخى المعلم ناظريه الى كتابه ، وحفظ الماء ماكان قد حازهُ وتابع
 جريه .

وكان النهار يجنح الى النزول ، حين عاد (راغونات) متعباً مبللاً ، الى
أستاذه .

وقال له وهو يلهث : قد أستطيع ، مع ذلك ، العثور عليه ، إن أشرت الى
المكان الذي وقع فيه .
وحينئذ رفع المعلم السوارَ الآخر ، ورمى به الى النهر قائلاً : إنه هناك .

١٣

إنَّ السَّيرَ هوَ في الإلتقاء بك ، كلَّ لحظة ، يارفيقَ السفر .
هو في الغناء على خفق خطاك .
إنَّ من لامسته أنفاسك لايمرّ ، لوأذاً ، بالشاطئ .
إنه يبسط للريح شراعَه الخفّاق ويمخر عباب الماء الهادر .
إنَّ من يترك أبوابه مفتوحة ثمَّ يجوز عتباتها يظفر بتحيتك .
إنَّه لايجلس ليحصى أرياحه أو يأسى على خسارة .
إنَّ وجيب قلبه يساوقُ مشيَّته ، ولهذا فإنَّك تسايره خطوةً فخطوة ،
يارفيقَ السفر .

١٤

إنَّ نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يديك ، كذلك كان وعدك .
ولهذا فإنَّ نورك يتلألُ فوق دموعي .
إنني أتردّد في إتباع الآخرين خشية أن أفوتك حيث تنتظرني ، عند
منعطف الطريق لتكون دليلي .
سأصرّ على السَّير في طريقي ، حتّى يغريك جنوني نفسه بالقدوم الى بابي .

ذلك لأنني نلتُ وعدك بأن نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يديك .

١٥

إنّ كلامك بسيط أيها المعلم ، غير أنّ كلام الذين يتحدثون باسمك ليس ببسيط .
إنني أعني صوتَ نجومك وصمتَ أشجارك .
إنني أعلم بأن قلبي يودّ أن يتفتح كالزهرة ، وإنّ حياتي قد أفعمت من ينبوع خفي .

إن أغانيك الشبيهة بالطيور القادمة من الأرض المنعزلة الكاسية بالثلج ، ترفّ فوق قلبي ، لتبني لها أعشاشاً تكون فيها بنجوة من حرّ نيسان . وإنني لمغتبط بانتظار الموسم السعيد .

١٦

كانوا يعرفون الطريق ، ويتخذون أدراجهم بحثاً عنك في مدى الدرب الضيقة ، أمّا أنا ، فقد كنت أدلج في الليل ، هائماً ضارباً في الأرض القصية ، لأنني كنت جاهلاً .

ولم أكن قد أوتيت قدراً كافياً من التبصّر حتى أخشاك في الظلمة ، ولهذا فقد ألفتني ، مصادفةً ، أمام عتبة بابك .

لقد ثناني العاقل وأمرني بالعودة ، لأنني لم أسلك الدرب الضيقة .
وكنْتُ بسبيل الرحيل ، والشك يجاذبني ، حين احتجزتني وضممتني بشدة إليك ، فأضحت سورة غضبهم ، كلّ يوم ، أشدّ عنفاً .

١٧

لقد أمسكتُ بمصباحي الأرضي وصرختُ وأنا أغادرُ البيت :
 - تعالوا أيها الأطفال ، سأُنيرُ دربكم .
 لقد كان الليل داجياً حين عدت ، مخلفاً الدرب في صمتها وصارخاً :
 - أنيري أيتها النار الإلهية دربي ، فإن مصباحي الأرضي محطّمٌ ملقى على
 التراب .

١٨

لا ، ليس في استطاعتك أن تحيل البراعم الى أزهار . هزّ البرعم ،
 اضربه ، فلن تكون لك القدرة على جعله زهرة .
 إن لمُسكّ تفسده ، إنك تمزّق أفواهه وتذروها على التراب .
 ولكن لن يترأى أي لون ولن يوضع أي أريج . آه ، لن يكون في
 استطاعتك أن تحيل البرعم الى زهرة .
 إن الذي ينور البرعم ، يتأتى له ذلك في يسر . إنه يرامقه بنظرة
 فيتمشّي رحيق الحياة في عروقه . وتبسط الزهرة ، على لهاته ، أجنحتها
 وتتمايل على هينة الريح .
 وتتقد ألوانها كتعلات القلب ، ويشي أريجها بسرّها العذب .
 إن الذي ينور البرعم ، يتأتى له ذلك في يسر .

١٩

حين قطف (سوداس) البستاني من حفاف بركته زهرة (اللوتس)

الأخيرة ، الناجية من غوائل الشتاء ، قَدِمَ الى باب القصر ليبيعها إلى الملك .

والتقى ثَمّةً بمسافر استوضحه قائلاً : ماثلن هذه الزهرة الباقية ؟ فإني أريد تقديمها الى الربّ (بوذا) .

وأجاب (سوداس) : إن نقدتني (ماشاً) ذهبية واحدة فهي لك .
وقبلَ المُسافرُ .

في تلك اللحظة خرج الملك ورغب في شراء الزهرة ، إذ كان بسبيل الذهاب ليرى الرب (بوذا) وقد ألقى أنّ هذه الزهرة التي نُوِّرت في الشتاء ستكون هدية ثمينة تُزجى الى قدمي بوذا .

ولمّا أفصح البُستانيّ بأنّه قد عُرض عليه (ماشاً) ذهبية واحدة ، وعده الملك بعشر ، غير أنّ المسافر ضاعف الثمن .

وحينئذ انحنى للبستانيّ وقال : لأستطيع أن أبيع زهرتي .
فقد خيل اليه ، على حرصه ، بأنه سينال ربحاً أوفى من الربّ (بوذا) نفسه الذي تنافسوا من أجله .

وفي الظلّ الصامت ، من غابة العنّباء المشتجرة ، خلف أسوار المدينة ، كان (سوداس) واقفاً أمام الرب (بوذا) الذي يترقرق فوق شفّتيه صمت الحب ، ويتلألأ في عينيه سلام يماثل نجمة الصبح الوضيئة في فصل الخريف المغسول بالندى .

ورفع (سوداس) طرفه الى وجه (بوذا) ووضع زهرة (اللوّيس) فوق قدميه ، وحتى رأسه حتّى داني التراب .

وابتسم (بوذا) وسأله : ماهي أُمْنِيَّتُكَ ؟
وصرخ (سوداس) : لمسةً صغيرةً من قدميك .

أيها الليل ، أيها الليل المشيح بالسواد ، اجعلني شاعرك .
لقد وقف بعضهم ، معتمساً بالسكوت ، في ظلك ، طوال الأجيال .
دعني اردد أغانيهم .

خذني على مركبتك التي تسعى ، دون عجال ، قافزة دون ضجة ، من
كون الى كون ، أيه أيها الليل ، أيها الملك في قصر الزمن ، أنت يا يدع
السواد .

لقد انسريت ، في خفة ، الى فناء دارك بعض الأفكار المتسائلة ، ثم
طافت حول دارك التي لا يشع فيها مصباح ، تريد جواباً عن أسئلتها .
من بعض قلوب أصماها^(١) سهم الفرحة الذي فوقته^(٢) يد المجهول ،
انطلقت أناشيد الحبور وشقت الظلام حتى تناهت الى أغواره .
لقد صوبت هذه الأرواح اليقظي بصرها الى نور النجوم وأخذها العجب
وهي ترى الى الكنوز التي عثرت عليها فجأة .
إيه أيها الليل ، اجعلني شاعرًا ، شاعر صمتك الذي لا يسبر كنهه .

سألتقي بالحياة في كياني ، يوماً ما ، بالفرحة التي تختبئ في حياتي ،
رغم أن الأيام تعفر دربي بغبارها التافه .
لقد استجليتها في البروق ، وأقبل علي لهاثها المتردد فعطّر أفكاري
لحظة .

(١) أصماها : أصابها .

(٢) فوق السهم : سدده .

سألتني يوماً ، بالفرحة ، خارج كياني ، بالفرحة التي تكمن وراء حاجز
النور ، وسأنتبذ مكاناً في الوحدة الغامرة ، حيث تتراءى الأشياء كلها كما
سواها خالقها .

٢٢

هذا الصبح الخريفي ، مترعاً بالنور ، وإذا أضحت أغانيك طُرفة^(١)
تعبه ، فأعطني نايك لحظة . سألهو به كما يروق لي ، تارةً على ركبتني ،
وتارةً على شفتي ، وتارةً أخرى أوسده العشب الى جانبي .
غير أنني في صمت السماء المهيب ، سأقطف أزهاراً وأضفر منها أكاليل
لأغطيه بها . سأفعمه بالعبور ، سأزجي اليه عبادتي ، وأنا أحمل مصباحاً منيراً .
وفي الليل سأعود اليك لأودعك إتياء .
وستنفخ أنت فيه موسيقاً منتصف الليل ، حين يسعى الهلال المنفرد ،
هانماً بين النجوم .

٢٣

إن روح الشاعر ترقص وترفرف فوق أمواج الحياة ، بين هدير الأوازي
وزفيف الرياح^(٢) .
والآن ، بعد أن غربت الشمس ، وتدانت السماء المكفهرة ، من البحر
كما تتدانى أهداب طويلة من عيون متعبة ، فقد أُرقت الساعة التي يترك فيها
الشاعر قلمه .

(١) الطرف : المتقلب .

(٢) زفيف الريح : موتها .

٢٤

الليل داج ، وأنت تخلد في نومك الى صمتٍ روحي . إيه يا ألم الحب ،
استيقظ ، فأنا لأدري كيف أفتح الباب وأنا واقفٌ أمامه .
الساعات تنتظر والنجوم ساهرة والريح ساكنة والصمت ثقيلٌ تنوء به
روحي .
استيقظ أيها الحب استيقظ ، واملاً كأسى الفارغة ، وتعال هزّ الليل
بلهاتٍ أغنية .

٢٥

إنّ عصفور الصباح يلغو .
كيف عرف بأنّ الفجر سينبلج ، فيما يلفّ مارداً الليل السماء بطيلسانه
البارد الأسود ؟
قلّ يا عصفور الصباح كيف وجد الرسول المنبثق من الشرق طريقه عبر
ليل السماء وليل الأوراق حتّى تنهى الى أحلامك ؟
إنّ العالم لم يكن ليصدقك وأنت تصرخ : لقد أشرقت الشمس وولّى الليل .
أيها النائم ، أفق .
احسر عن جبينك ، انتظاراً لمقدم الشعاع الأول المبارك من النور ،
وغنّ مع عصفور الصباح في تدفق طروب .

٢٦

إنّ المتسوّل الساكن في إهابي قد رفع يديه الهزيلتين نحو السماء

الخالية من النجوم وهتف في اذن الليل بصوته الساعب .
 إن صلواته قد هتّت نحو الظلمة العمياء القاتمة كرباً هابطاً منتصباً في
 سماء موحشة تعجّ بالأمانى الضائعة .
 وماتت صرخة الرغبة على شفا هوة اليأس ، وأخذ عصفور نائح يدور
 حول عشه المهجور .
 ولكن... حين ألقى الصباح مراسيه على سيف^(١) الشرق فإن المتسول
 الساكن في إهابي قفز صارخاً :
 - مبارك أنا ، فالليل الأصم قد أنكرني ، وخزائنه أضحت خاوية .
 وتابع هاتفاً :
 - إيه أيّتها الحياة ، إيه أيّتها النور ، إنكما ثمينان ، وثمينت أيضاً تلك
 الفرحة التي عرفتكما أخيراً .

٢٧

كان (ساناتان) يداعب سبتحه وهو واقف على شاطئ نهر (الغانج)
 حين قدّم اليه برهمي في ثياب لبيسة^(٢) وقال له : انجدي فإنني فقير .
 وأجاب (ساناتان) : لم يبق لدي سوى وعاء الصدقات ، فقد وزعت كل
 ما كان في حوزتي .
 وقال البرهمي : ولكن ربّي (شيفا) تراءى لي في الحلم ونصحني بأن
 أقصدك .
 وتذكر (ساناتان) ، فجأة ، أنه كان قد عثر على حجر لا يقدر بشمن ، بين
 حصى الشاطئ ، وأخفاه في الرمل ، وهو يحسب أنه قد يضحى ذا نفع لأحد ما

(١) السيف : المتاحل .

(٢) اللبيسة : البالية من اللبس .

وأشار بإصبعه الى مكانه للبرهمي الذي أخرجه وهو يعجب .
 واقتعد البرهمي الأرض ، وحيداً يفكر حتى اختفت الشمس خلف
 الأشجار وقاد الرعاة قطعانهم الى الحظيرة .
 وحينئذ نهض قائماً وتقدم ، بتمهل ، من (ساناتان) وقال له : أيها
 المعلم ، هب لي أحقر ذرة من ذلك الثراء الذي يزدري ثراء العالم كله .
 والقي بالحجر الثمين في الماء .

٢٨

يوماً بعد يوم ، كنت أقدم الى بابك ، بيدي الضارعتين ، أطلب اليك
 واستزيدك .
 وقد أعطيتني ثم أعطيتني ، بقدر ضئيل تارة ، وبسخاء مفاجئ ، تارة أخرى .
 وقد تناولت بعض هباتك وتركت بعضها يتهاوى ، وكان بعض منها تنوء به
 يداي ، وصنعت من بعضها الآخر دمي حطمشها بعد أن برمت بها ، حتى قامت من
 حطام عطاياك وهباتك أكوام وراتك عن نظري وهصر الإنتظار المستمر قلبي .
 « خذ آه خذ » تلك هي صيحة قلبي الآن .
 بدد كل ما يحمله هذا الوعاء ، وعاء المتسول ، وأطفئ ذلك المصباح
 الذي يمسك به الساهر اللجوج . اقبض على يدي وارفعني فوق تلك الأكوام من
 عطاياك التي لا تني تتراكم حتى أصل الى الامتداد المقفر من وجودك المنزوي .

٢٩

لقد وضعتني بين المغلوبين .
 إنني أعلم أنه ليس لي أن أربح ولا أن أنكفئ . عن حلبة اللعب .

سأغوص في البركة وإن عرفت بأنني سأنتهي الى قاعها .
 سأقامر بلعبة تقضي الى خسارتي .
 سأقامر بكل ماأملك ، حتّى أفقد آخر درهم عندي . سأقامر بكياني
 نفسه ، ثم أفكر بأنني سأربح من خلال خسارتي نفسها .

٣٠

إنّ بسمة الحبور كانت تشيع في السّماء حين كسّوتَ روحي برث
 الثياب وبعثتَ بها لتستجدي على الدرب .
 لقد كانت تذهبُ من بابٍ الى بابٍ ، وغالباً ماكان يحدث لها أنّ وعاءها
 مايكاد يمتلئ حتّى يُسرق ما فيه .
 وفي نهاية نهارٍ متعب ، أقبلتَ الى بابٍ قصرٍك ورفعتَ وعاءها الحقيير
 وحينئذ أتيتَ وأمسكتَ بيدها وأجلستها على العرش الى جانبك .

٣١

طلب الربّ (بوذا) الى تلاميذه حين كانت المجاعة تستبد بمدينة
 (شراقاستي) :
 - من الذي سيعنى بإطعام الجائعين ؟
 وخفض الثري (راتناكار) رأسه قائلاً : إنّ إطعام الجائعين يتطلّب مالاً
 يزيد كثيراً عن ثروتي كلّها .
 وقال (جاييس) قائد جيش الملك : إنني أيزل دمي ، مسروراً ، غير أنه
 لا يوجد طعام كافٍ في بيتي .
 وتنهّد (دارمابال) الذي يملك مراعي فسيحة وقال : إنّ إله الرياح قد

جعل حقولي جافة ولا أدري كيف سأسدّد ضرائبي الى الملك .
 وحينئذ نهضت (سوبريا) ابنة المتسوّل ، وانحنت أمام الجميع وقالت
 في تواضع : سأطعم هؤلاء الجائعين .
 وصرخ الجميع في عجب : ولكن كيف تأملين أن تتمكني من تحقيق
 مبتغاك ؟
 وقالت (سوبريا) : إنني أفقر إنسان بينكم . هذه هي قوتي ، أمّا المال
 والخيرات فسأجدها في كل بيت من بيوتكم .

٣٢

لقد كان ملكي مجهولاً لديّ ، وهكذا فقد جرّوت ، حين طُلب اليّ أداء
 الضريبة ، أن أفكر في التّواري ، تاركاً ديوني غير مسدّدة .
 لقد هربتُ بعيداً ، مُخلفاً عمل يومي وأحلام ليلى .
 ولكن طلباته كانت تلاحقني في كلّ زفرة تتردّد في لهائي .
 غير أنني علمتُ بأنني معروفٌ لديه وإنّ كلّ ما في حوزتي لا يخصني .
 أمّا الآن ، فإنني أتشوّف الى أن أضع مالي كلّهُ أمام قدميه ، وأن يكون
 لي نصيب في كلّ مكانٍ من مملكته .

٣٣

حين فكّرت في أن أنحت لك مثلاً للعبادة مقتبساً من حياتي ، فقد
 أحضرت ترابي ورغباتي وأوهامي الملوّنة وأحلامي كلّها .
 حين طلبت اليك أن تخلّق من حياتي مثلاً مقتبساً من قلبك ليثسّق لي
 أن أحبك ، فقد أحضرت نارك وقوتك وحقيقتك وحبك وسلامك .

قال الحاجب لِمَلِكِهِ : مولاي إِنَّ القَدِيسَ (ناروتام) قد أَنَفَ أن يَدْخُلَ
مَعْبِدَكَ المَلِكِي .

إِنَّهُ يَتَرْتَم بِحَمْدِ رَبِّهِ والدِّعَاءِ لَهُ ، فِي ظِلِّ أَشْجَارِ الدَّرُوبِ الفَسِيحَةِ ،
والمَعْبِدُ خَالٍ مِنَ المَتَعَبِّدِينَ .

إِنَّهُمْ يَتَدَافِعُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ القَدِيسَ كَأَسْرَابِ النَحْلِ الَّتِي تَتَحَلَّقُ زَهْرَةَ
اللُّوتُسِ البَيْضَاءِ ، عَازِفَةً عَنِ الجَنَّةِ المَذْهَبَةِ المَلَأَى بِالشَّهَدِ .

وَأَسْرَعَ المَلِكُ كَاطِماً غِيظَهُ ، إِلَى حَيْثُ اتَّخَذَ (ناروتام) مَجْلِسَهُ فَوْقَ
العُشْبِ وَسَأَلَهُ : ابْتَاهُ ، لِمَ هَجَرْتَ مَعْبِدِي ذَا القَبَّةِ الذَّهَبِيَّةِ وَجَلَسْتَ فَوْقَ
التراب لتدعو إلى محبة الرب ؟

فَقَالَ (ناروتام) : لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يَوْجَدُ هُنَاكَ ، فِي مَعْبِدِكَ .
وَزَوَى المَلِكُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَجَابَ : أَفَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ بُذِلَ عَشْرُونَ مَلِيونَ
قِطْعَةٍ ذَهَبِيَّةٍ لِإِنْشَاءِ هَذِهِ الطَّرْفَةِ الفَنِيَّةِ ، وَأَنَّهَا قَدْ أُعِدَّتْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ ،
وَاسْتَلْزَمَتْ طَقُوساً ثَمِينَةً ؟

وَقَالَ (ناروتام) : بَلَى أَنَا أَعْلَمُ . لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي العَامِ الَّذِي فَرَعَ فِيهِ
إِلَى بَابِكَ أَلُوفٌ مِنْ رَعَايَاكَ يَطْلُبُونَ العَوْنَ عِشّاً ، بَعْدَ أَنْ دَهَمَتِ النَّارُ بِيُوتَهُمْ ،
فَتَسَاءَلُ الرَّبَّ : أَيُّنِي لِي هَذَا المَخْلُوقُ التَّعَسُّ مَعْبِداً ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَقْدِمَ إِلَى
إِخْوَانِهِ المَأْوَى ؟

وَهَكَذَا اتَّخَذَ الرَّبُّ مَكَانَهُ لَدَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا مَأْوَى لَهُمْ فِي ظِلِّ أَشْجَارِ
الدَّرُوبِ الفَسِيحَةِ .

إِنَّ هَذَا المَعْبِدَ ، هَذَا الزَّيْبَ المَذْهَبَ هُوَ فَارِغٌ ، إِلَّا مِنْ بَخُورِ الْخِيَلَاءِ
الَّذِي يَضُوعُ فِيهِ .

وَصَرَخَ المَلِكُ غَاضِباً : أَخْرِجْ مِنْ أَرْضِي .

فأجاب القديس في هدوء : أجل ، اخرجني من حيث أخرجت أنت من قبل ربّي .

٣٥

البوق جائئ في التراب .
الريح متعبٌ والتور ميت .
آه أيها اليوم المشؤوم .
تعالوا أيها المناضلون ، أنتم يامن تحملون الألوية . أيها المغنّون ،
أقبلوا بأناشيد الحرب .
تعالوا أيها الحجاج المغذّون في السير ، المسرعون في الرحيل .
إن البوق جائئ في التراب ينتظرنا .
كنت أحمل ، وأنا في طريقي الى المعبد ، قرابين المساء ، وكنت
أبحث عن مكان راحة أفيء اليه ، بعد عناء عملٍ نهارٍ أغبر ، وكنت أملُ أن
أجدَ بلسماً لجراحي ، وماءً طهوراً لثيابي الملوثة حين ألفت بوقك وقد
توسد التراب .
أفلم تأنِ الساعة التي أشعل فيها مصباح الليل .
أفلا يهدد الليلُ النجومَ بفنائه .
إيه أيّتها الوردة المخضبة بالدم ، إن الأعشاب المنومة قد اصفرّت
وصوتت .
كنت موقناً بأن ضلالاتي قد مضت ، وأن ديوني قد سُدّت ، حين
اكتشفتُ ، فجأةً ، بوقك وقد توسد التراب .
اضرب قلبي الناعس بسحر شبابك .
دع فرحة حياتي تلهب كالشعلة .

دغ سهام الفجر تنفذ في قلب الليل ، ولتهزّ رعشة الوجع إهاب الضلال
والجمود .

لقد جنت لأرفع بوقك من التراب .
لن يستولي النوم عليّ أبداً ، سأأخذ سمّي ، ماشياً بين سيول السهام .
سيخفّ إليّ بعضهم من بيوتهم ويلزم جانبي ، وسأأخذ بعضهم في
البكاء .

سيهتّ آخرون في رقاهم وسيصرخون في أحلامهم المربعة .
في هذه الليلة سيدوي بوقك .
لقد سألتك الأمن ولم ألق سوى الهوان .
والآن سأمثل أمامك فأعني على ارتداد درعي وتقلّد سلاحي .
دغ ضربات المحن القاسية تضرم النار في حياتي .
ذرّ قلبي يخفق في الألم بدوي النصر .
سترتمّع عندئذ ، يداي الخاويتان ببوقك .

٣٦

حين شالوا في فرحتهم المجنونة ، وخلاً ليلوثوا به ثوبك ، آه ، أيّها
البديع ، فإنّ قلبي قد تفتّر ألماً .
وصرختُ وقلتُ له : أمسك بسوط العذاب واحكم عليهم .
وكان نور الصباح يسفّع تلك العيون المحمرة بفجور ليلتهم . واستقبل
بستان السوسن الأبيض لهائهم المحرق ، وجعلت النجوم تتأمل ، عبر أعماق
الظلمة المقدسة ، في فسقهم ، فسق أولئك الذين كانوا يتناولون وخلاً
ليلوثوا به ثوبك ، أم أيّها البديع .
وكان مجلس عدلك ، يسمو في بستان الأزاهير ، في ربيع مخضّل

بأنحان الطيور ، على سيف الأنهار الضليل ، حيث يتجاوب همس الأشجار مع همس الأمواج .

إيه أيها الحبيب ، لقد نضبت نفوسهم من الرأفة ، وهم سادرون في ضلالهم .
لقد داروا في الظلام لينتزعوا حليك ويزينوا به شهواتهم وحين ضربوك وعذبوك ، تصدع قلبي ألماً ، وصرختُ قائلاً : أمك بسيفك أيها الحبيب وعاقبهم .

بيد أن عدلك كان ساهراً .

لقد ذرفت دموع أم على تحذيتهم ، بيد أن رحمة الحب الخالدة قد وارت في جراحها أسلحة تمردهم .

وكان عقابك لهم يشق في ذلك الألم الصامت من الحب اليقظان ، وفي تلك الحمرة المترققة من الطهر ، وفي تلك الدموع التي يسفحها المحزون في الليل ، وفي ذلك النور الشاحب المنسكب من فجر الغفران .

آه أيها الرهيب ، إنهم في جشعهم المتمادي ، قد تجاوزوا ذات ليلة حدودهم فحطموا أبواب بيتك لينهبوا ما لديك .

ولكن عبء أسلابهم أضحى ثقيلاً فلم يقدرُوا أن يحملوها بل أن يحركوها ، حينئذ صرختُ قائلاً : اغفر لهم آه ، أيها الرهيب .

وانتشر غفرانك في عواصف زعزعتهم وبعثرت أسلابهم في التراب .

لقد كان غفرانك في الصاعقة ، في الأمطار الدامية . في الغضب المخضب المثالي من الشمس الغاربة .

٣٧

كان (اوبوغويتا) تلميذ (بوذا) يتوسد الشراب ، مضطجعاً وظهره الى سور مدينة (ماتورا) .

وكانت المصابيح كلّها مطفأة ، والأبواب كلّها موصدة ، والنجوم كلّها خبيئة في سماء غائمة من شهر آب .

لمن هذه الأقدام التي يوسوس حليها ويلامس صدره عفواً ؟
لقد استيقظ مرتعشاً ، وفجأ نورٌ يشع من مصباح امرأة ، عينيه الطافحين بالغفران .

كانت راقصة مزينةً بالجواهر ، ملتفةً بمعطفٍ حائل الزرقه ، وكانت ثملةً بخمر صباها .

وطامت مصباحها ، فرأت وجهاً فتياً ذا قسماط جميلة بادية التقشف .
وقالت المرأة : اغفر لي أيّها الناسك الفتى ، أفلا تقبل الى بيتي فيأهل بك ؟
إنّ الأرض المغبرة لاتليق بك فراشاً .

وأجابها الناسك : على رسلك أيّتها المرأة ، حين يآزف الزّمن ، فإنني سأتي اليك .

وانشقّ الليل الأسود ، فجأة ، عن وميض برق . وأقبلت العاصفة من الأفق راعدةً ، فارتجفت المرأة رعباً .

وكانت أغصان الأشجار النامية على حيد الدّرب تتشّني ببراعمها .
وكانت أنغام النّاي الجدلى تهزج بعيداً مع نسيمات الربيع الدافئة .
وكان سكّان المدينة قد فزعوا الى الغابة احتفالاً بعيد الأزهير .
وكان القمر يتأمل ، من مشارف السّماء ، في ظلال المدينة الصّامتة .
وكان الناسك الفتى يسير في الطّريق المقفرة ، وفوق رأسه كانت الطّيور المتيمّة حباً تغرّد على عذّبات أغصان العنّاب شكاتها اليقظى .
وجاز (أوبوغويتا) باب المدينة وانتصب أمام السور .
من هي تلك المرأة المضطجعة ، بحذاء قدميه ، في ظلّ السور ، المصابة

بالطَّاعون الأسود ، المتقولة بمحفّة ، سريعاً ، الى خارج المدينة ، وجسمها
ملطّخٌ بالجراح ؟

وجلس النَّاسك الى جانبها ، وأمسك برأسها وأراحه على ركبتيه وبَلَّلَ
شفّتيها بالماء ، ولفَّ جسمها بالضَّمَاد ، وسألته المرأة : من أنت أيُّها
الرحيم ؟

فأجابها النَّاسك الفتى : لقد أزف الزمن الذي أزورك فيه ، وها أنذا
أمامك .

٣٨

إنَّ الحب الذي يجمع بيننا ، يا حبيبي ، ليس عبثاً بسيطاً .
مرة تلو المرة ، عصفت بي لياالي الرياح المزمجرة ، مطفئةٌ مصباحي ،
تجمّعت الشُّكوك السوداء لتمحو النجوم كلّها من سماني .
مرة تلو المرة ، تحطّمت السدود لتدع فيضَ الماء يجرف حصادي ،
ومزّق اليأس والنحيبُ ، أطراف سماني .
وقد تعلّمت أن ضربات الألم تتردّد في حبّك ، ولا تتردّد في جمود
المنية البارد .

٣٩

وينشقّ الحائطُ ، ويتسلّل النورُ ، تلك الضحكة الالهية .
أيُّها النصر ، إيه أيُّها النور .
إنَّ قلب الليل طعينٌ .
إقطع سيف شعلتك عقدة الشك وال رغبات الواهنة .

أَيُّهَا النَصْر .
تَعَالِ أَنْتِ الَّذِي لَا يَهْدَأُ أَوَارُهُ .
تَعَالِ أَيُّهَا الرَّهِيْبُ فِي بِيَاضِكَ النَّاصِعِ .
إِيَّاهُ أَيُّهَا النَّوْرُ ، إِنَّ قَرَعَ طَبْلَكَ يَوَاكِبُ مَشِيَّةَ النَّارِ ، وَالشَّعْلَةُ الْحَمْرَاءُ قَدْ
رَفَعَتْ إِلَى الْعَلَاءِ ، وَالْمَوْتُ يُخْتَضِرُ فِي رَوْعَةٍ رَاعِشَةٍ .

٤٠

أَيُّهَا اللَّهْبُ ، يَا أَخِي ، إِنِّي أَغْنِي لَكَ أَغْنِيَةَ النَصْرِ .
أَنْتِ صُورَةُ خَضِيْبَةٍ مِثْلَ لَنَّةٍ لِلْحَرِيَّةِ الْمَخِيفَةِ .
إِنَّكَ تَمُدُّ ذِرَاعِيكَ إِلَى السَّمَاءِ وَتَمْسُ بِأَنَامِكَ الثَّائِرَةِ ، أَوْتَارَ الْمَعْزَفِ .
إِنَّ مُوسِيْقَا رَقْصَتِكَ لِرَائِعَةٌ .
حِينَ تَنْتَهِي أَيَّامِي ، وَتَفْتَحُ الْأَبْوَابَ ، فَإِنَّكَ سَتَحْرِقُ أَوْتَارَ يَدَيَّ وَرَجْلِي ،
حَتَّى تُصِيرَ إِلَى رَمَادٍ .
سَيَتَّحِدُ جِسْمِي بِكَ وَيُؤَلِّفُ مَعَهُ كَلَامًا وَاحِدًا ، وَسَتَعَصِفُ زَعَازُعُ جُنُونِكَ
بِقَلْبِي ، وَسَتَفْجَرُ فِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، الْحَرَارَةُ الْمَحْرِقَةُ ، الَّتِي كَانَتْ تَكْمُنُ فِي
حَيَاتِي ، وَتَنْحُو إِلَيْكَ لَتَمْتَزَجَ بِشَعْلَتِكَ .

٤١

الْمَلَاخُ يَتَهَيَّأُ فِي الْخَارِجِ لِرُكُوبِ الْبَحْرِ الْهَائِجِ ، تَحْتَ جَنَحِ اللَّيْلِ .
الْقُلُوعُ تَتَنَّى ، عَلَى جَذْبِ الرِّيحِ الْغَضُوبِ الَّتِي تَمْلَأُ أَشْرَعَتَهَا .
وَتَمْرَقَتِ السَّمَاءُ بِمَخَالِبِ اللَّيْلِ ، وَتَطَامَنَتْ فَوْقَ الْبَحْرِ وَبَثَّتْ فِيهِ سَمَّ
الْمَخَاوِفِ السُّودَاءِ .

الأمواج تنفض ذراها نحو الحلقة الداجية ، والملاحُ يتهياً في الخارج
ليركب البحر الهانج .

لا أعلم أيّ موعدٍ ينتظر الملاح في الخارج وهو يُرعرش الليل ببياضٍ
مفاجئٍ من أشرعته .

لأدري أيّ شاطئٍ يرسو عليه أخيراً ليصل الى الحديقة الصامتة ، حيث
ينير المصباح ، فيلقى تلك التي تنتظره وهي تقتعد التراب .

الى أي هدف يسعى قاربه الذي لايهاب العاصفة والظلام ؟
تراه مثقلاً بالجواهر والآلى ؟

لا . إنّ الملاح لا يحمل معه كنوزاً ، بل يحمل زهرة بيضاء في يده
وأغنيةً على شفثيه .

ليقدّمهما الى تلك التي تسهر وحدها في الليل ، مع مصباحها المنير .
إنّها تسكنُ في كوخها القائم على الطريق .

وغدائرها تنوس في الريح وتخفي عينيها .

العاصفةُ تعول عبر الأبواب المحطّمة وترنح النور في مصباحها ، مريقاً
ظلاله فوق الجدران .

إنّها لتسمعه في زفيف الريح ، يناديها باسمها ، هي ذات الاسم
المجهول .

منذ زمنٍ طويلٍ أقلع الملاح .

ينبغي مرورُ زمنٍ طويلٍ حتّى يسفر الفجر ويقرع بابها .

لن تُضرب الطبول ولن يعلم أحد .

ولكن سيفعم النورُ الدارَ وسيضحى التراب مباركاً سعيداً .

ستتلاشى الشكوك كلّها ، في صمتٍ . حين يصل الملاح الى
الشاطئ .

٤٢

إنني أتعلّق بتلك العوامة الحيّة ، بجسدي ، لأعبر بها ذلك النهر الضيّق
من أعوامي الأرضيّة وسأتركه حين تتم النقلة .
وبعد ذلك ؟
لأدري ما إذا كان النور واليقظة سيتشابها هناك .
إنّ المجهول هو الحرّية الدائمة .
إنه لا يعرف الرّحمة في حبّه .
وإنه ليحطّم الصدقة ليعثر على اللؤلؤة في سجنها المظلم .
أفلا تحلم في الأيام الخالية وتبكيها أيّها القلب المسكين ؟
افرح فإنّ أيّاماً لك هي يسيل القدوم .
أم أيّها الحاج ، لقد دقّت الساعة .
هاقد أقبل الزمن الذي تأخذ فيه أدراجك .
سيحسر لك عن وجهه ، مرة أخرى ، وستلّفي نفسك أمامه .

٤٣

بنى الملك (بميسار) فوق ضريح (بوذا) مذبحاً من المرمر الأبيض
تمجيداً لذكراه .
وفي المساء كانت الزوجات والفتيات في بيت الملك يقبلن كلّهن
بقرايين الزهر ويشعلن المصابيح . ولما تسلّم ابن الملك العرش غمر في
عهده نحلة أبيه بسيل من الدماء وأرث بكتبه المقدّسه نيران المحارق .
وكان يوم الخريف يحتضر .
ودنت ساعة العبادة في السّماء .

ورامقت في هدوء (شريماتي) وصيفة الملك المؤتمة بمذهب الرب
(بوذا) ، فيما كانت تغتسل بالماء المقدس وتضع فوق الطبق مصابيح وبراعم
بيضاء ريتا ، رامقت بعينها الكنيتتين وجه الملكة .
وارتمشت الملكة خوفاً وقالت : أفلا تعلمين أيتها الفتاة الرعناء أن
الموت هو عقاب من يتجه بعبادته الى مذهب (بوذا) ؟
تلك هي إرادة الملك .

وانحنت (شريماتي) ساجدة أمام الملكة ، ولما جازت الباب انتصبت
واقفة أمام (أميتا) زوج ابن الملك الجديدة .
وكانت الزوج الجديدة تضفر شعرها الطويل الفاحم ، وقد أراحت على
ركبتها امرأة مذهبة مليسة الصقال ، وجعلت ترسم علامة السعد الحمراء على
مفرق شعرها .

وارتجفت يداها حين لمحت الفتاة وصرخت قائلة : أي خطر رهيب
تسوقينه إلي ، اغربي عن وجهي الآن .
وكانت الأميرة (شوكلا) جالسة أمام النافذة وهي تطالع ، على نور
الشمس الغارية ، كتاباً في الحب ، وجاذبتها رعشة حين بصرت بالفتاة أمام
الباب ، حاملة قرايينها المقدسة .

وسقط الكتاب من ركبتيها وهمست في اذن (شريماتي) :
- لاأسرعي الى حتفك أيتها المرأة الجريئة .
وكانت شريماتي تدور من باب الى باب .
وكانت ترفع يديها هاتفة : إيه يانساء الملك أسرعن ، لقد أزف وقت
عبادة الرب .

وأغلق بعضهن الباب في وجهها وأهانها بعضهن الآخر .
وكانت أشعة النهار الأخيرة تذوي فوق قبة برج القصر البرونزية .
وكانت ظلالاً داكنة تتجمع في أطراف الدروب ، وعلت جلبة المدينة ، ودوى

طلب معبد (شيفا) مؤذناً بساعة صلاة العشاء .

وكانت النجوم ترفّ بالنور في عتمة مساء خريفٍ عميقٍ كبحيرة صافية ، حين ارتجف حراس الحديقة الملكية وهم يشاهدون عبر الأشجار المتواشجة صفّاً من المصابيح تتلألأ في مذبح (بوذا) .

وخفّوا مسرعين وقد شرّعوا سيوفهم وأخذوا يصرخون :

- من أنت أيّها المجنون الذي يتحدّى الموت ؟

وأجاب صوت عذب : أنا (شريماتي) خادم الرب بوذا .

وبعد لحظة صبغ دمّ قلبها بخضابه الأحمر المرمّر البارد .

وفي هدأة النجوم كانت تذوي أشعة آخر مصابيح العبادة أمام المذبح .

٤٤

إنّ هذا اليوم الذي يفصل بيني وبينك يشير إلينا إشارة الوداع .

وأرّخى الليل سدوله على وجهه ، وأخفى المصباح الوحيد الذي ينير في

غرفتي .

لقد دخل خادمك الأسمر ، دون ضجة ، ومدّ بساط الزوجية لتأخذ

مجلسك فوقه ، وتخلو إليّ في صمت الكون ، حتّى ينقضي الليل .

٤٥

لقد مرّ الليل فوق سرير الحزن . لقد استبدّ التعب بعيني . إنّ قلبي

المثقل لمّا يستعد لاستقبال الفجر بأفراحه الجمّة .

أسدلّ ستاراً على ذلك النور العاري . أقصّ عني ذلك البريق الساطع ،

وابعد عني رقصة الحياة .

فليسريلني وشاؤك ذو الظلمة الساعمة بطياته ، وليسريل ألمي
ويحجبه ، لحظةً ، من عناء هذا الكون .

٤٦

لقد مرّ الزمن الذي كان في مقدوري أن أعيد إليها كلّ ما كنت ألقاه .
إنّ ليلاً قد لقي فجره ، وقد أمسكتُ بها يداك . سأجلب ، إليك أنتَ ،
عرفاني وهباتي التي كنتُ أخصّها بها .
إنني قادمٌ إليك ، لتمنحها مغفرتك ، وإنّها لتشفع بالآلام والإهانات التي
تلقتّها .
إنني أزجي إلى خدمتك ، هذه الزهرات ، زهرات حبي التي تظل
مبرعمة ، فيما تنتظر هي أن تتفتح .

٤٧

لقد عثرتُ في صندوقها الصغير على بعض رسائلني مخبأةً بعناية - تلك
قبضةً من الدمى الصغيرة التي تلهو بها ذاكرتها .
لقد حاولت بقلبي وأجف ، أن تنجو بهذه التفاهات من نهر الزمن
الجارف ، وقالت : إنّها لي ، لي وحدي ، آه ، لم يبقَ إنسان يطالب بها ،
ليدفع ثمناً لها تلك العناية العاشقة ، فلما تزال خبيثةً هنا حتّى الآن .
إنّ في هذا العالم - لا بدّ - حبّاً ينقذها من النسيان التام ، كما أنقذ
حبّها ، بعناية العاشقة الحنون ، تلك الرسائل .

٤٨

أَيْتَهَا الْمَرْأَة ، أَجْلِبِي لِحَيَاتِي الْبَائِسَةَ الْجَمَالَ وَالنِّظَامَ ، كَمَا كُنْتُ
تَجْلِبِينَ ذَلِكَ لِمَنْزِلِي وَأَنْتِ حَيَّةٌ .
اكَتْسِي أَغْبَارَ السَّاحَاتِ وَأَوْسَاخَهَا . اَمْلَأِي الْجَرَارَ الْفَارِغَةَ . وَرَثِي كُلَّ مَا
أَضْحَى مَهْمَلًا .
ثُمَّ افْتَحِي الْبَابَ الدَّخْلِيَّ ، فِي الْمَذْبَحِ ، وَأَشْعِلِي الشَّمْعَ ، وَلِنَتَلَقَّ ،
فِي صَمْتٍ ، هُنَاكَ أَمَامَ رَبَّنَا .

٤٩

مَوْلَايَ ، لَقَدْ أَضْحَى الْأَلَمُ كَبِيرًا . حِينَ تَمَّ خَبْطُ الْأَوْتَارِ وَمُؤَلَّفَتَهَا .
ابْدَأْ بِمَوْسِقَاكَ ، وَدَعْنِي أَنْسَ فِيهَا الْأَلَمَ ، أَجْعَلْنِي اسْتَشْعَرَ الْجَمَالَ فِيمَا
كَانَ يَدُورُ بِخَدِّكَ خِلَالَ الْأَيَّامِ الْقَاسِيَةِ .
إِنَّ اللَّيْلَ الَّذِي يَتَضَاءَلُ وَيُمَحِّي ، يَمُكِّثُ مَتَأَخَّرًا عَلَى أَبْوَابِي ، دَعِهِ
يَتَلَاشَى فِي أَغْنِيَاتٍ .
دَعْ قَلْبَكَ ، يَا مَعْلَمِي ، يَتَسَلَّلُ عَلَى أَوْتَارِ حَيَاتِي ، فِي نَفَمَاتٍ تَنْزَلُ
مِنْ نَجْوَمِكَ .

٥٠

فِي بَرِيقِ لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ ، اسْتَجْلَيْتُ عَظَمَةَ خَلْقِكَ فِي حَيَاتِي ، هَذَا الْخَلْقُ
الَّذِي يَتَسَلَّلُ ، عِبرَ الْمَوْتِ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ .
لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى اتِّضَاعِي ، وَأَنَا أَلْفِي حَيَاتِي رَهْنَ سَاعَاتٍ لَا مَعْنَى لَهَا ،

بيد أنني حين أراها بين يديك ، أعلم بأنها أجدى كثيراً من أن تُبعثر بين
الظلال .

٥١

إنني أعلم بأن الشمس ستوافيني ، ذات يوم ، في غروبٍ داكم ،
بوداعها الأخير .

سينفخ الرعاة في ناياتهم ، متفيتين أشجار التين ، وسترعى القطعان
عند منحدر النهر فيما تترادف أيامي في الظلام .

ويهمو هذا الدعاء مني : ثرائني أستطيع أن أعلم ، قبل أن أغادر الأرض ،
لم أخذتني بين ذراعيها ؟

علام حدثني صمتاً لياليها عن النجوم ؟ ، علام برّعم شعاع نهارها ،
بقبلته ، زهرة خواطري ؟

ترى هل يتأتى لي ، قبل الرحيل ، أن أتخلف واستريح الى نغمي
الأخير ، حتى أتمم به موسيقاه ، وأن يشع المصباح حتى استجلي وجهك ،
وأن يضفر الإكليل حتى أزينك به ؟

٥٢

ماهي تلك الموسيقى التي تهدد الكون بإيقاعها ؟
إننا لنضحك حين يتردد صداها فوق ذروة الحياة ، ونرتجف هلعاً حين
تنكفي ، الى الظلمة .

ومع هذا ، فإن هذا النغم هو نفسه الذي يقبل وينأى على وزن هذه
الموسيقا الخالدة .

إنك تخفي كنزك ، وإننا لنصرخ : إننا قد سُرقتنا .
ولكن سواء عليك أعددت راحتك أم بسطتها ، كما تشاء ، فإن الربح والخسار متماثلان .
إنك في لهوك مع نفسك تخسر وتربح معاً .

٥٣

لقد لثمتُ هذا الكون بعيني وجسمي كله ، وأدخلته قلبي بطياته التي لاحصر لها ، وسفحت فوق أيامه ولياليه شتى الأفكار ، حتى التأم الكون مع حياتي في كل واحد - وإنني لأكلف بحياتي لأنني أعيد نور السماء الكامن في نفسي .
إذا كانت مغادرة هذا الكون حقيقة كحقيقة الشغف به ، فينبغي أن يكون ثمة تفسير لكل لقاء أو فراق في الحياة .
وإذا كان على الحب أن يحظى بالخبرة من الموت ، فإن حشرة هذه الخيبة سوف تقرض كل شيء . وسوف تذوي النجوم نفسها وتمسي مظلمة .

٥٤

قالت لي الغمامة : سامحي .
وقال الليل : سأغيب في الفجر المضطرب .
وقال الألم : سألوذ بصمت عميق كآثار خطأ .
وأجابت حياتي : سأموت وأنا في منتهى الكمال .
وقالت الأرض : إن أنوارى تلثم أفكارك في كل لحظة .
وقال الحب : وتمضي الأيام ولكنني أنتظرك .
وقال الموت : سأقود زورق حياتك عبر البحر .

كان الشاعر (توليسداس) يتخطر ، وهو مستغرق في أفكاره ، قرب نهر (الغانج) ، في ذلك المكان المنعزل الذي يحرق فيه الموتى ، قَبَضَ بِأَمْرَةٍ ، اتَّخَذَتْ مَجْلِسَهَا إِلَى جَانِبِ قَدَمِي جُثْمَانِ زَوْجِهَا ، وَقَدْ لَفَّ بِرَدَاءٍ زَامٍ كَأَنَّهُ ثَوْبُ عُرْسٍ .

ولمَّا رَأَتْهُ ، نَهَضَتْ ثُمَّ جَثَّتْ سَاجِدَةً لَهُ وَقَالَتْ :
 مولاي اسمح لي أن أتبع زوجي إلى السماء محفوفةً ببركتك .
 وأجاب (توليسداس) : فيم العجلة يا بنيّتي ؟ ألا تخص هذه الأرض ذاك الذي سَمَكُ^(١) السماء ؟

وَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : إِنِّي لَا أَهْفُو إِلَى السَّمَاءِ وَلَكِنِّي أُرِيدُ زَوْجِي .
 وابتسم (توليسداس) وقال : ارجعي إلى بيتك يا بنيّتي فسوف تلقين زوجك قبل أن ينصرم الشهر .

وعادت المرأة بأملٍ بهيج ، وجعل (توليسداس) يوافيها ، كلَّ يوم ، ويهب لها الخواطر السامية لتفكر فيها ، حتّى جاء يوم امتلأ فيه قلبها وأفعم بالحب الإلهي ، وكان الشهر يوشك أن ينتهي ، حين جاء جيرانها مستفهمين : أَيْتَهَا الْمَرْأَةُ هَلْ لَقِيتِ زَوْجَكَ ؟

وأجابت الأيّم باسمّة : لقد لقيته .
 وألحفوا في سؤالهم : ولكن أين هو ؟
 فردّت عليهم : إنّه في قلبي يقيم سيّدي وحده .

(١) سمك السماء : رفعتها .

لقد جنّس ، لتمكّثي لحظةً الى جانبي ، فلمستني واشعرتني سرّ المرأة
الكبير الكامن في قلب الخلق نفسه .
إنّها نفسها تلك التي تُعيد دوماً الى الربّ أمواج عذوبتها الفيّاضة . إنّها
الجّمال المتّصل الجذّة ، الدائم السّباب في الطبيعة . إنّها ترقص مع الجداول
المزبدة المتدفّقة ، وتغنّي مع نور الفجر ، وتنقع ظمأ الأرض بموجاتها
الهادرة . لقد تجسّد فيها الوحدة والخلود معاً ، لتنبثق في فرحة لا يمكن أن
يعقل جماعها ، ثمّ تنصبّ في ألم الحب .

تُرى من هي تلك المرأة التي تسكن قلبي ، تلك المرأة البانسة دوماً ؟
لقد غازلتها ولم أستطع أن أستميلها اليّ .
لقد زينتها بالأكاليل وتفزّلت بمحاسنها .
وتلاّلت إبتسامه في محياها ثمّ انطفأت .
وصرخت المرأة الحزينة : لا يداخطني أيّ سرور منك .
وشريّت لها خواتم ثمينة ووهبت لها مروحةً مرصّعةً بالجواهر ، وسوّيت
لها سريراً مموّهاً بالذهب .
وترقرق نور الرضا في عينيها ، لحظةً ، ثمّ تلاشى .
وصرخت المرأة الحزينة : لأجد أيّ سرور في هذه الأشياء .
وأجلستها في مركبة النصر ، ثمّ سرت بها بين أطراف الأرض .
وتهاوت الى قدميها قلوبٌ متيمّة ، وتناهت رعود التصفيق الى السماء .
وشغّت الخيلاء في نظرتها ، لحظةً ، ثمّ غامت الدموع في عينيها .

وصرخت المرأة الحزينة : لأجد أي متعة في الظفر والغلابل .
وسألتها : اذكري لي من تنتظرين ؟
وقالت : انتظر ذاك الذي لايعرف اسمه .
وانقضت أيام وصرخت المرأة : متى يأتي حبيبي ذاك الذي لأعرفه
البته ، حتى تتصل معرفتي به الى الأبد ؟

٥٨

لله ذلك الشعاع الذي يتفجر من الظلمات ، ولك تلك الطيبة التي تنبت
في القلب المفضى بالكفاح .
لله الدار المنفسحة للجميع ، ولك الحب الذي يهتف في ميدان المعركة .
لله العطاء الذي يظل ربحاً حين تتراءى الأشياء كلها ضائعة ، ولك الحياة
التي تسيل في هوة الموت .
لله تلك السماء المتوارية خلف التراب ، وتظل أنت هناك من أجلي ،
من أجل الجميع .

٥٩

حين أنوء ، بمشقة الطريق وظماً اليوم القاحل ، وحين تفرش طيوف
ساعات الغروب ظلالها فوق حياتي فلا أهفو الى صوتك فحسب أيها الرفيق ،
ولكن أهفو الى لمستك .
إن في قلبي فرعاً . إنه يحمل عبء غناه الذي لم يمنحه إياك .
مد يدك ، عبر الظلام لأتمسك بها وأملأها وأحفظها ، دعني أشعر
بلمستها في الإمتداد المتصل من وحدتي .

هتفَ شذا البرعم قائلاً : آه ، إن النهار السعيد ، نهار الربيع يمضي ،
وأنا حبس الأفواف .

- أيها الشيء الصغير البسيط ، استمسك بشجاعتك .
إن كل صلة لك سوف تنبت ، سيتنور البرعم زهرة وحين يخترق الموت
حياتك الملائ ، فإن الربيع نفسه سوف يبعثك مرة أخرى .
وتملأ الشذا قلقاً من البرعم وصرخ : آه ، إن الساعات تمضي ،
ولأدري حتى الآن أتى أتجه ، وأي شيء أبغي .
- أيها الشيء الصغير البسيط استمسك بشجاعتك .
إن نسيم الربيع قد سبق رغبتك ، ولن ينقضي النهار قبل أن تتم
وجودك .

وتراءى المستقبل للشذا غامضاً فصرخ يائساً : آه ، إن تراءت حياتي
خالية من أي معنى ، فمن المسؤول عن هذا الخطأ ؟
من يقدر أن يقول لي : لِمَ وجدت ؟
- أيها الشيء البسيط استمسك بشجاعتك .
إن الفجر المكتمل قريب ، حيث يمزج حياتك بالحياة الأبدية ، وحيث
تدرك أخيراً تفسير وجودك .

رباه ، إنها ماتزال طفلة .
إنها تركض حول قصرك وتلعب ، ثم تحاول أن تجعل منك أيضاً دمية
من دماها .

إنها لاتلقي بالاً الى غداورها تتراعى مشعثةً ولا إلى ثيابها المهملة
تنزلق مغبرةً ، الى الأرض .
إنها تغفوحين تخاطبها ولا تجيب البتة ، وتملس الزهرة التي تهبها لها ،
صباحاً ، من راحتها وتقع فوق التراب .
وحين تهب العاصفة ويكفهر وجه السماء ، فإنها تستيقظ ، وترمي
بدميتها أرضاً ، وتتمسك بك ، مذعورة .
إنها تخشى أن تقصر في خدمتك .
ولكنك تراقمها ، باسماً ، فيما هي تلهو .
إنك تعرفها .
هذه الطفلة الجالسة فوق التراب ، إنها عروسك المقدرة لك ، أما لعبها
فسوف يهدأ ويحور حباً عميقاً .

٦٢

هتفت قطرة الندى :
- أيتها الشمس ، أي شيء - عدا السماء - يستطيع أن يسع صورتك ؟
إنني أحلم بك ولكنني لأطمع بأن تتاح لي خدمتك .
وأضافت وهي تبكي :
- إنني أصغر من أن أحتويك ، أيتها الملكة العظيمة ، فحياتي كلها
دموع .
وأجابت الشمس :
- إنني أضيء السماء غير المحدودة ، ولكنني أستطيع أن أقدم نفسي
الى أصغر قطرة من الندى ، وهكذا ، فإنني أضحي قبساً من النور يملوك ،
وتضحى حياتك الصغيرة كأساً ضاحكة .

ليس لي ذلك الحب الذي لا يعرف الحدود ، ويعدو مستشرقاً حتفه في لحظة ، كالخمر المزبدة التي تحطم أنيتها . هب لي ذلك الندى النقي كمطر كـ
الذي يبارك الأرض العطشى ويملأ جرار البيت الفخارية .
هب لي ذلك الحب الذي يؤد أن ينفذ الى أغوار الوجود .
ثم ينساب من ثمة ، نسفاً خفياً ، في أغصان شجرة الحياة ، ليبعث
القمار والأزهار .
هب لي ذلك الحب الذي يسربل القلب بالأمن .

لقد غابت الشمس خلف الشاطئ ، الغريبي من النهر ، في قلب أدغال
الغابة .
وساق النسك الفتيان القطعان الى الحظائر ، ولما جلسوا حول النار
ليصفوا الى المعلم (غوماتا) أقبل فتى غريب وأهدى الى المعلم زهوراً
وفاكهة ، وانحنى أمامه حتى داني قدميه ، وخاطبه بصوت ناعم كأغرودة
عصفور : مولاي ، لقد قدمت اليك لتقودني الى نهج الحقيقة السامية .
إنني أدعى (ساتيا كاما) .
وقال المعلم : لتظلك البركة ، أي مذهب تعتنق يا بني فإن البرهمي
وحده هو الذي يتشوف الى الحكمة السامية .
وأجاب الفتى : إنني لا أعرف أي نحلة أنمي إليها ، سأقصد أمتي
وأستوضحها .
ولما استوفى (ساتيا كاما) كلامه ، عاد أدراجه وخاض النهر الضحل ،

ثم اتّخذ سمته نحو كوخ أمّه الصّغير الذي يقوم في طرف الصّحراء الرملية المتراامية على حدود القرية الغافية .

وكان نور المصباح النّحيل يضيء الغرفة ، وكانت أمّه منتصبّة أمام الباب تنتظر في الظّلام عودة ابنها .

وضمّت الى صدرها ولثمت شعره ، واستوضحته عن زيارته للمعلّم فسألها : ما اسم أبي يا أمّي العزيزة ؟ لقد قال لي المعلّم (غوماتا) إنّ للبرهمي وحده الحقّ في نشدان الحكمة الخالدة .

وغضّت المرأة طرفها وهمست قائلة : لقد كنتُ في صباي فقيرة ، فخدمت عدّة أسياد وقد تلقّفتك حين ولدت يا حبيبي ، ساعدا أمك (جابالا) ، أمك التي لم تحظَ بزواج قط .

وكانت أشعة الشّمس الباكّة ، تتلألأ فوق عذبات الأغصان من غابة الصّومعة . وكان المريدون ، بشعرهم المشعث المطلول برطوبة الفجر ، قد اتّخذوا مجلسهم في ظلّ الشجرة الهرمة ، قبالة معلّمهم . ومثّل (ساتيا كاما) أمامه .

وجثا أمام الحكيم حتى دانى قدميه ، ولاذ بالصمت ، فسأله المعلّم الأكبر : الى أيّ نحلة تنمي ؟

فقال : مولاي إنّني لأدري ، ولقد أجابت أمّي حين استوضحتها ذلك قائلة : إنّني خدمت عدّة أسياد في صباي وقد تلقّفتك حين ولدت ، ساعدا أمك (جابالا) ، أمك التي لم تحظَ بزواج قط .

وارتفع همسٌ شبيهٌ بطنين النحل الهائج حين يعبث بخليّته ، وثار المريدون غضباً من سفه هذا الفتى المجهول النّجار والمذهب .

ونفض المعلّم (غوماتا) من مجلسه ، وبسط للفتى ذراعيه ، ثمّ ضمّه الى صدره وقال له ، أنت أفضل البراهمة يابني ، لأنك تحمل في عطفك أنبل ارث من الحقيقة .

لعلّه يوجد في هذه المدينة بيت واحد ، يفتح بابه ، في هذا الصباح ، ويظلّ
كذلك الى الأبد . حين تلمسه شمس الشروق ، حيث تتم رسالة النور الشارد .
لقد تفتّحت الأزهار في الحدائق ، وبين وشيع الشجر ، فلعلّه يوجد ،
ثمّة قلب واحد قد ألقى فيها ، هذا الصباح ، الهبة التي ظفر بها في رحلته
منذ العصور الخالية .

أيها القلب ، اصغ . إنّ في هذا الناي تنسرب موسيقا الأزهار البرية
والأوراق المؤتلفة والأمواه المتألّنة ، تنساب موسيقا الظلال المرناة
المتجاوبة مع رفيف أجنحة التحل .
لقد نسل الناي بسمته من شفة ريفي ثمّ سلسلها في حياتي .

دوماً ، تقف أنت وحيداً بعيداً عن أغنيات المتماوجة .
إنّ موجات أنغامي تغمر قدميك ، بيد أنني لأدري كيف أصل اليهما .
إنّ ما أعزفه لك هو موسيقا نائية جداً .
إنه ألم الفراق الذي استحال الى نغم ، إنه ينساب من الناي الذي أنفخ
فيه .
إنني أنتظر الساعة التي يجوز فيها قاربك الماء . ويرسو على
الشاطئ ، حيث تمسك يدك بهذا الناي .

في هذا الصباح ، فتحت ، فجأة نافذة قلبي ، النافذة التي تراقب قلبك .
لقد تولتني الدهشة وأنا أفاجأ بالاسم الذي عرفتني به ، مسطوراً على ورقات
نيسان ، وأزاهيره .
وجعلت أنتظر صامتاً .

لقد انحسر ، في لحظة ، الستار الذي يفصل بين أناشيدي وأناشيدك .
وألقيت أن شعاع صباحك كان مفعماً بأناشيدي الخرساء التي لم أترنم
بها بعد ، وقد فكرت في أنني سأجيد تعلمها وأنا بين قدميك ، وطفقت
انتظر صامتاً .

لقد كنت في مركز قلبي ، ولهذا فإنها لم تعثر عليك قط حين هنا قلبي هانماً .
لقد تواريت أنت عن حبي وعزفت عن آخر آمالي التي واكبتها دوماً .
كنت الفرخ العميق في لهو شبابي ، وحين كنت مشغولاً بلهوي مرّ
الفرح ومضى .
لقد غيّيت لي في كل نشوة من حياتي ، غير أنني نسيت أن أغني لك .

حين ترفع مصباحك في السماء فإنه يريق نوره على وجهي ويتطامن ظلّه فوقك .
وحين أرفع مصباح الحب في قلبي ، فإن نوره ينسكب فوقك ، وأقبع
أنا ، في الظل ، وحيداً .

٧١

إيه أيتها الأمواج التي تلتهم السماء ، الأمواج المتلألئة بالنور والحياة
الدفاعة ، الأمواج التي لاتني تثب ، فرحاً في جزر ومدّ .
لقد هدهدت النجوم بها ، وانجذبت أفكار غميسة بشئ الألوان الى
الأغوار العميقة ، ثم انسربت على شواطئ الحياة .
وتسامى الميلاد والموت ، وتهاويا على إيقاعها ، وبسط عصفور البحر
الذي يرهب روجي ، جناحيه ليشدو نشوته .

٧٢

لقد هلّت الفرحة مسرعة من جميع أطراف الكون لتسوي جسمي .
لقد قبلتها أشعة السماوات ثم قبلتها حتى استفاقت الى الحياة .
إن أزاهير الصيف المولي سريعا ، قد تنهدت في أنفاسها وغنت وسوسة
المياه ، وهيمنة الرياح في حركاتها .
إن الألوان المتقدة من الغيوم والغابات قد انتالت الى حياتها ، وداعبت
موسيقا الأشياء كلها أعضائها لتمنحها إهاب الجمال .
إنها عروسي ، وقد أشعلت مصباحها في بيتي .

٧٣

إن الربيع بأوراقه وأزاهيره قد ملأ أعطافي .
فيه يطن النحل ، طوال الصباح ، وفيه تلعب الرياح وانية كسلى مع
الظلال .

وتفجّر من قلب قلبي نبعٌ شهبي .
 إنَّ عينيّ تغتسلان فيه بنشوة ، كما يفتسل الفجر في الندى ، وترتعش
 الحياة في أعضائي كلّها كأنّها أوتار المعزف المرناة .
 أما تهيم وحيداً ، يا عاشقَ أيّامي الخالدة ، على شاطئ حياتي ، حيث
 تصطبّخ الأمواج ؟
 أما ترفرف أحلامي حواليك كأنّها طيورٌ ذات أجنحة ملوّنة من النّور ؟
 أليست هذه أغانيك التي أسمع أصداءها في الأغوار المظلمة من
 كياني ؟
 من يستطيع ، غيرك ، أن ينصت لهدير الساعات العجلى التي ترنّ ،
 اليوم ، في عروقي ؟ ويصفي الى الخطأ الجذلى التي ترقص في صدري ؟
 ويسمع ضجيج الحياة الصاخبة التي تختلج في كياني كلّها ؟

٧٤

لقد أنبئت كلّ صلة لي وسدّدت ديوني كلّها ، وفتح بابي لأذهب منه ،
 واضرب في الدروب كلّها .
 إنهم يجلسون القرفصاء في زاويتهم ، ويفزلون النسيج من ساعاتهم
 الشاحبة ، إنهم يحصون نقودهم في الأرض ويهتفون لي لأعود .
 غير أنني صقلت سيفي ولبست درعي ، وأما حصاني فقد نفد صبره وهو
 يتحفّز للتقريب^(١) والعدو .
 سأمضي من ثمّ ، لأفتح مملكتي .

(١) تقريب الحصان : ركفه .

لقد كان ذلك ، يوم قدمت الى أرضك ، وأنا عريان ، لأحمل اسماً وفي
لهاتي صرخةً منتحبة .

صوتي اليوم جذلانُ ، فيما تقف أنت ، يارب ، جانباً لتفسخ لي مكاناً
أستطيع فيه أن أملاً حياتي .

وحين أزجي أناشيدي اليك كقرايينَ ، فإنني استشعر أملاً خفياً بأنَّ
الناس سوف يقبلون إليّ ويحبونني بسببها .

إنّك تحب أن تكتشف بأنني أحب هذا الكون الذي قدتني اليه .

لقد كنت أقبع ، خجلاً ، بظلّ الأمن ، أمّا الآن ، بعد أن شالت نشوة
الفرح قلبي الى قمّتها فإنني اتمسك بصخرة اضطرابها العاتية .

لقد كنت اتبذ ، وأنا وحيد ، مكاناً في بيتي الذي كنت أجده أصغر من
أن يسع زائراً واحداً ، والآن بعد أن فتح بابي بفرحة عفوية فإنني أجد ثمة
مكاناً لك وللعالم كلّهُ .

وكنت أسير حذراً معنيّاً بجسمي ، مضمخاً أطرافه بالعطر ، مزيناً إياه ،
والآن ، بعد أن رمت بي عاصفة الفرح الى التراب ، فإنني أضحك عالياً ،
وأتدحرج كالطفل على الأرض ، حتّى ألامس قدميك .

إنَّ الكونَ كُلَّهُ لك ، دوماً وأبداً .
ولأنه ليس لديك رغبة ياملكي ، فإنَّك لاتجد متعة في ثرائك .
فكأنَّ هذا الشَّراء لم يكن موجوداً قط .
لهذا ، فإنَّك تمنحني ، عبر الزمن الوئيد ، كلَّ مايخصَّك ، وتحتل من
نفسي دوماً مملكتك .
يوماً فيوماً تطلب الى قلبي شروق شمسك وتلفي حبك منحوتاً من صورة
حياتي .

لقد وهبت للطير أنغاماً ، وإنها لتبادلنك أنغامها .
لقد وهبت لي الصَّوت فحسب ، ولكن إن استنشدتني غنَّيت لك .
لقد جعلت النَّسائم خفيفة ، لتنطلق في خدمتها ، ووضعت في يدي عبناً
لا أتخفَّف منه بنفسي ، وفي النهاية ظفرت بالحرية المطلقة ، فيما أنا
أخدمك .
لقد خلقت ارضك وملأت ظلالها بألقة النور .
وعندئذ توقفت وتركتني فوق التراب ، صفر اليدين ، ليتسنى لك أن
تخلق سماءك .
إنَّك تزجي العطايا الى كل شيء في الأرض ، أمّا أنا ، فإنَّك تطلب إلي .
إنَّ حصاد حياتي ينضج في الشَّمس ، وتحت وابل المطر ، حتَّى يتيسر
لي أن أحصد ممَّا زرعت أكثر ممَّا زرعت أنت ، فيمتلئ قلبك هناء ، ياسيد
الأهراء الذهبية .

دعني أتقدم بصلاتي ، لا لأكون بمنجى من الأخطار ، ولكن لأقابلها
وجهاً لوجه دون وجل .

لا لأسأل التفريج عن ألمي ، ولكن ليكون لي الجَلَد على تحمله .
لا لأنتظر حليفاً لي في معركة الحياة ، ولكن لأنتظر العون من قوتي
نفسها .

لا لأتوسل في رعب شديد ، بغية النجاة ، ولكن لأتعَلل بالصبر حتى
أظفر بحريتي .

هيء لي ، يارب ، ألا أكون جباناً ، لا استشعر بنعمتك إلا حين أصيب
النجاح فحسب . - بل دعني أظفر بضمّة يدك في خذلاني .

لم تكن لتتعرف على نفسك حين كنت تمكث وحيداً ، والريح التي
كانت تعدو من أدنى الشاطئ إلى أقصاه لم تكن توافيك بأي نداء تائه .

لقد جنت فاستفقت أنت ، وازدهرت السماء بالأنوار .

لقد جعلتني أتمتّح في شتيت الأزاهير ، وهددتني في مهد شتيت
الأشكال . وأخفيتني في المنية ، ثم ألفتني من جديد في الحياة .

لقد جنت فوجب قلبك وترادف الألم والفرح اليك .

لقد لمستني فكانت رعشة الحب .

ولكن قسماً من الخجل ينساب في عيني ، وتنسرب في صدري رجفة

الخوف ويعتام وجهي ظلّ الكآبة ، وأبكي حين لا أستطيع رؤيتك .
ومع هذا فأنا أبلو الظماً الذي لا تنقع غُلته ، ظمأ قلبك الى نظرة مني ،
أبلو الظماً الذي ينادي على بابي ، على ترداد ضربات الشمس المشرقة .

٨١

أنت أيها الساهر ، الدهر كله ، إنك تصفي الى خفق خطواتي المقتربة .
فيما تتجمع فرحتك في سدفة الفجر ، لتتفجر من ثم في انتفاضة النور .
كلما اقتربت منك ازداد التوثب في رقصة البحر .
إنّ دنيك غصنٌ من النور يملأ راحتك ، ولكن سماءك هي في قلبي
الخفي ، ولهذا فإنّ براعمه تتفتح في يسر على حبّ خجول .

٨٢

سأهزج بإسمك ، وأنا جالسٌ وحيداً بين ظلال أفكار الصامتة .
سأهزج به غير مشفوع بكلام ، سألفظه دون سبب .
إنني شبيه بالطفل الذي ينادي أمّه مائة مرة ، وهو سعيد بأن يتأتى له
ترديد كلمة : أمّاه .

٨٣

- ١ -

أشعر بأنّ النجوم كلها تتلألأ في كياني .
إنّ الكون يجيش في حياتي كأنه السيل .

إنّ الزهور تتنوّز في كياني .
إنّ شباب الأرض والماء ، يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ، ولهات
الوجود كلّهُ يتردّد ضمن أفكارٍ كما يتردّد في ثقوب الناي .

- ٢ -

حين يغفو الكون فإنني أقدم الى بابك .
النجوم صامتةٌ ، وإنني لأفرق من أن أغني .
إنّي انتظر وأسهر حتّى يجوز طيفك شرفة الليل ثمّ انكفي ، راجعاً وقلبي
مترع .
وفي الفجر ، أغني على عذارِ الدرب .
ويقف المسافرون فجأةً لينظروا في وجهي : إنهم يحسبون أنني ناديت
كلّاً منهم باسمه .

- ٣ -

دعني قريباً منك ، منتبهاً الى رغباتك ثمّ ذرني أجبُ مملكتك ، ملبياً
نداءك .
لا تدعني أتزايل فأتهاوى وأغيب في هوة الضجر .
ولا تجعل حياتي مجدبةً بالفراغ والبطالة .
ولا تدع الشكوك تكتنفي بغبار اللذات .
ولا تتركني أضرب في دروب عديدة لأظفر بأشياء جمّة .
ولا تذّر قلبي خاضعاً لنير الكثيرين .
ولكن دع رأسي يشمخ عالياً في شجاعة وكبرياء ، بأن أضحي
خادمك .

الملاحون

أفما تأذت الى سمعك ، من بعيد ، جلبهُ الموت ؟
 وذلك النداء المنساب من أمواج النار والغيوم المسمومة ؟
 - نداء القبطان الى الملاح لينحو بالسفينة وجهة الشاطئ ، الذي لا اسم له ؟
 فإن الزمن قد تغير - الزمن الساكن على الشاطئ .
 حيث تُشرى البضاعة القديمة نفسها وتُباع في حلقة لا نهاية لها .
 حيث تتهاوى الأشياء الميتة في نضوب الحقيقة وفراغها .
 إنهم يستفيقون مرتعشين في خوف مفاجئ ، ثم يستفهمون .
 أيها الرفاق ، إلام تشير الساعة التي دقت ؟
 ومتى يوافي النهار ؟
 لقد محت الغيوم كل نجم - فمن يستطيع أن يستجلي اصبع الفجر التي
 تومي ؟
 إنهم يخفون سراعاً ، ممسكين بمجاديفهم ، هاجرين مضاجعهم .
 وتبتهل الأم وتراقب الزوج الباب .
 تمة نحيب الوداع يتعالى الى السماء ، وثمة صوت القبطان في الظلمة :
 - أيها الملاحون ، تعالوا ، فإن فترة مكوثنا في الميناء قد انقضت .
 إن شياطين الكون السود قد حطّموا سدودهم .
 ومع هذا ، أيها الملاحون ، الزموا أمكنتكم ، وداروا الألف المبارك في
 نفوسكم إلى من تشجّهون باللوم يا إخوتي ، احنوا رؤوسكم ، تلك كانت
 خطيتكم ، وكانت خطيتنا .
 إن ألقاد الغضب المؤرث في قلب الله طوال الأجيال ، وجبن الضعيف

وتحدّي القوي ونهم السّادر في الرخاء وضغينة الخائب وكبرياء العرق وإهانة الانسان لأخيه الانسان .

كلّ ذلك أحوال سلّم الرب الى عاصفة نكباء غاضبة .

فلينقسم قلب العاصفة كقشرة الثمرة الناضجة وليقذف برعوده .

إنهوا جلبة لومكم وثنائكم .

وفي هدوء الدعاء الصّامت المنعقد على جباهكم ، جدّقوا وجهة

الشّاطيء الذي لا اسم له .

لقد بلونا الشرور والخطايا كلّ يوم وعرفنا الموت .

إنّها تعبر دنيانا بضحكتها المتألّنة كالبرق ، كأنّها غيوم ساخرة .

ولكنّها توقفت ، فجأة ، فتمّت المعجزة .

واضطّر الرجال الى النهوض صارخين في وجهها

ـ إنّنا لانخشاك ، أيّتها الهولة ، إنّنا نعيش كلّ يوم في التّغلب عليك .

سنموت على إيماننا بأنّ السلم حق والخير حق وإنّ الواحد الأحد

الخالد حق .

إذا لم يكن الحي الباقي خبيثاً في قلب الموت نفسه .

وإذا لم تكن الحكمة الجدلى منبثقة من غمد الألم .

وإذا لم تمت الخطيئة من ذبوعها نفسه .

وإذا لم يتهاوى الصلف تحت عبء زينته .

فمن أين اذن يهلّ ذلك الأمل الذي يهيب بالرجال أن يهجروا بيوتهم

كأنهم النجوم التي تسعى الى انطفائها في نور الفجر ؟

تري أتذهب هدرأ قيمة دماء الشهداء ودموع الأمّهات في تراب

الأرض ، أفلا تُشري الجنّة بتمنّها ؟

وفي السّاعة التي يقطع فيها الانسان غراه الفانية ، أفلا تتجلّى له

اللانهاية آنذاك ؟

نشيد الهزيمة

لقد أمرني سيدي فيما كنت أقف على حيد الدرب بأن أغني نشيد
 الهزيمة ، فهذه هي العروس التي يتودّد لها :
 لقد أسدلت على وجهها خماراً أسوداً لتخفيه عن الناس ولكنّ جوهره
 تتلألأ في الليل على صدرها .
 إنّ النهار يهملها ، ولكنّ ليل الرب ينتظرها بمصابيح المنيرة وأزاهيره
 الرّيا بالندي .
 إنّها صامتة ، غضيف الطرف . لقد تركت دارها خلفها ، وتناهى من
 دارها أنين مع الرّيح .
 ولكنّ النجوم تغني ، نشيد الحب الخالد للوجه الذي زينه الخجل
 والألم .
 إنّ الباب قد انفسح عن الغرفة الوحيدة ، وتردّد النداء وخفق قلب الليل
 وجلاً على الموعد القادم .

غفران

إنّ الذين يسرون في دروب الكبرياء ، ويدوسون بنعالهم على الحياة
 المتواضعة ، ويغطّون خضرة الأرض الغضة بآثار أقدامهم الملوثة بالدماء .
 دعهم يارب يفرحوا ويقدموا اليك الشّاء ، فإنّ اليوم يومهم .

ولكنني أشكر لك بأن جعلت نصيبي بين البسطاء الذين يتألمون
وينوون بعبء الحكم ، ويوارون وجوههم ويكفون دموعهم في الظلام .
إن كل رعدة من ألمهم ، قد خفقت في الأعماق المستسرة من الليل ،
وكل إهانة قد قابلوها بمثل صمتك الكبير .
إن الغد هو لهؤلاء .
آه ، أيتها الشمس ، اشرقي في القلوب الدامية التي تفتح زهراً في
الصباح ، ولتقلب شعلات الكبرياء الزاهية الى رماد .

البُستاني

- الخدام : حنانيك يا ملكتي! ورفقاً بخادمك .
- الملكة : لقد انفض السامر ، وذهب خدامي كلهم ، لِمَ قدمت في هذه الساعة المتأخرة ؟
- الخدام : إن دوري يبدأ ، حين ينتهي دور الآخرين . جئت أسألك أي عمل تبقى ليقوم به خادمك الأخير ؟
- الملكة : ماذا تتوقع أن أكلِّفك به في مثل هذا الوقت المتأخر ؟
- الخدام : اجعليني بستانياً في حديقة أزهيرك .
- الملكة : يا لهذا الجنون!
- الخدام : سأتحلّى عن أي عمل آخر .
- سأرمي برماحي وسيوفي ، في التراب . لا تبعثي بي الى ساحات قصية ، ولا تطلبي اليّ فتوحات جديدة ، ولكن اجعليني بستانياً في حديقة أزهيرك .
- الملكة : وأي عمل ستنهض به ثمة ؟
- الخدام : سأقصر نفسي على خدمتك في أيام فراغك .

سأحتفظ بعشب الذرب ندياً طرياً ، حيث تمرّين صباحاً ، وحيث
تنعم قدمك في كل خطوة من خطاك ببركة الورد المتشوف إلى
الموت .

سأهزك وأنت في أرجوحة بين أغصان (السابتابارنا) فيما يسمي
القمر المبكر ، للثم ثوبك من بين فرجات الأوراق .
سأملأ السراج الذي يضيء قرب سريرك ، بزيتٍ شدي ، سأحلي
مسند قدمك بتزيينات رائعة من صباغ الصندل ومزاج الزعفران .

الملكة : وماذا ترجو من مكافأة على ذلك ؟

الخادم : أن يؤذن لي بأن أمسك بين يدي ، بجمع راحتيك الشبيهتين ببرعمين
من زهر (اللوتس) وأن أطوق معصمك ، بأساور من زهر . وأن أصبغ
أخمص قدميك بخضابٍ أحمر من أوراق (الاشوكا) وأن أمسح
عنهما بقبلاطي ما قد يعلق بهما من ذرات الغبار .

الملكة : أيها الخادم لقد استجيب دعاؤك . وستضحى بستانني حديقة
أزاهيري .

٢

إيه أيها الشاعر! إن المساء ليدنو ، وإن شعرك ليخطئه الشيب .
تري هل طرقت أسماعك وأنت في استغراقتك المنزوية ، رسالة الآخرة ؟
وقال الشاعر : إنه المساء ، وإنني لأصيح السمع ، فلعل أحداً ينادي
من القرية ، وإن يكن الوقت متأخراً .

وأجيل نظري فلعلّي أن أرى الى قلبين شابّين شاردين يلتقيان والى
زوجين من العيون المتّقدة يستجديان نغماً من الموسيقى يحطم صمّتهما
ويتحدّث إليهما .

تُرى من ذا الذي يَمُوجُ لهما ، أغانيهما العاطفية إن ظلمت أنا جالساً
على شاطئ الحياة ، أتأمل في الموت وفي ما بعد الحياة ؟
إنَّ أول نجم من نجوم السماء قد أفل .
ووهج المشعل الجنائزي ، أخذ يخبو رويداً رويداً ، على ضفة النهر
الصامت .

وأخذت بنات آوى تعوي ، في جوقه واحدة ، من فناء الدار المقفرة ،
على ضوء القمر الشاحب .

تري لو أنَّ عابر سبيل ، هجر منزله ، وقدم الى هنا ، ليتأمل الى الليل
ويصفي ، مُطرق الرأس ، الى وشوشة الظلام ، فمن ذا الذي يهمس في أذنيه
أسرار الحياة . إن أقفلت أنا أبوابي ، محاولاً تحرير ذاتي من الروابط الفانية ؟
لا يضيرني إن وخط الشيب شعري .

فأنا دوماً ، شابٌ فتى أو شيخٌ همٌّ ، كأصغر شاب وأكبر شيخ في القرية .
لبعضهم ابتسامةٌ عذبةٌ ساذجةٌ ، ولبعضهم عينٌ تبرق خيلاً . لهؤلاء
دموع تبهر ضوء النهار ، ولأولئك دموعٌ تختبئ في العتمة .
كلهم بحاجة إليَّ ، إنني لا أجد وقتاً للتفكير في ما بعد الحياة .
إن عمري هو من عمر الجميع ، فما يضيرني أن وخط الشيب شعري ؟

٣

ألقيتُ شبكتي ، صباحاً ، في البحر .
واستخرجت ، من لجة المظلم ، طُرفاً ذات شكلٍ عجيبٍ وجمالٍ
غريبٍ ، كان بعضها يتوامض كابتسامة وبعضها يتلألأ كدموع ، وبعضها
يحمّر كوجنتي عروس .
ولما إبت ، بصيد اليوم الى البيت ، كانت حبيبتني قد اتخذت مجلسها

في الحديقة ، وهي تنزع ، في فتور ، أفواف زهرة .
وجاذبني التردد ، لحظة ، ثم ازجيتُ الى قدميها ، ماظفرت به ، وظللتُ
معتصماً بالصمت .
وحذرتُ اليه نظرةً ، وقالتُ : ماهذه الأشياء الغريبة ؟ لأدري لأي شيء
تصلح .
وجعلت أفكر ، خجلاً ، مطرق الرأس ، في أنني لم أناضل قط للفوز
بها ، ولم اشتريها من السوق ، فليست بهدايا جديرة بها ، وحينئذ أخذت
أبذلها ، طوال الليل ، واحدة تلو الأخرى ، في الطريق .
وفي الصباح ، قدم مسافرون ، وجعلوا يلتقطونها ، ثم ذهبوا بها الى
بلادٍ نائية .

٤

وا أسفاه! لم بنوا بيتي على حافة الطريق المفضية الى سوق المدينة ؟
إنهم يرسون قواربهم المثقلة ، قرب أشجاري .
إنهم يقدمون ويذهبون ويهيمون وفق هواهم .
إنني أجلس وأرمتهم ، ويمضي وقتي .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، وكذلك تنقضي أيامي .
يتردد خفق خطاهم ، ليل نهار ، أمام بابي .
عشاً أصرخ : إنني لأعرفكم .
إن بعضهم لتعرفه أنا ملي ، وبعضهم ليعرفه أنفي ، ويبدو أن الدم في
عروقي يعرفهم ، وإن بعضهم لتستجليه أحلامي .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : ليدخل بيتي
من يشاء منكم ، أجل ، فليدخل .

وفي الصباح يرنُّ الناقوس في المعبد .
ويقدمون وسلالهم في أيديهم .
أقدامهم مزهرة مخضبة ، وعلى وجوههم يترقق أول شعاع من أشعة
الفجر .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : تعالوا الى
حديثي لتطفوا زهراً ، تعالوا .
ويرنُّ الناقوس ، ظهراً ، على باب القصر .
لأدري لماذا يدعون عملهم ، ويتخلفون قرب سياج حديثي .
إن الزهر المعلق بشعرهم شاحب ذابل ، وإن الأنغام في ناياتهم
مضنية .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم : إن في، أشجاري رطب .
تعالوا أيها الرفاق .
وفي الليل ، تخني الجداجد ، في الغابات
من ذا الذي يقدم ، وثيداً ، الى بابي ويقرعه في لطف ؟
إنني أرى الوجه ، في غموض ، لم تتردد أي كلمة .
ويسربل هدوء السماء كل شيء .
ليس في ميسوري أن أطرد ضيفي الصامت ، إنني أهدق الى وجهه في
الظلام ، وتمر ساعات الأحلام .

٥

أنا لا أظفر بالراحة .
أنا ظامئ ، الى الأشياء البعيدة المتال .
إن روحي تهفو ، تواقه ، الى لمس طرف المدى المظلم .

إيه أيها المجهول البعيد وراء الأفق ، ياللداء الموجه المنساب من نايك .
أنا أنسى ، أنسى دوماً أنني لأملك جناحاً لأطير ، وإنني مقيد دوماً
بهذا المكان .

إنني متقد الشوق ، يقظان ، أنا غريب في أرض عجيبة .
إن زفراك تتناهى إلي ، تهمس في أذني أماً مستحيلاً .
إن صوتك يعرفه قلبي كما لو كان قلبه .
أيها المجهول البعيد ، ياللداء الموجه المنساب من نايك!
أنا أنسى ، أنسى دوماً أنني لأعرف الطريق وأنني لأمتلك جواداً
مجنحاً .

أنا لا أظفر بالطمأنينة .
أنا شارد ، أهيم في قلبي .
في الضباب المشمس ، من الساعات الضجرة ، ما أبهى مرآك العظيم
يتجلى في زرقة السماء!
أيها المجهول البعيد ، ياللداء الموجه المنساب من نايك!
إنني أنسى ، أنسى دوماً ، أن الأبواب كلها موصدة في البيت الذي
أفزع فيه الى وحدتي .

٦

كان العصفور الأليف في قفص ، وكان العصفور الطليق في الغابة .
وهياً لهما القدر - حين أزف الوقت - أن يلتقيا .
وصرخ العصفور الطليق : آه . يا حبيبي . لننطلق طائرين الى الغابة .
وهمس عصفور القفص : تعال الى هنا ، نستمرى العيش معاً في
القفص .

وأجاب العصفور الطليق : أين المكان الذي أبسط فيه جناحي بين هذه
القضبان ؟

وهتف عصفور القفص : وأسفاه ، قد لايتأتى لي أن أعرف أتى أخط في
الفضاء .

وصرخ العصفور الطليق : يا حبيبي ، هلاً لغوت بأغاني الغابات ؟
وقال عصفور القفص : الزم جانبي ، سأعلمك أصول الإنشاد .
وهتف عصفور الغابات : لا ، لا ، لا يمكن أن تلتقن الأغاني بالتعليم .
وقال عصفور القفص : واحسرتاه ، إنني لأحذق أغاني الغابات .
إنّ حبهما يذكى الشوق ، ولكنهما لا يستطيعان البتة أن يطيرا معاً ،
جناحاً يساق جناحاً .

إنهما يتسارقان النظر ، من خلال قضبان القفص ، ويتشوقان عبثاً الى
أن يعرف الواحد منهما الآخر .

ويصق كلاهما بجناحيه ، شغفاً ، ويفغّي : تعال يا حبيبي ، اقترب منّي .
ويهتف العصفور الطليق : لأقدر ، إنني أفرق من أبواب القفص المغلقة .
ويهمس عصفور القفص : وأسفاه إنّ جناحي عاجزان ميّان .

٧

أما ، إنّ الأمير الفتى سيمر أمام بابنا ، فكيف يتيسر لي أن أعنى
بعملي ، في هذا الصباح ؟

علميني كيف أضفر شعري ، قل لي أي ثوب ينبغي أن أرتدي ؟
أمّاه ، لماذا تنظرين إليّ في دهشة ؟
أنا أعلم جيداً أنه لن يرشق بنظرة نافذتي ، وأعلم أنه سيعيب عن
ناظري ، في طريقة عين .

وَأَنْ زَفَرَاتِ نَايَه سَتْنَاهِي إِلَيَّ ، مُنْتَجِبَةً مِنْ بَعِيدٍ .
غَيْرَ أَنَّ الْأَمِيرَ الْفَتَى سَيَمُرُ ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَسَأُزَيِّنُ لِهَذِهِ اللَّحْظَةَ بِأَجْمَلِ
مَاعَنْدِي .
أُمَاهُ ، لَقَدْ مَرَّ الْأَمِيرُ الْفَتَى ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَشَمْسُ الصَّبَاحِ تَشَعُّ عَلَى
مَرْكَبَتِهِ .
وَحَسَرْتُ خُمَارِي عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ نَزَعْتُ عَقْدَ الْيَاقُوتِ مِنْ عُنُقِي وَرَمَيْتُ بِهِ
فِي طَرِيقِهِ .
أُمَاهُ لِمَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ فِي دَهْشَةٍ ؟
أَنَا أَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهُ لَمْ يَلْتَقِطْ عَقْدِي وَأَعْلَمُ أَنَّ عَقْدِي قَدْ تَحَطَّمَتْ تَحْتَ
عَجَلَاتِ مَرْكَبَتِهِ ، مَخْلُفًا بَقْعَةً حُمْرَاءَ عَلَى الثَّرَابِ ، فَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ بِالْهَدِيَّةِ الَّتِي
قَدَّمْتُ ، وَلَا مِنْ آثَرِهِ بِهَا .
غَيْرَ أَنَّ الْأَمِيرَ الْفَتَى مَرَّ ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَرَمَيْتُ فِي دَرْبِهِ بِحُلِيِّ صَدْرِي .

٨

حِينَ انْطَفَأَ السَّرَاجُ قَرَبَ سَرِيرِي ، اسْتَيْقِظْتُ مَعَ الْعَصَافِيرِ الْمُبَكَّرَةِ
وَجَلَسْتُ إِلَى جَانِبِ نَافِذَتِي الْمَشْرَعَةِ .
وَعَلَى شَعْرِي الْمَشَعَثِ ، إِكْلِيلٌ مِنَ الْوَرْدِ الْغَضِّ .
لَقَدْ أَقْبَلَ الْمَسَافِرُ الْفَتَى وَمَرَّ عَلَى الطَّرِيقِ فِي الضَّبَابِ الْنَدِيِّ مِنَ
الْفَجْرِ .
وَكَانَ عَقْدُ اللَّالِيءِ يَطُوقُ عُنُقَهُ وَأَشْعَةُ الشَّمْسِ تَتَلَأَلَأُ عَلَى تَاجِهِ ،
وَتَوَقَّفَ أَمَامَ بَابِي ، وَسَأَلَنِي فِي نَدَاءٍ لَاهِفٍ : أَيْنَ هِيَ ؟ .
وَمَعْنِي الْخَجَلُ مِنْ أَنَّ أَقُولَ لَهُ : أَنَا هِيَ ، أَيُّهَا الْمَسَافِرُ الْفَتَى ، أَنَا هِيَ .
وَحَلَّتِ الْعَتَمَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ السَّرَاجُ قَدْ أَشْعَلُ .

وجعلت أضفر شعري ، في ذهول .
لقد أقبل المسافر الفتى على مركبته في ألق الشمس الغاربة .
وكانت جياة مرغية الأصدقاء ولباسه مكسواً بالغبار .
وانتصب أمام بابي وسألني بصوت واهن : أين هي ؟
ومنعني الخجل من أن أقول له : أنا هي أيها المسافر اللاغب أنا هي .
وكان ذلك ، في ليلة من ليالي نيسان وكان السراج يضيء في
حجرتي .
وكان نسيم الجنوب يهينم ناعماً ، والبيتاء الصخابة تنام في قفصها .
وكان ثوبي ، يبدو في لون حنجرة الطاؤوس ، ومعطفي الأخضر كأنه
العشب الطري .
وجلست على الأرض ، قرب النافذة ، أرقب الطريق المقفرة .
وعبر الليل البهيم ، كنت أغغم في همس متصل : أنا هي ، أيها
المسافر اليائس ، أنا هي .

٩

حين أمضي ، ليلاً ، وحيدة الى موعد حبيبي فإن العاصفير لا تشدو ،
والرياح لا تنسم ، وتخلد البيوت على جانبي الطريق الى الصمت .
إنه خلخال الذي أضحي ثقيلاً في كل خطوة أخطوها ، وإنني لاستشعر
الخجل .
وحين أجلس الى شرفتي وأنصت لعلي أن أسمع وقع أقدامه ، فإن
الأوراق لا تتهامس على الأشجار ، ويسكن الماء في النهر ، كأنه سيف توسد
ركبتي حارس غاف .
ذاك قلبي الذي يشته وجيبه دون أن أدري كيف أجعله يهدأ .

وحين يرتعش جسدي ، ويفتر جفناي ، وتسدل السحب خمارها على
النجوم .

تلك هي الحلية التي تتواضع فوق صدري ، وتريق ألقها فلا أدري كيف أداريها .

١٠

أيتها العروس اتركي عملك وأنصتي فقد أقبل الضيف .
أتسمعين ؟ إنه يهزّ ، في رفق ، الكتيفة^(١) التي يوصد بها الباب .
حذار من أن تلعو وسوسة خلخالك ، حذار من أن تسرف خطاك في
تعجلها الى لقياء .

أيتها العروس ، ذري عملك ، فقد أقبل الضيف ، في المساء .
لا . أيتها المرأة ، ليس هو بنسمة روح ، فلا تخافي .
إنه قمر نيسان في تمامه ، إن الظلال شاحبة في فناء الدار والسماء ،
تتلاّ من علّ .

أسدلي خمارك على وجهك ، إن تعيّن عليك أن تفعل ذلك ، واحملي
السراج الى الباب ، إن استشعرت الخوف .
لا ، ليس هو بنسمة روح ، أيتها المرأة ، فلا تخافي .
لاتقولي له أيّ كلمة ، إن جاذبك الخجل ، وقفي الى جانب الباب حين
تجتمعين اليه .

وإن أزجي اليك أسنلة ، ففضّي - إذا شئت - طرفك في صمت .
لا تدعي أساورك تهزّج ، حين تدعينه يدخل والسراج في يدك .
لا تكلميه إن كنت خجلى .

(١) الكتيفة : قطعة من حديد أو خشب يفتح بها الباب .

أيتها المرأة ، ألم تنهي عملك ؟ إنصتي ، لقد قدم الضيف ، ألم تشعلي
السراج في الحظيرة ؟
ألم تهينتي سلة القربان لصلاة المساء ؟
ألم تضعي علامة السعد الحمراء على مفرق شعرك وتزينني لمقدم الليل ؟
إيه أيتها المرأة ، أسمعيني ؟ لقد قدم الضيف .
دعي عملك .

١١

تعالى كما أنت ولا تتلكني في زينتك .
إذا انحلت غديرة من غداثك ، إذا لم يكن مفرق شعرك سوياً ، إذا
كانت شرائط صدرك غير منوطة ، فلا بأس عليك .
تعالى كما أنت ولا تتلكني في زينتك .
تعالى بخطا عاجلة ، فوق العشب .
وإذا سلّ الندى شراك نعلك من قدمك ، إذا أملت حلقات خلدجارك من
قدمك الواهنة ، إذا انفرطت لآلى عقدك من سمطها ، فلا بأس عليك .
تعالى بخطا عاجلة ، فوق العشب .
ألا ترين الى السحب تغطّي السماء ؟
من بعيد ، تترأى أسراب الكركي ، وهي تهفو طائفة من شاطئ النهر
النائي ، وتستبق حبات غضبي من العاصفة فوق المرج .
القطيع الجزع يعدو الى مراحه^(١) في القرية .
ألا ترين الى السحب تغطّي السماء ؟

(١) المراح : مأوى الغنم .

عبثاً تشعلين السراج لتزيتني ، إنه يترنح ثم ينطفئ ، في الريح .
من يعلم أن جفنيك لم يكتحلا بسواد الدخان ؟ إن عينيك أكثر سواداً
من سحب الغيث .

عبثاً تشعلين السراج وإنه لينطفئ .
تعالى كما أنت ولا تشغلك زينتك .
إن لم يكن إكليلك مضموراً فمن يعنى به ؟ إذا لم يغلق سوارك فدعيه .
السماء مُرْتَدَّةٌ بالغيوم - والوقت متأخر .
تعالى كما أنت ولا تشغلك زينتك .

١٢

إن كنت تريد أن تملأى جرتك ، تزجية لفراغك . فتعالى ، آه تعالى
الى بحيرتي .

فلسوف يغمر الماء قدميك ولسوف ييوح لهما ، مثرثراً ، بسرّه .
إن ظل الغيث المقبل يمتد فوق الكشبان ، وتتطامن السحب فوق صفوف
الأشجار الخضراء كخصلات أثيثة تنحدر فوق حاجبيك .
أعرف جيداً نغم خطاك ، أنها تتجاوب مع خفقات قلبي .
تعالى ، آه تعالى الى بحيرتي ، إن كان عليك أن تملأى جرتك .
إذا كنت تستمرئين الجلوس ، في دعة وكسل وفتور لتتركى جرتك
عائمة فوق الماء ، فتعالى ، آه تعالى الى بحيرتي .

إن المنحدر المعشوشب أخضر ، والزهر الوحشي يربو كثيفاً .
سوف تغادر أفكارك عينيك السوداءوين كعصافير تهجر أعشاشها .
سوف يقع خمارك على قدميك .
تعالى ، آه تعالى الى بحيرتي ، إن كان عليك أن تجلسي في دعة وكسل .

إن كنتِ تودّين أن تنصرفي عن لعبك وتخوضي في الماء ، فتعالِي ،
تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي .
دعي معطفك الأزرق ينسبط على الشاطئ ، فإن الماء الأزرق سوف
يسرك ويخفيك .
سوف تتناول الأمواج على أطراف أصابع أقدامها لتلثم عنقك وتهمس
في أذنيك .
تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي إن كنتِ تودّين أن تخوضي في الماء .
إن كان عليك أن تبادري ، مجنونة ، إلى الموت ، تعالِي ، آه تعالِي إلى
بحيرتي .
إنها باردة عميقة لا يُسبر غورها .
إنها مظلمة كنوم بلا أحلام .
في أغوارها ، يستوي الليل والنهار ويخرس صوت الأغاني .
تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي . إن كنتِ تودّين أن تقذفي بنفسك في
الماء ، طلباً للموت .

١٣

لم أطلب شيئاً قط ، بل ظللت واقفاً ، في طرف الغابة خلف الشجرة .
وكانت عيون الفجر ماتزال مسربلة بالكآبة ، والندى يملأ الفضاء .
وكان الشذا الكسول الفاغم من العشب الندي معلقاً بالفضباب الرقيق
الممتد فوق الأرض .
في ظلّ شجرة (البانيان) كنت تحلبين ضرعي البقرة براحتيك النديتين
الرخستين كالزبدة .
وكنت واقفاً لا أريم .

ولم أنيس ببنت شفة ، وكان العصفور وحده يفرّد مختبئاً في الدغل .
وكانت شجرة العنباء (المانجو) تنثر زهورها على درب القرية .
وكانت النحللات تقدم ، الواحدة منها في أثر الأخرى وتطنّ حواليتها .
والى جانب الغدير كان باب معبد (شيفا) مفتوحاً ، وكان المتعبّد قد
بدأ تراتيله .

وكنّت تحتلين ضرعي البقرة والوعاء في جِجْرِكَ .
وظللتُ واقفاً أحمل قِدري الخاوية .
ولم أقرب منك .
واستفاقت السماء على قرع الناقوس في المعبد .
وانعقد الغبار في الطريق ، تهيجه سنابك القطيع المنقاد .
وعادت النساء من النهر ، حاملاتٍ على أردافهنّ جرّارهنّ اللاغية .
وكانت أساورك توسوس ، ورغوة اللبن تتحدّر من جرتك .
وانقضى النهار ولم أقرب منك .

١٤

كنت أسير في الدرب - ولأدري لِمَ سرت - بعد الظهيرة حين تردّد
حفيف أغصان (البامبو) في الرّيح .
وكانت الظلال المائلة ، بأذرعها المنبسطة ، تتمسّك بقدم الشعاع الهارب .
وكانت طيور (الكويل) قد برمت بأغانيها .
كنت أسير في الدرب ، ولأدري لِمَ سرت .
واستظلّ الكوخ الصغير القابع على ضفة الماء بشجرة وارفة الأغصان .
وكانت هناك ، امرأة مشغولة بعملها ، وأساورها تهزّج بأنغامٍ موسيقيةٍ ،
في ركن الغرفة .

لقد وقفت قبالة ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ وقفت .
 إن الدرب الضيقة المتعرجة تنساب في كثيرٍ من حقول (الإسفند) وكثير
 من غابات (المانجو) .
 إنها تمتد من أمام معبد القرية والسوق القائمة على مرسى النهر .
 لقد توقفت أمام ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ توقفت .
 منذ سنين عديدة مرّ يوم من أيام آذار الخافق بالأنسام .
 حين كان همس الربيع وانياً وكانت أزهار شجرة العنقاء (المانجو)
 تتهاوى على التراب .
 وكان الماء الفوار يشب ويلعق ، في مجراه ، الإناء النحاسي الموضوع
 على ضفة المرسى .
 وفكرت في ذلك اليوم من أيام آذار الخافق بالنسيم ولا أدري لِمَ فكرت
 فيه .
 كانت الظلال تتسع عمقاً والقطيع يسيل العودة الى مراحه .
 وكان النور مبرداً فوق السهول الموحشة ، وعلى الضفة كان الفلاحون
 ينتظرون الزورق .
 وانكفأت عائداً على عقبي ، في هدوء ، ولا أدري لِمَ عدت .

١٥

إنني أركض كغزال المسك^(١) وهو يعدو في ظل الغابة ، ثملاً من طيب
 ذفرته .
 الليلة هي ليلة منتصف مايس والنسيم هو نسيم الجنوب .

(١) غزال المسك : طلي ذو دم طيب الرائحة .

وأضلّ طريقي وأشرد ، وأبحث عما ليس في وسعي الظفر به ، وأظفر
بما لا أبحث عنه .

ينطلق من قلبي طيف رغبتني نفسها ثم يرقص .

ويرفرف الوهم البراق .

وأحاول الإمساك به ، في عزم ، فيفوتني ويدعني ضالاً هيماناً .

وأبحث عما ليس في وسعي الظفر به وأظفر بما لا أبحث عنه .

١٦

الأيدي ، يتشبّث بعضها ببعض ، والعيون ، ينشد بعضها بعضاً وكذلك
ابتدأت سيرة قلبينا .

تلك ليلة مقمرة من آذار وشذا الحناء مضوع في الفضاء ونائي موسدٌ
تراب الأرض مهجور ، وإكليك الزهري ناقص التنسيق .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

إنّ خمارك ذا اللون الزعفراني يسكر عيني .

إنّ إكليل الياسمين الذي تضفرينه لي يرعش قلبي كما يرعشه الشّاء .

تلك لعبة يتداولها البذل والصدّة ، والبوح والكتمان من جديد ، ويتسّق

فيها بعض الإبتسام وبعض الخجل وبعض التمنّع العذب غير المجدي .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

ليس ثمّ سرٌّ خلف الحاضر ولا سعي ناصبٍ الى المستحيل . ليس ثمّ

ظلٌّ خلف الحسن ، ولا تلمسٌ لأغوار الظلام .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

لن نهيم من جماع الكلم الى الصمت الأبدي ، لن نمدّ أيدينا في الفراغ

سعيّاً وراء أمورٍ تعزّ على الأمل .

إنّ مانهبه ومانتلقاه لجد كافر .
لم نعصر عناقيد السرور كلّها لنغني منها الألم .
إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنّه أغنية .

١٧

إنّ العصفور الأصفر يفرّد على شجرتهم ويحمل قلبي على أن يرقص
جذلاً .

إننا نعيش معاً في القرية نفسها ، تلك هي سعادتنا الوحيدة .
إنّ خروفيها المدلّين الأثريين ، يقدمان إلى فيء أشجار حديقتنا يرمان
العشب^(١) .

وإن شردا في حقل الشعير فإنني أضمتّهما بذراعي .
إنّ اسم قريننا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .
ثمّة حقل واحد ينبسط بيننا .
إنّ النحل الذي سوى خلاياه في غابتنا الصغيرة ، هفا الى غاباتهم ،
ينشد الرحيق الممسول .
إنّ الزهر المطروح من ضفاف مراسيهم يقبل عائماً فوق ماء السيل
الذي نفتسل فيه .

إنّ سلاله زهر (الكوسم) الذابل الجاف ، تأتي من حقولهم الى سوقنا .
إنّ اسم قريننا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .

(١) رمّ الخروف العشب : تناوله بقبته .

إنَّ الدرب المفضية الى بيتهم هي في الربيع فاعمةً بشذا زهر العنباء
(المانجو) .

حين يكون بذر الكتان لديهم ناضجاً في موسمه فإنَّ القنب يكون مزهراً
في حقلاً .

إنَّ النجوم التي تبسم من سقوف أكواخهم تحدرُ إلينا نظراتها المتألقة
نفسها .

إنَّ الغيث الذي يفعم صهاريجهم يريق الهناء لغاباتنا الممرعة بنبات
(الكادام) .

إنَّ اسم قريتنا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلها أما اسمها فهو (رانجانا) .

١٨

حين تغدو الأختان لتجلبا الماء ، فإنهما تقدمان الى هذا المكان
وتتبسّمان .

لابدَّ أنهما تعلمان بأنَّ شخصاً ما ، يقف خلف الأشجار ، حين تغدوان
لتجلبا الماء .

وتتهامس الأختان حين تمرّان بهذا المكان .

لابدَّ أنهما قد ألمتا بسر هذا المتواري خلف الأشجار ، حين قدمتا
لتجلبا الماء .

وتتمايل جرتاهما ، فجأةً ، ويتحدّر الماء ، حين تصلان الى هذا
المكان .

لابدَّ أنهما قد اكتشفتا أنَّ قرب إنسان واقفٍ خلف الأشجار يخفق حين
تردان الماء .

وتتبادل الأختان النظر حين تقدمان الى هنا ثم يتسلمان .
إنها ضحكة أقدامهما الرشيقة هي التي تبعث الاضطراب لدى ذلك
الواقف خلف الأشجار ، حين تغدوان لتجلبا الماء .

١٩

كنتِ تسيرين على دربٍ شاطىء النهر وكانتِ الجِرةُ المُسنَّدةُ على
ردفك مفعمةً .

لِمَ أدرتِ وجهكِ إليّ في رشاقةٍ ، ونظرتِ إليّ من خلف خِماركِ الخفاق ؟
إنّ هذه النظرة البراقة المناسبة من الظلام قد تناهت إليّ كالنسمة التي
تهفو وترعرع الماء المتفصّن ، لثمحي في الشاطىء الظليل .

لقد أقبلتِ نحوي ، كعصفور المساء الذي يجوز الغرفة المظلمة سريعاً ،
وينطلق من نافذةٍ مفتوحة الى نافذةٍ أخرى ، ثم يغيب في الليل .

لقد تواريتِ كالنجم المختفي وراء الربى ومررتِ أنا في الطريق .
ولكن ، لِمَ توقفتِ ، هنيهةً ، وأرسلتِ إليّ نظرةً من خلف خماركِ ، فيما
كنتِ تسيرين على دربٍ شاطىء النهر والجِرةُ المفعمةُ متّكئةً على ردفكِ ؟

٢٠

يوماً بعد يوم ، يأتي هو ثم يؤوب .
يا صاحبي اذهب وأعطه زهرةً من شعري .
وإن استوضحك عن مرسلها ، فحنانيك لاتقلّ له اسمي ، فإنه لا يأتي إلا
ليؤوب .

إنه يجلس فوق التراب ، تحت الشجرة .

فهلأ مهّدت له يا صاحبي هناك ، مجلساً من الزّهر وأوراقه .
عيناها حزيتان ، إنهما تفعمان قلبي بالأسى .
إنه لايفضي بما يجول في فكره ، ولكنه يأتي ثمّ يؤوب ليس غير .

٢١

ثرى لِمَ أثر الرائدُ الفتى أن يقصد بابي ، حين أسفر الفجر ؟
في كلّ مرة أدخل أوأخرج ، ألتقي به ، وتتعلّق عيناى بمحياه .
لأدري إن كان عليّ أن أتحدّث إليه أو أن ألوذ بالصمت . ثرى لِمَ أثر
أن يقصد بابي ؟
إن الليالي الغائمة من تمّوز مظلمة ، والسّماء في الخريف لطيفة
الزّرق ، وأيام الرّبيع واشية بالقلق عند هبوب ريح الجنوب .
إنه ينسج أغانيه ، دوماً ، بأنغام طليّة نديّة .
وأنكفى ، عن عملي ، وتمتلى ، عيناى بالضباب ، ثرى لِمَ أثر أن يقصد بابي ؟

٢٢

حين مرّت بي ، بخطأ عاجلة ، لامستني ذلاذل^(١) ثوبها .
وهفت من جزيرة قلبها المجهولة ، نسمة مفاجئة من نسَم الربيع الدافئة .
ومرّت بي لمسمة نسمة شاردة مرفرفة وغابت وشيكاً ، كفوف وردة
تطاير في النسيم .
ثمّ هبط على قلبي كأنه زفرة من جسدها وهمسة من قلبها .

(١) ذلاذل الثوب : أطرافه من أسفله .

لِمَ تجلسين هناك . تعبين بأساوركِ ، في دَعْوِ وكسلٍ ؟
 أملاي جرتكِ ، فقد أزف أوان عودتك الى الدار .
 لِمَ تداعبين الماء بيديك ، فيما تتلمَس نظرتكِ الطَّرْفَةَ^(١) في دَعْوِ وكسلٍ
 شخصاً يمرّ في الدرب ؟
 أملاي جرتكِ وعودي الى الدار .
 إنَّ سويغات الصِّباح تنقضي - الماء الأسود ينصب .
 الأمواج تقهقه وتتهامس في دَعْوِ وكسلٍ .
 وتجمعت الغيوم الشاردة ، في أفق السماء ، هناك ، على نشرٍ من الأرض .
 إنها تتمهل وتنظر الى محياك ثم تبتسم في دَعْوِ وكسلٍ .
 أملاي جرتكِ وعودي الى الدار .

يارفيقتي ، لاتحتفظي لنفسكِ بسرِّ قلبك .
 أفضي به إليّ ، إليّ وحدي ، خفيةً .
 أنت يا من تبسّمين ، في رقّة ، همسي لي بسرِّكِ ، في لين ، فإن قلبي
 وحده ، لا أذني ، هو الذي سيسمعك .
 الليل عميقٌ ، والدار صامتةٌ ، وأعشاش العصافير مسريلةٌ بالنعاس .
 اذكري لي من خلال عبراتكِ المترددة ، من خلال بسماطكِ المضطربة ،
 من خلال خجلِك العذب وأساك ، اذكري لي سرِّ قلبك .

(١) الطرفة : المتقلبة الملول .

- تعال إلينا أيها الفتى ، قل لنا ، لِمَ تبدو عيناك ممتلئتين بالجنون ؟
 - لأدري أيّ خمر من خمور الخشخاش البري حسوتُ حتى امتلأت
 عيناى بهذا الجنون .
 - آه . يالللخزي!
 - حسنٌ ، بعض الناس عاقلٌ ، وبعضهم مجنونٌ ، بعض الناس متبصّرٌ
 وبعضهم غافلٌ ، ثمة عيونٌ تبتسم وعيونٌ تبكي ، أمّا عيناى فملينتان بالجنون .
 - أيها الفتى لِمَ تقف ، هادئاً ، في ظلّ شجرة ؟
 - إنّ قدمي واهتتان من عبء قلبي ، لذا أمكث هادئاً في الظل .
 - آه . يالللخزي!
 - بعض الناس يمضي في سبيله ، وبعضهم يتمهل ، بعض الناس حرٌ
 وبعضهم مقيدٌ ، أمّا قدماي فواهتان من عبء قلبي .

- إنّ كلّ ماتمنحه يداك السخيتان ، ألقاه ولا أرجو مزيداً .
 - أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع . إنك تبغي كلّ
 مايملكه المرء .
 - إن حزت تلك الوردة الضائعة فسأضعها فوق قلبي .
 - وإذا كان فيها شوك ؟
 - فإنني سأتحمله .
 - أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع ، إنك تبغي كلّ
 مايملكه المرء .

- إن شخصت عينك العاشقتان إلى وجهي ، مرة ، فإنهما قد تجعلان حياتي عذبة بعد الموت .
 - وإذا كانت نظراتي قاسية ؟
 - فإني سأحتفظ بها منفرزة في قلبي .
 - أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع ، إنك تبغي كل ما يملكه المرء .

٢٧

- آمن بالحب ولو كان مصدره للألم ، ولا تغلق قلبك .
 لا . أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
 - يا حبيبي ، لم يخلق القلب إلا ليهب نفسه مع دمة وأغنية .
 - أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
 - إن الفرحة وانية كقطرة من ندى ، إنها تموت حين تضحك ولكن الحزن عنيفٌ عنيد ، دع الحب المعني يستيقظ في عينيك .
 - أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
 - إن براعم اللوتس تؤثر أن تفتح في أشعة الشمس ثم تموت على أن تحيا براعم مغلقة في شتاء أبدي غائم .
 - أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

٢٨

إن عينيك المتسائلتين حسيرتان ، إنهما تشوفان إلى اكتناء فكري .
 كالقمر الذي يتشوف إلى أن يسبر البحر .

لقد نفضت أمام عينيك حياتي كلها ، من مبدأها الى منتهاها ، دون أن
أخفي عنك شيئاً ولهذا فأنت لا تعرفيني .
لو كانت حياتي جوهرةً لحطمتها مائة قطعة ونظمتها في سمط ، وجعلت
منها عقداً يحيط بجيدك .
لو كانت حياتي زهرةً صغيرةً عذبةً ، لقطفتها من غصنها لأنوط بها
شعرك .
ولكن حياتي قلباً ، يا حبيبي ، فأين حدودها وأين غورها ؟
إنك تجهلين حدود هذه المملكة ، ومع ذلك ، فأنت ملكتها .
لو كان قلبي لذّةً عابرةً لرأيتك ينور في بسمة هنيئة ، ولأتسق لك أن
تريه وتقرأيه في لحظة واحدة .
لو كان قلبي ألماً لذاب في دموع صافية ، عاكساً سرّه العميق دون أن
ينبس ببنت شفة .
ولكن قلبي حب يا حبيبي .
إن لذته وألمه لاحداً لهما ، إن رغبته وغناه أبديان .
إنه قريب منك ، قرب حياتك منك ، ولكنك لن تستطيعي معرفته كلّهُ
أبداً .

٢٩

حدثني يا حبيبي ، قل لي الكلمات التي كنت تغنيها . الليل داجٍ
والنجوم تائهة بين الغيوم ، الريح تزفر عبر الأوراق .
سوف أحل ضفائري ، سوف يلقي معطفي الأزرق كما يلقي الليل .
سوف أشد رأسك الى صدري ، وهناك في العزلة الناعمة سوف أهمس
لقلبك وأغض طرفي وأصفي ، لن أنظر الى وجهك .

وحين تنفذ كلماتك ، سوف نمكث صامتين هادئين ، سوف تهمس
الأشجار وحدها في الظلمة الداجية .
سوف يشحب الليل ، ويولد النهار ، سوف ينظر واحدنا الى عيني
صاحبه ، وسوف نمضي في دربنا المفترقين .
حدثني يا حبيبي ، قل لي الكلمات التي كنت تغنيها .

٣٠

أنتِ سحابة السماء التي تطوف بسماء أحلامي .
إنني أصورك وأسويك وفق رغبة حبي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي التي لا نهاية لها .
إن قدميك مخضبتان برغبة قلبي المتأججة ، يامن تلتقط أناشيد
غروبي .
إن شفتيك مرتان حلوتان من طعم خمر ألمي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الموحشة .
بظل شففي سودت عينيك ، أنت يا وهم نظرتي العميقة لقد أمسكت
بك وأحطت بك بشباك موسيقي ، يا حبيبتي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الخالدة .

٣١

إن قلبي ، عصفور البرية ، قد وجد سماءه في عينيك .
إنهما مهد الصباح ، إنهما مملكة النجوم .
إن أناشيدي تهيم في أغوارهما .

دعيني أرفرف في هذه السماء ، في مداها الرحيب المقفر .
دعيني أشق غيومها وأبسط جناحي على أشعة شمسها .

٣٢

قل لي يا حبيبي ، أصحيح كل هذا ، أصحيح كل هذا ؟
إن الغيوم المدلهمة في صدرك ، تعصف بجوابها حين يومض بريق
هاتين العينين .

أصحيح أن شفتي عذبتان كالبرعم المتفتح من الحب الواعي الأول ؟
أنسري ذكريات شهور مايس الخوالي ، في أوصالي ؟
أختلج الأرض كالمعزف بالأغاني على لمسة قدمي ؟
أصحيح أن قطرات الندى تنهمر من مآقي الليل حين أظهر ، وأن شعاع
الصباح يسعد حين يلف جسمي ؟
أصحيح ، أصحيح ، أن حبك قد رحل وحده ، عبر الأجيال والدنى باحثاً عني ؟
وأنت حين تعثر علي أخيراً فإن رغبتك الكبرى تستروح الأمن في
كلماتي الرقيقة ، في عيني ، في شفتي ، في شعري المنسدل ؟
قل لي يا حبيبي ، أصحيح أن سرّ اللانهاية مكتوب على جبينني ؟

٣٣

أحبك يا حبيبي ، اغفر لي حبي ، يا حبيبي .
لقد تلقتني عصفوراً ضالاً .
ولما اهتز قلبي ، انحسر قناعه وبدا عارياً ، غطه يا حبيبي ، في رفق ،
واعذرني يا حبيبي .

إن كنت لاتستطيع أن تحبني ، فاعذرُ ألمي . لاتنظر إلي شزراً ، من بعيد .
 سوف أعود وأنتبذ ركني وأقع في الظلام .
 سوف أعطي بكلتا يدي ، عاري الكشيف .
 نحّ وجهك عني ، يا حبيبي واعدزُ أساي .
 إن كنت تحبني ، يا حبيبي ، فاعذرُ فرحتي .
 وحين ينحرف قلبي بتيار السعادة فلا تبتسم لاستسلامي المحفوف بالخطر .
 حين أجلس على عرشي وأحكمك بحبي الطأغي .
 وحين أبذل لك ، كربةً كريمةً ، أفضالي ، فتحمل كبريائي يا حبيبي
 واعدزُ فرحتي .

٣٤

لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .
 لقد سهرت طوال الليل ، وعيناي الآن مثقلتان بالنعاس .
 أخشى أن أفقدك ، وأنا مستغرقة في النوم .
 لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .
 إنني أنهض وأمدّ يدي لألمسك وأسائل ذاتي : تراه حليماً ؟
 أني لي أن أجمع قدميك الى قلبي وأضمّهما الى صدري .
 لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .

٣٥

خشية ألا أعرفك ، في يسر ، فإنك تعمدين الى اللعب معي .
 إنك تعشين بصري ، ببريق ضحكك ، لتواري دموعك .

أنا أعرف ، أعرف حيلتك .
 إنَّك لاتفوهين البتة بالكلمة التي ترغبين في قولها .
 جُشِيَّةٌ أَلَّا أَقْدَرَكَ ، فَإِنَّكَ تتحاشينني بألف سبيل .
 جُشِيَّةٌ أَنْ أَخْلُطَكَ بِجَمْعِ النَّاسِ فَإِنَّكَ تُوْثِرِينَ العزلة .
 أنا أعرف حيلتك .
 إنَّكَ لاتسلكين البتة الدربَ الذي تودَّين سلوكها .
 إنَّ مطلبك أكبرُ من مطلب الآخرين ولهذا فَإِنَّكَ صامتة .
 وفي غفلةٍ لعوب ، تتجنَّبين عطايائي .
 أنا أعرف ، أعرف حيلتك .
 إنَّكَ لاتأخذين البتة ماتودَّين الحصول عليه .

٣٦

لقد همسَ : « يا حبيبتي ارفعي طرفك إليَّ »
 وأنتبه ، في عنفٍ ، ثم قلت له : « امضي » ولكنه لم يرم من مكانه .
 ووقف قبالي وأمسك براحتي ، فقلت له : « دعني » ولكنه لم يذهب .
 ودانى وجهه من أذني ، وخالسته النظرَ ثم قلت له : « واخجلتاه » ، بيدَ
 أنه لم يتحرك .
 ولأمسست شفتاه خدي ، فارتعشتُ وقلت له : « إنَّكَ تتجرأ كثيراً » غير
 أنه لم يشعر بالخجل .
 وعلَّق زهرة بشعري فقلت له : « لا جدوى من ذلك » ولكنه ظل جامداً .
 وتناول عقد الزهر من عنقي ومضى . إنني أبكي وأسائل قلبي : لِمَ
 لا يعود ؟

أتريدين أن تطوقني عنقي بمعدتك المصفور من الزهر الغضن أيتها
الجميلة ؟

ولكن ، عليك أن تعلمي أن العقد الوحيد الذي صفرته معدة لكثيرات ،
معدة للواتي يتراءين في ألق النور ، لمن يقمن في بقاع بكر ، لمن يعشن في
أغاني الشعراء .

لقد فات الأوان في أن تستبدلي بقلبك قلبي .
ذاك زمان ، كانت فيه حياتي شبيهة ببرعم قد اختزن شذاه كله في قلبه .
أما الآن فقد تبدد بعيداً في كل اتجاه .
ترى من يؤتي نعمة جنيته وحبسه في برعمه من جديد ؟
إن قلبي ليس لي ، لأهبه لواحدة فحسب ، فقد نالته الكثيرات .

ياحبيبي لقد سلف زمان شرع فيه شاعرك بنظم ملحمة كبيرة .
وأسفاه! لم أكن متبصراً قط ، فقد التقت بخلاخيلك الهازجة واستشرفت
ثمة نهايتها .

ثم تفتطرت الى مقاطع من الأغاني وتمددت ، مبعثرة ، حول قدميك .
وجعلت سفينتي المشحونة بقصص الحرب القديمة تهتز على قهقهة الأمواج ،
وابتللت بالدموع ثم غاصت في الأعماق .
ياحبيبي ، عليك أن تحيلي من أجلي ، هذه الخسارة الى مغنم .
وإن خابت تعلاتي في مجده خالد اثر موتي ، فدعيني أكن خالداً في حياتي .
حينذاك لن أنتحب على خسارتي ولن أعاتبك أبداً .

حاولت ، طوال الصباح ، أن أصفر طوقاً من الزهر ، بيد أن الزهرات
كانت تزلق من يدي ثم تنهاوى .
وكنت جالسةً ، هناك ، تنظرين إليّ ، خفيةً ، من فوق عينيك
الضارعتين .

سلي هاتين العينين المربدتين بالمكر : من كان المخطئ ؟
أحاول أن أترنم بأغنية ، ولكن عثاً أحاول .
وترتعش على شفتيك ابتسامة خفية ، سليها سبب خيبتني .
اطلبي إلى شفتيك الباسمتين أن تقولاً حانثتين ، كيف ضلّ صوتي نفسه
في الصمت كأنه نحلة سكرى تتغلغل في زهرة اللوتس .
ها هو ذا المساء . لقد أزف الوقت الذي تغلق فيه الزهور أفوافها .
دعيني أجلس الى جانبك ، واطلبي إلى شفتي أن تستوفيا العمل الذي
يمكن أن يتم في صمت وفي نور النجوم الشاحب .

تفررف ، في عيتيك ، ابتسامة مستريبة حين أقدم اليك لأودعك .
وإنه ليتسق لي ذلك ، أغلب الأحيان ، الى حدّ صوت فيه تحسبين أنني
بمسيل المجيء قريباً .
وفي الحق ، إنه ليجاذب الشك نفسه خاطري .
فإن أيام الربيع ، تعود موسماً بعد موسم ، والقمر يغادرنا ليوافينا
بزيارة أخرى ، والزهر يعود فينور على أغصانه ، عاماً بعد عام ، مثلما
أغادرك ، لأعود اليك من جديد .

ولكن استمسيكي بهذا الوهم ، لحظة ، ولاتنبذيه في تسرعٍ قاسٍ .
حين أقول لك إنني سأغادرك الى الأبد ، فتقبلي قلبي على أنه حق ،
ودعي ضباباً يغمي هنيهة ، على هدب عينيك الأسود المرید .
ثم ابتسمي ، في مكر ، بقدر ما يحلو لك ، حين أعود من جديد .

٤١

إنني أتشوف إلى أن أردد لك أعماق الكلمات التي ينبغي أن أقولها
لك ، ولكني لا أجرؤ على ذلك مخافة أن تضحكي مني .
لهذا فإنني أضحك من نفسي ، وأنفض سري ، دعابةً ومزاحاً .
وأستخف بالمي لئلا تستخفي به أنت .
إنني لأصبو الى أن أردد لك أصدق الكلمات التي ينبغي أن أقولها لك ،
ولكنني لا أجرؤ على ذلك ، خشيةً ألا تؤمني بي .
لهذا فإنني أوشيه بالكذب ، ذاكرةً غير ما أفكر فيه .
إنني أدع ألمي يبدو مستحيلاً لئلا تريه أنت مستحيلاً .
إنني أتوق إلى أن ألهج بأثمن الكلمات التي يتعين علي أن أقولها لك ،
ولكنني لا أجرؤ على ذلك ، خشيةً ألا أحظى بما يعدل قيمتها .
لهذا فإنني أزجي اليك أسماء قاسيةً وأزهي بقوتي العاتية .
وأؤلمك خشيةً ألا تعرفني أي ألم .
إنني لأتمنى أن ألزم جانبك صامتاً ، ولكنني لا أجرؤ لئلا تخون شفتاي
قلبي .

لهذا فإنني أهذر وأثرثر ، في هيئةٍ ، موارياً قلبي خلف كلماتي .
وأفسو ، في عنفٍ ، على ألمي ، لئلا تقابليه أنت بالقسوة .
إنني لأرجو أن أبتعد عنك ، ولكنني لا أجرؤ خشيةً أن تري الى جبني .

لهذا فإنني أقدم الى مجلسك ، شامخ الرأس ، غير مكتثر بشي .
إن نظراتك النافذة المتصلة المرسلّة من عينيك تجدد ألمي دوماً .

٤٢

إيه أيها المجنون ، أيها السكران الفاتن .
إن فتحت ، بركلة من قدمك ، أبوابك ، واصطنعت الجنون أمام الناس .
إن فرغت محفظتك ، في ليلة واحدة ، وفرقت أصابعك للتبصر هائلاً .
إن سلكت دروباً غريبة ، ولهوت بالأشياء العقيمة ، دون عقل وبصيرة .
إن نصبت شراعتك في مهبّ العاصفة ، لتحطم دقة سفينتك .
إن فعلت ذلك كله ، فإنني ألحق بك أيها الرفيق وأسكر وأتبع معك
الشيطان .

لقد أضعت أيامي وليالي في صحبة الجيران العقلاء الشرفاء .
إن المعرفة الواسعة قد شيّبت شعري ، والسهر الطويل قد جعل نظري
قاتماً .

لقد سلخت أعواماً مديدة ، في التنقيب على شوارد الأشياء وجمعها .
فلأسحق هذه الأشياء ، ولأرقص فوقها ولأقذف بها كلها للرياح .
فإن منتهى السداد هو أن أسكر وأتبع الشيطان .
دع وساوس الضمير الملتوية كلها تمحى ، وذرنى أضلّ طريقي بانساً .
لتجرفني جذبة من دوار وحشي ولترم بي بعيداً عن مراسي .
إن العالم أهل بالشرفاء ، وبالعاملين النافعين الأذكاء من الناس .
ثمة رجال يعدّون ، في يسر ، في المقدمة ، ورجال جديرون بأن يلوهم .
فليكونوا سعداء نافعين ، ولأكن أنا مجنوناً نافل النفع .
أنا أعلم أن نهاية كل سعي هي أن أسكر وأتبع الشيطان .

إنني أقسم بأن أتخلّى ، منذ الآن ، عن أي مطلب في منصب شريفٍ لائق .
 إنني أهجر اعتدادي بالمعرفة ، وبتمييزي للخطأ والصواب .
 سوف أحطم وعاء ذكرياتي . مبدداً آخر قطرة من الدموع .
 سوف أغوص في زبد الخمر الحمراء ، وأشعشع فيه ضحكتي .
 أمّا مظاهر التهذيب والوقار فلسوف أمزقها شرّ ممزق .
 سوف أقسم يميناً غموساً بأن أصبح تافهاً سكراناً وبأن أتبع الشيطان .

٤٣

لا ، يارفاقي ، لن أصبح ناسكاً أبداً ، في وسعكم أن ترووا ذلك عني .
 لن أكون ناسكاً أبداً ، إن لم تتمن هي نفس ما أتمنى .
 لقد آليت ، في عزم ، ألا أكون ناسكاً أبداً ، إن لم يتأت لي أن أجد
 ملاذاً ظليلاً وصاحباً في زهدي .
 لا يارفاقي ، لن أهجر أبداً مسكني وبيتي . وأفزع الى الغابة الموحشة ،
 إن لم تتجاوب ، في ظلي صداها ضحكةً قريبة سعيدة ، وإن لم تجذب فيها
 الريح ذيل معطف زعفراني اللون ، وإن لم يضح صمتها ، بالهمس الرقيق ،
 أكثر عمقاً .
 أجل ، لن أصبح ناسكاً أبداً .

٤٤

اصفح ياسيدي الكريم ، عن هذين الأثمين ، إن رياح الربيع ، تهب
 الآن نكباء عاصفة ، سافية الغبار والأوراق الميتة ، جارقة معها دروسك كلها .
 لاتقل ياأبي إن الحياة باطلة كلها .

لقد أصبحنا من أجل هدنة عقدت ذات مرة مع الموت ومن أجل
سويغات عاطرة ، أصبحنا كلانا خالدين .

وإن قدم جيش الملك نفسه ، وانقصر علينا في ضراوة ، فلسوف نكتفي
بأن نهز رؤوسنا ، في أسي ، ونقول : « أيها الإخوان لقد رنقتم صنفو راحتنا ،
إن كان عليكم أن تستأنفوا هذا اللعب الصاخب ، فاذهبوا بعيداً وقعقوا ،
ثمة ، بأسلجتكم ، فمن أجل لحظات سائحة فحسب أصبحنا نحن خالدين » .
وإن أقبل بعض الرفاق وأحاطوا بنا فلسوف ننحني لهم ، في تواضع ،
ونقول : « إن هذه الثروة الكبيرة ، تضعنا في مأزق حرج ، وحيث نقيم في
السّماء التي لانهاية لها ، فإن مكاننا فيها ضئيل ، إن الزهر ينور بكثرة في
الربيع ، وأجنحة النحل الذّووب يلامس بعضها بعضاً ، إن سماءنا الصغيرة ،
حيث نقيم ، وحدنا ، كلانا ، نحن الخالدين ، هي سماء ضيقة دون
جدوى » .

٤٥

أيها الضيوف الطاعنون الذين سوف يشتتهم الله ويعفي آثار خطاهم
كلها .

ضعوا على صدوركم وأنتم تبسمون ، كل ما هو سهل وبسيط ودان .
اليوم هو عيد الأشباح التي لاتعرف متى تموت .
دعوا ضحككم تترقق جذلاً لامعنى لها كأنها ألق النور يحبو فوق
الماء الجعد .

دعوا حياتكم ترقص ، خفيفة ، على شاطئ الزّمن كأنها قطرة الندى
المنسربة على حروف الورقة .
أريقوا من أوتار معزفكم ، أنغاماً تأتلف في أوزان عابرة .

لقد تركتني ، ومضيت في طريقك .
كنت أحسب أنني سوف أبكيك ، وأرصد قلبي بصورتك المنفردة
المغزولة من أغنية ذهبية .

وأسفاه ، يا لنكد طالعي ، إن الزمن قصير .
إن الشباب يزوي عاماً بعد عام ، وأيام الربيع زائلة ، والزهر الغض
يموت من لا شيء ، والحكيم يقول لي : « إن الحياة ليست سوى قطرة من
ندى فوق ورقة لوتس » .

أينبغي أن أهمل كل هذا لأتطلع إلى من تخلت عني ؟ لعل هذا أن يكون
قاسياً جنونياً ، فإن الزمن قصير .

تعالى باليالي الممطرة يتردد فيها خفق الأقدام ، وابتسم يا خريفي
الذهبي ، تعال يانيسان المتمهل ، يامن يوزع قبلاته بعيداً .
تعال أنت ، وأنت أيضاً .

يا أحبتي إننا جميعاً قانون ، أمن الحكمة أن يحطم المرء قلبه من أجل
تلك التي استأثرت بقلبها ومضت ؟ إن الزمن قصير .
إنه لي طيب لي أن أنتبذ ركناً ، لأحلم وأنظم الشعر مردداً : إنك دنياء
كلها .

إنها لبطولة أن يعانق المرء ألمه ، وأن يعتزم ألا يسلو أبداً .
ولكن وجهاً ناضراً يرامق بابي ويرفع طرفه إلى عيني .
لأملك سوى أن أرقأ دمعني ، وأغير نغم أغنيتي .
إن الزمن قصير .

٤٧

إذا كان يحدث لك ذلك ، فلسوف أتوقّف عن الغناء .
 إذا جعلت نظرتي قلبك يخفق فلسوف أحول عيني عن وجهك .
 إذا ارتفعت على حين غرة ، وأنت تسيرين فلسوف أتنحى وأتخذ سمتي
 في طريق أخرى .
 إذا كنت أريكتك وأنت تنسقين الزهر فلسوف أعزف عن حديقتك
 المقفرة .
 إذا هاج زورقي ماء النهر فماج وأزبد ، فلن أجدف صوب شاطئك .

٤٨

خلّصيني يا حبيبتي من قيود رقّتك ولا تهرفي مزيداً من خمر قبلاتك .
 إنّ هذا الدخان المنمقد من البحّور يهصر قلبي .
 افتحي الأبواب ، ودعي نور الفجر يملأ الأرجاء .
 إنني ضائع في ذاتك ، مغطى بين طيّات مداعباتك .
 خلّصيني من سحر رُقاك ، وردّي لي فتوتي ، أقدم اليك قلبي المحرّر .

٤٩

وأمسك براحتيها ، وأضمّها الى صدري .
 وأحاول أن أملأ ذراعي بملاحتها وأجني ابتسامتها الحلوة العذبة
 بقبلاتي وأنهل نظراتها القاتمة بعيني .
 آه! أين منّي هذا كلّهُ ، من يستطيع أن يسبر زرقة السّماء ؟

وأحاول أن أقبض على الجمال ولكنه يفلت مني ، تاركاً بين يدي جسده
وحده .

كيف يستطيع الجسد أن يمس الزهرة التي تقدر الروح وحدها أن
تمسها ؟

٥٠

يا حبيبي ، إن قلبي يتوق ، ليل نهار ، الى لقائك الى لقاء شببي بالموت
الضاري .

اجرفني بعيداً ، كما تجرف العاصفة ، وخذي كل ما أملك ، وحطمي
نومي واجني أحلامي وانتهي مني دنياي .

فلنصبح بهذا الاكتساح ، بهذا السلب ، سلب الروح ، كلاً واحداً من
الجمال .

وأسفاه إن رغبتي عبثُ كلها ، أين ذاك الأمل في الاتحاد ، فيما عدا
الاتحاد بك يارب ؟ .

٥١

أنه أغنيك الأخيرة ولنمض .

انس هذه الليلة . عمن تراني أبحث ، لأضمه بين ذراعي . حين ينجاب
الظلام ؟ فالأحلام لا يمكن أن تؤسر .

إن يدي التواقين تشدان الفراغ إلى قلبي ، وتجرحان صدري .

- لِمَ انطفأ المصباح ؟
- لقد أخطته بمعطفي . ليكون بمنجى من الريح ، ولهذا فقد انطفأ المصباح .
- لِمَ ذوت الزهرة ؟
- لقد شدتها الى قلبي ، في شغل قلقي ، ولهذا فقد ذوت الزهرة .
- لِمَ نضب النهر ؟
- لقد وضعت سدّاً في مجراه لأفيد منه وحدي ، ولهذا فقد نضب النهر .
- لِمَ انقطع وتر المعزف ؟
- لقد حاولت أن أضرب عليه نغمّاً أعلى ممّا تطيقه قدرته ، ولهذا فقد انقطع وتر المعزف .

- لماذا تجعليني أستشعر الخجل ، بنظرة منك ؟
- فلم أقدم اليك مستجدياً .
- ولقد وقفت - لأنفق الوقت ليس غير - في نهاية فناء دارك ، خلف وشيع الحديقة .
- لماذا تجعليني ، بنظرة منك ، أستشعر الخجل ؟
- لم أقطف أيّ زهرة من حديقتك ، ولم أجنّ أيّ ثمرة .
- ولكنني لذت ، في تواضع ، بظلّ الدرب حيث يكون في وسع أيّ مسافر غريب أن يقف .
- لم أقطف أيّ زهرة .

أجل إنّ قدمي قد كلّتا وكان شؤبوب المطر يسحّ .
وكانت الرياح تعول بين أغصان البامبو المصطفقة .
وكانت السحب تسري في مضطرب السماء كأنها فرقة جيش تتقهقر
مغلوبة .

إنّ قدمي قد كلّتا .
لأدري ما الذي تفكرين في شأني ، ولأدري من كنت تنتظرين على
بابك .

وكان ألق النور يبهّر عينيك المترقبتين .
كيف كان في ميسوري أن أعرف أنك كنت ترينني ، حيث اتخذت
مجلسي في الظلّة ؟
لأدري ما الذي تفكرين في شأني ؟
لقد تصرّم النهار وتوقّف المطر فترة .
وأغادر ظلّ الشجرة القائمة في طرف حديقتك وأترك مجلسي على
العشب .

لقد خيم الظلام ، فأغلقي بابك ، إنني أستأنف السير .
لقد تصرّم النهار . .

٥٤

الى أين تهرول ، حاملاً سلتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد آب المشترون جميعاً بأحمالهم الى بيوتهم ، والقمر يتسامى فوق
أشجار القرية .

كانت أصدااء الأصوات المنادية فوق الزورق ، تعدو عبر الماء القاتم .
وتتناهى الى الغيضة النائية ، حيث يرقد البط الوحشي .

الى أين تهرول ، حاملاً سلتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد أغمضت أنامل النوم عيون الأرض .
وغلف الصمت أعشاش الغربان ، وانطفأت همسات أوراق البامبو .
وبسط الحراثون ، غبّ عودتهم من حقولهم حُصَرهم ، على فناء
البيوت .
الى أين تهرول ، حاملاً سلتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟

٥٥

كان الوقت ظهراً ، حين مضيت .
وكانت الشمس متقدمة في السماء .
وكنت قد أنهيت عملي ، وجلست ، وحيدة ، في شرفتي ، حين
مضيت ، وكانت لفحات متقلبة تقبل ، مغرلةً بأطيابٍ مختلفة من الحقول
البعيدة .
وكانت الحمامات لاتني تهدل في الظل ، وشرعت نحلةً عائدةً بغرفتي
ترسل في طينها ، وتورد أخبار الحقول البعيدة .
وكانت القرية مستغرقة في النوم ، في قيظ الظهيرة ، وكانت الطريق
مقفرة .
وكان حفيف الأوراق يعلو في هبات مفاجئة ثم يمحى .
وأخذت أجيل نظري في السماء ، وأغزل في زرقتها حروف اسم معروف
لدي ، فيما كانت القرية تفي ، إلى النوم ، في قيظ الظهيرة .
لقد نسيت أن أضفر شعري ، وكان النسيم العليل يعبث به فوق خدي .
وكان التهر يعدو مطمئناً الى جانب شاطئه الظليل .
وكانت الغيوم البيضاء الكسلى ، ساكنة .

لقد نسيت أن أضفر شعري .
كان الوقت ظهراً حين مضيت .
وكان تراب الطريق ساخناً ، وكانت الحقول لاهثة .
وكانت الحمام تهدل بين الأوراق الكثيفة .
وكنت وحيدة في شرفتي ، حين مضيت .

٥٦

بين رفيقات لي كثيرات ، كنت وحيدة منصرفه الى أعمال البيت اليومية الغامضة .

لم اخترتني ، فأخرجتني من الملاذ الرطب ، ملاذ حياتنا المشتركة ؟
إن الحب المكتوم لحب مقدس ، إنه يتلألأ كجوهرة ، في غيب القلب
الخفي ويبدو على نور النهار الفاضح ، قاتماً جديراً بالشفقة .
آه لقد مزقت شغاف قلبي ، وجررت حبي إلى بهرة الساحة المنفسحة ،
محطماً الى الأبد ، ركنه الظليل ، حيث كان يوارى عشه .
وتظّل النساء الأخريات كما هنّ دوماً .

لم ينفذ إنسان الى أعماق ذاتهن وإنهن ليجهلن أنفسهن سرهن .
إنهن يبتسمن في رقة ، يبكين ويثرثرن ويعملن ، ويقصدن المعبد
ويشعلن مصابيحهن ويجلبن الماء من النهر .
كنت أرجو لحبي الخلاص من خجله وهو يرتعش وليس ثم من يحميه ،
بيد أنك جعلت تشيح وجهك عني .
أجل إن الطريق تمتد لاحبة أمامك ، ولكنك قطعت سبيل عودتي
وتركتني عريانة أمام الناس ، تحديق إلي عيونهم ، ليل ، نهار .

إيه أيتها الدنيا لقد قطفت وردتك .
 وضممتها الى قلبي فوخزتني شوكتها .
 ولما جنح النهار الى الزوال ، وامتدت العتمة ، ألفت الورد ذائبة ،
 بيد أن ألم وخزتها ظلّ باقياً .
 إيه أيتها الدنيا ، سوف يوافيك الورد بشذاه وعنفوانه .
 ولكن أوان قطف الورد الذي كنت أتحيته قد فاتني ، وفي الليل الحالكة ،
 لم أعد أظفر بوردة فيما عدا ألم وخزتها الباقي .

ذات صباح ، جاءني ، في حديقة الزهر ، طفلة عمياء ، وقدمت الي
 عقداً من الزهر فوق ورقة لوتس .
 وطوقت به عنقي فترقرقت الدموع في عيني .
 وقبّلتها وقلت لها : « أنت كالزهرة لاتبصرين .
 ليس في وسعك أنت نفسك أن تري كم كانت هديتك جميلة » .

أيتها المرأة لست طرفة الله فحسب ، ولكنك طرفة الرجال أيضاً ، فهم
 الذين يزينونك بالجمال النابض من قلوبهم .
 ويغزل لك الشعراء خمراً من خيوط أخيلتهم المذهبة ، ويخلد
 المصورون إهاب جسدك .

إنّ البحر يلفظ لآلئه ، وتمنح المناجم ذهبها ، وتهب حدائق الصيف
وردها ، لتتزيّني وتتحلّي به وتضحي أثمان وأكثر نفاسة .
وتسرّبل رغبات قلوب الرجال ، بمجدها ، شبابك .
أنت كيان ، نصفه امرأة ، ونصفه الثاني حلم .

٦٠

في وسط اصطخاب الحياة وزمجرتها ، تطل أنت أيّها الجمال المنحوت
من الحجر ، هادئاً وحيداً بعيداً .
عند قدميك يجلس الزمن العظيم ، مشغوقاً ويهمس : « تكلم يا حبيبي ،
يا عروسي » .
ولكنّ كلامك أيّها الجمال الساكن يظلّ جامداً على الحجر .

٦١

مهلاً . يا قلبي ، ليكن وقت الفراق عذباً .
لاتدعه يصبح موتاً بل تنمة .
ليحر الحبّ إلى ذكرى ، ولينقلب الألم الى أغنيات .
ليتناه الرفيف في السّماء الى انطواء الأجنحة حول العش .
لتكن آخر لمسة من يديك رقيقة كزهرة الليل .
توقفي أيّتها النهاية الرائعة ، لحظة ، واذكري ، في صمت كلماتك
الأخيرة .
إنني أنحني لك وأرفع سراجي لأنير لك الطريق .

في طريق الحلم المظلمة ، مضيت أبحث عن تلك التي كنت أحبها في
حياة آنفة .

كان بيتها قائماً في طرف شارع منعزل .
وعلى هينمة نسيم الماء ، كان طاووسها المدلل ، يهوم فوق مجتمه ،
وكانت الحمام صامتة في ركنها . وأراحت مصباحها على الوصيد ووقفت
أمامي .

ورنت عيناها النجلاوان إلى وجهي وسألت بصوت خفيض : «أأنت بخير
يا صديقي ؟» .

وحاولت أن أجيب ولكن الكلمات تأتت علي ، وأضحت ضائعة منسية .
وفكرت ثم فكرت عبثاً ، ولم تواف أسماؤنا الى ذهني .
وتألقت الدموع في عينيها وبسطت لي يدها اليمنى فأمسكت بها ،
ولبثت صامتة .

وترنح لهب المصباح ، على هينمة نسيم المساء ثم انطفأ .

أيها الرخالة ، أينبغي أن ترحل ؟
الليل ساج ، والظلمة تمحي فوق الغابة .
المصابيح تشع في شرفتنا والزهر كله يتترقرق رياناً غضاً ، والعيون
الفتية تستيقظ هادئة .

هل آن وقت الظعن ؟

أيها الرخالة ، أينبغي أن ترحل ؟

لم نخط بأيدينا الضارعة قدميك .
 إن أبوابك مشرعة وجوادك المسرح قائمٌ أمام الباب .
 لنن حاولنا أن نعيق مرورك ، لم نعد إلى ذلك بغير أغنيائنا .
 لنن حاولنا أن نثنيك عن الرحيل ، لقد توسلنا إلى ذلك بعيوننا فحسب .
 أيها الرخالة إننا عاجزات عن استبقائك ، وليس لدينا سوى الدموع .
 أي لهب لا ينطفئ البتة ، يتألق في عينيك !
 أي حمى قلقة تعدو في دمك !
 أي نداء من الظلمات يدفعك !
 أي رقية مخيفة تلوتها ، بين النجوم في السماء ، حتى يتساقط الليل أن
 يتسلل برسالة مغلقة سرية إلى قلبك صامتاً غريباً !
 إن كنت لاتحفل بالمجالس الهازجة بالسترور ، وكنت تتشوف إلى
 الهدوء ، واهن القلب ، فلسوف نطفئ مصابيحنا ونسكت معارفنا .
 سوف نجلس ، هادئات ، في الظلمة ، تحت الأوراق الهامسة ، ولسوف
 يريق القمر المتعب أشعته الشاحبة فوق نافذتك .
 إيه أيها الرخالة ، أي روح مؤرقة تناهت إليك من جوف الليل ثم
 لامستك .

٦٤

لقد أنفقت بياض يومي فوق غبار الطريق اللاسع الحار .
 الآن ، في هذا المساء الرطيب ، أقرع باب الفندق الذي أقفز وأمسى
 خراباً يباباً .
 وتُنشِب شجرة (الأشاة) الشرسة جذورها الغرثى بصدوع الجدران
 المتشققة .

وانقضت أيام ، كان يقدم فيها السابلة الى هنا ليفسلوا أقدامهم
المرهقة .

وكانوا يمدّون بسطهم في فناء الدار ، تحت النور الواني المنثال من
القمر المبكر ، ثم يخذون مجلسهم ثمة ويتحدثون عن بلاد عجيبة .
وكانوا يستيقظون صباحاً ، متوثبي النشاط ، وكانت العصافير تملأ
أعطافهم بهجةً ويتلع الزهر من عذار الدرب رأسه نحوهم في تحبّب وود .
ولكن لم يستقبلني مصباح منير واحد حين قدمت إلى هنا .
كانت لطخات الدخان السوداء المخلفة من عديد السهرات تبدو على
الجدار كأنها عيون عمي .

وترفرف يراعات^(١) في الدغل القريب من البركة المجففة ، وتبسّط
أغصان البامبو ظلالها فوق الدرب المعشوشبة .
لست بضيف أحد في نهاية يومي .
الليل الطويل ، يمتد أمامي ، وأنا متعب .

٦٥

تراه نداؤك الذي يوافي من جديد ؟
لقد أهل المساء ، وتشبّث بي التعب كأنه أذرع الحب الضارعة .
أتناديني ؟

لقد منحتك نهاري كله ، ياسيدتي القاسية ، أتريدين أن تنهبي مني
ليلي أيضاً ؟ ومع هذا ، فإن لكل شيء نهاية ، وإن عزلة الظلام هي ملك كل
إنسان . ولكن ، أوجب على صوتك أن يمزقها ويلفحني ؟

(١) البراعة : ذبابة تضيء وهي تطير في الليل .

أليس للسماء موسيقا نوم مهددة على بابك ؟
ألا تتسلق أجنحة النجوم الصامته السماء فوق برجك الجبار ؟
ألا يتهاوى الزهر على تراب حديقتك في ميتة ناعمة ؟
ألا يتعين عليك أيتها القلقة أن تناديني ؟
دعي عيون الحب الحزينة تسهر وتذرف الدمع دون جدوى .
دعي المصباح يشتعل في الدار الموحشة .
دعي الزورق ينقل الحرائين المكودين الى بيوتهم .
إنني أهجر أحلامي وأبني نداءك .

٦٦

كان ثمة مجنونٌ هيمانٌ بسبيل البحث عن الفلاسفة ، وكان أشعث
الشعر ، أسفع الوجه مغبراً ، ذا جسم هضيم كالطيف في الرقة ، وكانت شفاته
مضمومتين كأبواب قلبه المغلقة وعيناه مثقتين كنور القطرب^(١) المضيء .
يلتمس أنثاه .
وكان البحر يفسح أمامه هادراً مزمجرأ .
وكانت الأمواج المشرثرة لاتأتلي تتحدث عن الكنوز الخبيثة وتسخر
ممن يجهل ماتعنيه .
لعله كان يهيم بلا أمل ، بيد أنه ظلّ يواصل البحث الذي أضحي جذع
حياته .
إنه كالبحر اللجبي الذي يعطو أيديه الى السماء ، دوماً ، ليظفر بما
لا يمكن الوصول اليه .

(١) القطرب : دويبة تضيء في الليل كأنها شمعة .

إنه كالنجوم التي تدور في أفلاكها وتظلّ تنشد هدفاً لا يمكن إدراكه البتّة .

هكذا كان المجنون الأغبر الأشعث الشعر يهيم على الشاطئ ، المقفر ، بحثاً عن حجر الفلاسفة .

ودنا منه ، ذات يوم طفلاً من القرية وقال له : « كيف عثرت على هذا الزنار الذهبي الذي يطوق خصرك » ؟

وارتعدت أوصال المجنون ، فإنّ هذا الزنار المصنوع من الحديد ، من قبل ، قد تحول الى ذهب حقيقي ، أجل ، لم يكن ذاك من وشي الحلم ، غير أنّه لم يذكر قط متى تحول الزنار الحديدي الى ذهب .

وضرب جبينه بضراوة ، أين ؟ آه!! أين ؟ لقد ظفر بطلبته دون أن يدري .

فقد تعود أن يلتقط الأحجار ويقدح بها زناره ، « ثم يرمي بها دون أن يهتم بأن يلقي نظرة الى زناره ليرى الى أيّما تحول يطرأ عليه .

وهكذا فإنّ ذلك المجنون المسكين قد عثر على حجر الفلاسفة ثمّ أضاعه .

وكانت الشمس تغوص جانحة الى مغربها ، وكانت السماء تشعّ ذهباً . وعاد المجنون على أعقابهِ ، باحثاً عن كنزهِ المفقود ، موهون القوى ، مهدود الجسم ، وقلبه ملقن على التراب كأنه شجرة مجتثّة مقلوعة .

٦٧

مهلاً أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصفي إليّ ولا تطوي جناحك . وإن يكن المساء قد هبط بخطا ونيدة وأومأ الى الأغاني كلّها بأن تسكت .

وإن تكن رفيقاتك قد ذهبن لينعمن بالراحة ، وإن كنت متعبة ، وإن
يكن الخوف جعل يعدو في الظلام ، وإن يكن وجه السماء قد تقنّع .
مهلاً أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصفي إليّ ولا تطوي جناحيك .
إنّ الظلام المنتشر ليس بظلام أوراق الغابة ، إنه البحر الذي ينتفخ
كأنه ثعبان ضخم أسود .

ليس هذا رقص زهر الياسمين ، إنه الزبد المتلألئ .
آه... أين الشاطئ الممرع المنير ؟ أين عشك ؟
آه... أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصفي إليّ ولا تطوي جناحيك .
الليل الموحش يتمطى فوق الطريق ، والفجر يهوّم خلف الرّبيّ الظليلة .
النجوم تمس أنفاسها وهي تعدّ الساعات ، والقمر الواني يسبح في
الليل العميق .

إيه أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصفي إليّ ولا تطوي جناحيك .
من أجلك ليس ثمّ أمل ولا خوف .
ليس ثمّ كلام ولا همس ولا نحيب .
ليس ثمّ بيت ولا سرير راحة .
ليس ثمّ سوى جناحيك والسماء الرحيبة .
إيه أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصفي إليّ ولا تطوي جناحيك .

٦٨

ليس هناك حياة تؤتّى الخلود يا أخي . ليس هناك شيء يتاح له البقاء ،
اذكر هذا ثمّ مع نفسك .
إنّ حياتنا ليست ذاك العبء القديم ، وطريقنا ليست طريق الرحلة
الطويلة .

على الشاعر ألا يردّد الأغنية القديمة نفسها .
إنّ الزهرة تصوّح وتموت ، ولكن على من يحمل الزهرة ألا يبكيها دوماً .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .
ينبغي أن تمرّ فترةٌ صمترٍ طويلةٌ ، قبل أن يتمّ نسج لحنٍ كامل .
إنّ الحياة تتلاشى مع غروبها حتّى تفتنى في الظلال الذهبية .
يجب أن يدعى الحب من لهوه ، لينهل من الألم ويولد في سماء الدموع .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .
إننا نبادر الى قطف الزهر لنلا تجنيه الرياح العابرة قبلنا .
إنّ ما يجعل دمننا يغور وعيوننا تتلظى ، هو اختلاصنا القبلات التي قد
تُمحي ويفوت أوانها إن أمهلتها .
إنّ حياتنا تتقدّ ولذاتنا تستوفز توقاً الى الزمن الذي يُقرع فيه ناقوس
الرحيل .

اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .
ليس هذا أواننا في أن نتعلّق بشيء ، ونحطّمه ثمّ نرمي به أرضاً ، إنّ
الساعات تُغذّي السير مسرّبةً بشياها أحلامها .
إنّ حياتنا قصيرة ولكنها لا تهب للحبّ غير أيام قليلة ، وقد كُتِبَ علينا
فيها الكدّ ، وقد تُضحى قاسيةٌ طويلةٌ الى الأبد .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .
إننا نستعذب الجمال لأنّه يواكب في رقصه نفس الوزن الهانم مع
حياتنا .

إنّ المعرفة ثمينةٌ لدينا ، إذ لن ينفصح لنا زمن نستطيع فيه أن نتمّها .
كلّ شيءٍ مقدّرٌ له ، في السّماء الخالدة ، أن يخلق ثمّ يزول .
ولكنّ أزهير الوهم الأرضيّة تظلّ بالموت غصّةً ريثا ، الى الأبد .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

إنني أقنص الأيل الذهبي .
 في ميسوركم أن تبتسموا . ، يارفاقي ، ولكنني ألاحق الخيال الذي يفرُّ
 مني .
 وأعدو فأفرغ الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلاد مجهولة لأنني أسمى
 وراء قنص الأيل الذهبي .
 وتقدمون الى السوق وتبتاعون ثم تؤوبون الى بيوتكم مزودين
 بالشرى ، بيد أن نداء الرياح المشرّدة قد مسّني ، لأدري متى وأين .
 لا يحكّ في صدري أيّ هم ، فكل ما في حوزتي قد خلفته ورائي بعيداً .
 وأعدو فأفرغ الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلاد مجهولة لأنني أسمى
 وراء قنص الأيل الذهبي .

٧٠

أذكر أنني دفعت ، ذات يوم من أيام الطفولة ، بزورق ورقي في الجدول .
 كان يوماً ندياً من شهر تمّوز ، وكنت وحيداً سعيداً بلعبتي .
 لقد دفعت بزورقي الورقي في الجدول .
 وعلى حين غرة ، تجمع زكام السحب الداكنة ، وهبت الرياح النكباء
 وأسبل المطر غداً مدراراً .
 وانقضت سيول من الماء الوحل ، على الجدول ، فغمرته وأغرقت
 زورقي .
 ومثّل في خاطري ، ومرارة الأسى في نفسي ، أن العاصفة قد تعمّدت أن
 تهب لتكدر صفو فرحتي وأنّ إساءتها موجهة إليّ .

إنَّ نهارَ تَمَوُزِ الغائمِ هو اليوم طویل ، وفكّرتُ في جميع لعب الحياة التي
كنت فيها الخاسر دوماً .
وبينما كنت ألوم قدري على صروفه وعشه بي . تذكرت فجأة زورقي
الذي غرق في الجدول .

٧١

لم يكن النّهار قد انقضى ، ولم تُفلقْ سوقُ المعرض ، السوقُ القائمةُ
على ضفّة النهر .
كنت أخشى أن يكون وقتي قد تبدّد ، وأن يكون آخر درهم عندي قد فقد .
لا يا أخي ، لقد تبقّى شيءٌ لديّ ، فإنّ قدري لم يختلسْ مِنّي كلّ شيء .
لقد انتهى البيعُ والشراء .
وسدّدَ الحسابُ كلّهُ بين كلا الطرفين ، وأزفَ وقتُ عودتي الى البيت .
ولكن ، تُراك تطالب حقّاً بضريبتك ، أيّها الحارس ؟
لاتخفْ لقد تبقّى شيءٌ لديّ ، فإنّ قدري لم يختلسْ مِنّي كلّ شيء .
إنّ هدهدةَ الريح تنذر بالعاصفة والغيوم المتطامنة في الغرب لاتشي
بخير .

وينتظر الماء الهاديء هبوب الريح .
وأخفّ مسرعاً لأجوز النهر ، قبل أن يدهمني الليل .
أيّها الملاح ، أتريد أجرك ؟
أجل يا أخي لقد تبقّى شيءٌ لديّ فإنّ قدري لم يختلسْ مِنّي كلّ شيء .
على حيد الطريق اتخذ الشّحاذُ مجلسه ، تحت الشجرة ، وأسفاه! إنه
يرامق وجهي بأملٍ خجولٍ .
إنه يحسب أنني غني من أرباح النهار .

أجل يا أخي لقد تبقي شيء ، لدي ، فإن قدرتي لم يختلس مني كل شيء .
الليل يحلوك والطريق تقفر ، واليراعات المضيئة تتلألأ بين الأوراق .
من أنت يا من تتبعني ، صامتاً ، منسرق الخطأ ؟
أوه إنني أعلم : تلك هي رغبتك في أن تنهب مني جميع أرباحي .
لن أخيبك أبداً .
فقد تبقي شيء ، لدي وقدرتي لم يختلس مني كل شيء .
عند منتصف الليل ، أدرك بيتي ويداي خاويتان .
إنك تنتظرين ، بعينين واجلتين ، على بابي ، ساهرة صامتة .
وكصفورة خجلى تفرفين حول صدري بوجدر مضرم .
أجل . أجل يارب . لقد تبقي لي شيء كثير ، فإن قدرتي لم يختلس مني
كل شيء .

٧٢

وفي أيام كلها عناء متصل أنشأت معبداً ، ولم يكن له أبواب أو نوافذ ،
كانت جدرانها غليظة مبنية بأحجار ضخمة .
ونسيت كل شيء ، سواه ، عازفاً عن العالم كله ، وجعلت أتطلع وأنا
مستغرق في التأمل ، الى الصورة التي أقمته على المذبح .
وكان الليل حبيساً في الداخل دوماً ، تنيره سُرُج الزيت الشذي .
وكان الدخان المتصل المنعقد من البخور يملأ قلبي بسحابه . الثقيلة
ونقشت على الجدران ، وأنا ساهر ، رسوماً عجيبة ذات خطوط ملتاثة
غريبة ، كصور خيول مجنحة وزهر بوجوه إنسانية ونساء بإهاب ثعابين .
ولم يكن في جوانبه منفذ يمكن أن يدخل منه تغريد العصفير وحفيف
الأوراق أو ضجة القرية الكادحة .

وكان صدى الرقى التي كنت أرتلها يتجاوب ، وحده في الحنايا المظلمة
من القبة .

وأضحى فكري حاداً ثابتاً كاللهب الذرب ، وتلاشت حواسي في نشوة .
ولم أشعر كيف مرّ الزمن ، حتى انقضت الصاعقة على المعبد ، فانغرس
الألم في قلبي .

وتراءى السراج شاحباً والرسوم على الجدران كأنها أحلامٌ مصفدة ،
وبدت ، في النور ، خالية من المعنى كأنها تود أن تتواري .
ونظرت إلى الصورة القائمة فوق المذبح فرأيت إليها تبسم وتدب فيها
الحياة بلمسة الله الحية ، أما الليل الذي حبسته ثمة فقد بسط جناحيه وغاب .

٧٣

إن الثروة غير المتناهية ليست بثروتك أيتها الأرض ، يا أمي الصابرة
الغبراء .

أنت تكدين لإطعام أولادك ، ولكن الغذاء نادرٌ يسيرٌ .

إن الفرح الذي تزجينه إلينا ليس بكامل .

إن الدُمى التي تصنعونها لأولادك قصيفةٌ هشةٌ .

ليس في استطاعتك أن تشبعي نهم آمالنا الجائعة ، ولكن أجفوك
وأهجرِك من أجل ذلك ؟

إن ابتسامتك المظلمة بالألم هي عذبةٌ في عيني .

إن حبك الذي لا يعرف الانتهاء هو أشبه بالحب .

لقد غذانا صدرك حياة لاخلودا ، وبهدا فإن عينيك ساهرتان دوم .

منذ العصور الخوالي وأنت تنسجين اللون واللحن ، ومع هذا فإن جنتك

لم تقم بعد . إن هي إلا إيحاءٌ حزينٌ .

إِنَّ كُلَّ مَا أَبْدَعْتَهُ مِنْ طُرْفِ الْجَمَالِ مَغْلَفٌ بِضَبَابٍ مِنَ الدَّمُوعِ .
 سَوْفَ أُرِيقُ أَغْنِيَاتِي فِي قَلْبِكَ الضَّامِتِ وَأُرِيقُ حَبِّي فِي حَبِّكَ .
 سَوْفَ أَعْبُدُكَ فِي الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ .
 لَقَدْ لَمَحْتُ مَحْيَاكَ الْحَنُونِ ، وَإِنَّنِي لِأَعُشِّقُ تَرَابِكَ الْبَاكِي ، أَيْتَهَا
 الْأَرْضُ ، يَا أُمِّي .

٧٤

فِي مَحْفَلِ الْكَوْنِ ، يَقِفُ الْعُودُ الصَّغِيرُ مِنَ الْعُشْبِ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ مِنْ
 أَشْعَةِ الشَّمْسِ وَنَجُومٍ مُنْتَصِفِ اللَّيْلِ .
 وَلِهَذَا فَإِنَّ أَغْنِيَاتِي تَلْتَمِسُ أَمْكِنَتَهَا فِي قَلْبِ الْكَوْنِ مَعَ مُوسِيقَا الْغُيُومِ
 وَالْغَابَاتِ .
 وَلَكِنْ ثَرُوتُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْغَنِيِّ لَيْسَ لَهَا نَصِيبٌ فِي الْعِظْمَةِ الْبَسِيطَةِ
 الْمَتَرَقِرَّةِ مِنْ ذَهَبِ الشَّمْسِ الْجَذَلِيِّ ، وَلَا فِي الْأَشْعَةِ الطَّرِيَةِ الْمُنْشَالَةِ مِنْ
 الْقَمَرِ الْمَفْكُورِ .
 إِنَّ بَرَكَةَ السَّمَاءِ الَّتِي تَعَانِقُ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَظَلُّلُ ثَرُوتَكَ هَذِهِ .
 وَحِينَ يَدْرُكَكَ الْمَوْتُ ، فَإِنَّهَا تَشْحَبُ وَتَذْوِي وَتَتَفَتَّتُ فِي التَّرَابِ .

٧٥

عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، هَتَفَ رَجُلٌ يَتَشَوَّفُ إِلَى أَنْ يَصْبِحَ نَاسِكًا :
 « لَقَدْ أَزِفَ الْوَقْتُ الَّذِي أَهْجُرُ فِيهِ بَيْتِي ، بَحْثًا عَنِ اللَّهِ ، آه ، مِنْ شِدَّتِي
 إِلَى هُنَا ، بَيْنَ الْأَوْهَامِ زَمَنًا طَوِيلًا » ؟ .
 وَهَمَسَ اللَّهُ : « أَنَا » . بَيِّدَ أَنْ أُذْنِي الرَّجُلَ كَانَتَا مَوْقُورَتَيْنِ .

وكانت زوجه مضطجعةً على السرير ، الى جانبه ، في دعةٍ واطمئنانٍ ،
وعلى صدرها يغفو طفلٌ صغير .
وقال الرجل : « من أنت يا من مكرتَ بي ملياً ؟ »
وأجاب الصوت قائلاً : « هو الله » ولكن الرجل لم يسمع قط .
وبكى الطفل في حلمه وتجمع قريباً من أمه .
وأمر الله قائلاً : « قف أيها المخبول ، لاتهجر بيتك » . ولكن الرجل لم
يسمع أيضاً .
وتنهّد الله وقال في أسى : « لماذا يحسب عبدي وهو ينأى عني أنه
يبحث عني ؟ » .

٧٦

كانت سوق المعرض قائمةً أمام المعبد ، وكان المطر لايني يهطل منذ
الصباح الباكر ، وكان النهار قد جنح الى الزوال .
وكانت هناك ابتسامةٌ أكثر تألقاً من جذل جموع الناس كلّهم ، ابتسامة
طفلةٍ صغيرةٍ اشترت بدرهمٍ صفارةً من سعف النخل .
وكان الصوتُ المرحُ المنسربُ من هذه الصفارة يطفو على كل ضحكةٍ
وضجةٍ .
وقدم جمعٌ غفيرٌ من الناس وأخذ يتدافع ويزحم بعضه بعضاً ، وكانت
الطريق وحلةً ، والنهر طافحاً والسهل مغموراً بماء المطر المنهمر المتصل .
وكان هناك غمٌ أكبر من غموم الناس كلّهم ، غمٌ طفلٍ صغيرٍ لم يكن
لديه درهمٌ يشتري به قصبةً ملونةً .
وكانت عيناه القلقتان المتطلعتان الى المخزن تبعثان الشفقة في قلوب
حشد الناس كلّهم .

إن العاملَ وزوجَه القادمين من غرب البلاد مشغولان بالحضر وبصنع
القرميد ، بغيّة بناء القرن .

وتردُ طفلتُهما الصغيرةُ ضفةَ النهر حيثُ لاتني تغسل القدور والأواني
ويتبعها أخوها الصغير الحليقُ الشعرَ الأسمر العريان الملطّخ بالوحل ثم
يجلس على الضفة العالية ، ويتنظر صابراً ، دعوتها للعودة .

وتنوب الطفلة الى البيت ، حاملةً على رأسها جرةً ملاء ، ممسكةً بيدها
اليسرى قدرًا نحاسيّةً براقّةً وباليمنى يد الطفل - إنها البنت العطوف التي
تخدم أمها ، البنتُ الرزانُ التي تأخذ على عاتقها النهوض بأعباء البيت .

ولمحت ذات يوم ، الطفل العريان جالساً ، باسطاً ساقيه على الأرض ،
وكانت أخته في الماء تمرك ، بقبضة من التراب كوباً ، ثم تقلّبه وتديره .

وبدا قريباً منهما خرووفُ ناعمٍ الجزّة يرعى العشب على شط النهر .
واقترَب من الطفل القاعد ، وفجأة جعل يشغو ثغاءً عالياً ، فارتعدت
فرانص الطفل وأنشأ يبكي .

وتركت أخته غسلَ كوبها وخفّت اليه .

وأحاطت أخاها بذراع والخرووف بذراع ووزّعت بينهما ملاطفتها .
جامعةً في الرابطة نفسها من الحنان ، ولد الحيوان وولد الإنسان .

كان ذلك في شهر مايس وكان قيظُ الظهيرة يبدو متصلاً لا ينتهي ،
وكانت الأرض الجافة تلهث في الحر ظمأً ، حين سلك سمعي صوتُ ينادي من
عدوةِ النهر المقابلة : تعال يا حبيبي .

وأغلقت كتابي ، وفتحت النافذة مستطلعاً فرأيت ثوراً قريباً من ضفة
النهر ، ملطخ الأطراف بالطين ، وهو ينظر بعينيه الصابرتين الوديعتين ،
ولمحت طفلاً يخوض في الماء إلى التركبتين يناديه ليغسله .
وابتسمت ، مستظرفاً منظرهما ، وشعرت بعذوبة تنسم في قلبي .

٧٩

أسائل نفسي غالباً : ترى الى أي مدى خفي يستطيع الإنسان والحيوان
الأعجم الذي لم يؤت الكلام ، أن يتعرف الواحد منهما الآخر ؟
ترى في أي فردوس بدائي من فجر الخلق القديم تسعى تلك الدرب
البسيطة التي يتجاوز فيها قلباهما ؟
إن آثار اتحادهما الدائم لم تمح رغم أن قرابتهما قد عفاها
النسيان .

وعلى حين غرة تستيقظ الذكرى المبهمة ، في موسيقا لا ألفاظ فيها
ويرامق الحيوان محيا الإنسان في طمأنينة ، ويحذر الإنسان بصره الى عيني
الحيوان ، في حنانٍ مستظرف .
ويبدو الصديقان وكأنهما يلتقيان متنكرين ، وكأن الواحد منهما
يتعرف رغم تنكره ، صديقه الآخر .

٨٠

أيتها المرأة الحسناء . بنظرة من عينيك ، قد تستطيعين ، أن تجني كنز
الأغاني التي تهزج بها معازف الشعراء .
ولكنك لاتصيحين الى تشبيههم بك ، ولهذا جنتك مادحاً .

قد يكون في ميسورك أن تجعلني أكثر الرؤوس اختيلاً في الكون خاضعةً
 بين قدميك .
 بيد أن الذين تؤثرينهم لعبادتك بين محبيك هم العاطلون عن المجد ،
 ولهذا فإنني أعبدك .
 إن ذراعيك الكاملتين قد تفرنان المجد الى الجلال الملكي بلمسةٍ
 منهما .
 ولكنك تستخدمينهما لكس الغبار وتنظيف بيتك المتواضع ، ولهذا
 فإنني أجلسهما وأهابهما .

٨١

آه ، أيتها المنية ، يامنيتي ، لم تهمسين همساً خفيضاً في أذني ؟
 حين يذبل الزهر ، في المساء ، ويعود القطيع الى مراجه ، فإنك
 تقدمين ، خلسةً ، الى جانبي وتحديثين إلي حديثاً لا أفقه معناه .
 أتأملين في أن تغازليني وتكسبي وذي بهمسك المخدر المنوم وقبلاتك
 الباردة ، آه ، أيتها المنية ، يامنيتي ؟
 ترى أيقام احتفالاً زاهٍ لعرسنا ؟
 ألا تنوطين بخصلات شعرك الوحف^(١) المصقف طوقاً من الزهر ؟
 أوجد من يحمل رايتك أمامك ؟ ألا يتلظى الليل ناراً بشعلاتك الحمر
 المضئية ، أيتها المنية يامنيتي ؟
 تعالي ، على هزج قواقعك ، تعالي في ليلة مؤرقة .
 زمليني بمعطفك القرمزي ، وشدي على يدي ثم خذيني .

(١) الوحف : الشعر الكثير الأسود الحسن .

أعدّي أمام بابي مركبتك بجيادها التي تصهل ، نافذة الصّبر ؟
احسري قناعي ثمّ انظري ، في خيلاء ، إلى وجهي ، أيها المنيّة ،
يامنيّة .

٨٢

سنذهب ، أنا وزوجيّ الصبيّة ، الليلة ، لنلعب لعبة الموت .
الليل داج ، والغيوم في السماء ملولٌ متقلّبةٌ ، وأمواجُ البحر مشرّرةٌ .
لقد هجرنا فراش أحلامنا وفتحنا الباب على مصراعيه ، وخرجنا ، أنا
وزوجي .
وركبنا أرجوحةً ودفعتنا ريحٌ صرصرٌ ، من خلف ، دفعةً ضارية .
واتصبت زوجي ، فجأةً ، في خوفٍ تمازجه لذةٌ ، وارتجفت ثمّ تعلّقت
بصدري .
وجعلت أغازلها ، في حنانٍ ، أمداً طويلاً .
وسويت لها فراشاً من الزهر ، وغلّقت الأبواب ، لنلا يعشي النورُ الباهرُ
عينها .
وقبّلتها ، في لطفٍ ، من شفّتيها ، وهمست في أذنيها كلماتٍ رقيقةً
حتّى كادت تتلاشى فتوراً .
وغابت في ضبابٍ مستديمٍ من العذوبة المبهمة .
ولم تجب عن لمسة راحتي ، وانسابت أغنياتٍ لتوقظها .
لقد قدم إلينا الليلة ، نداء العاصفة الضاربة .
وارتعشت زوجي ونهضت وتشبّثت بذراعي ثمّ خرجنا .
وماجّ شعرها في الريح وخفقَ خمارُها ، وارتعش طوق الزهر فوق
صدرها .

إنّ دفعة الموت أَلقت بها في أرجوحة الحياة .
وها نحن أولاء ، وجهي قبالة وجهها ، وقلبي أمام قلبها ، أنا وزوجي .

٨٣

كانت تسكن ، في سفح الرابية ، الى جانب حقل من الذرة ، قريباً من
النبع الذي يتفجّر جداول ، ضاحكة ، متفينة الظلال المهيبة من الأشجار
الهرمة ، وكانت النساء يردنه ليملأن جرارهن ، وكان المسافرون
يستمرنون الجلوس ثمة ، ليستريحوا ويتجاذبوا أطراف الأحاديث ، هناك...
كانت تعمل وتحلم ، كل يوم ، على هدير الماء المنبجس المتفجّر .
وهبط ، ذات مساء ، رجلٌ من شعفة جبلٍ ملتمع بالغيوم ، وكانت
خصلات شعره مجدولة كأنها ثعابينٌ ضخمة ، وسألناه ، وقد أخذنا العجب...!
« من أنت ؟ » . فلم يحر جواباً ، بل جلس الى جانب الجدول المثرثر وأخذ
يجيل نظراته ، صامتاً ، في الكوخ الذي كانت تسكن فيه ، وألمّ بقلوبنا
الخوف ، فعدنا الى البيت ، والليل مرخ سدوله .
وفي صباح اليوم التالي ، حين وردت النساء النبع ، ليسقين الماء قرب
أشجار (الديودار) ألفين أبواب كوخها مفتوحة ، ولم يعد صوتها يتجاوب في
حناياه ، ترى أين وجهها المبتسم ؟
وكانت الجرة الفارغة تتوسد الأرض ، والمصباح قد استنفد نوره في
ركن الحجرة ، ولم يعلم أحدٌ الى أين هربت قبل منبجج الفجر ، وكان الرجل
الغريب قد مضى أيضاً .
وفي شهر مايس أضحى الشمسُ لاهبةً ، وذاب الثلج ، واتخذنا مجلسنا
قرب النبع ، وبكىنا وجعلنا نتساءل : تُراها تجد في البلد الذي فزعت إليه
نبعاً تملأ منه جرّتها ، في هذه الأيام القاتظة اللاهثة ظمأً ؟

وكان الواحد منا يسأل الآخر في جزع ، ترى أوجد بلد خلف هذه
الربى التي نعيش في جنباتها . ؟
وكانت ليلة من ليالي الصيف ، وكان النسيم يهب من الجنوب ، وكنت
جالساً في حجرتها المهجورة ، حيث كان المصباح المنطفىء قابلاً ، حين
انزاحت الربى أمام عيني ، فجأة ، وكأنها ستائر قد انجسرت ، آه ، ها هي
ذي قادمة . كيف حالك يا بنيتي ؟ أنت سعيدة ؟ كيف يتاح لك أن تتفني
ملاذاً لك تحت منفسح السماء ؟ وأسفاه إن نبعا لايتسلسل ، ثمّة ، لينقع
ظمأك .

وأجابت : «هنا ترتفع السماء نفسها ، بيد أنّها حرّة من مناجزة الربى
لها ، هنا الجدول نفسه الذي يكبر ويحور نهراً ، هنا الأرض نفسها التي
تتسع وتنسبط سهلاً» .
وأجبت متنهّداً : « هنا يوجد كلّ شيء ، ولكننا لسنا هنا » .
وابتسمت في أسى وقالت : « إنكم في قلبي » .
واستيقظت وسمعت ثرثرة الجدول وهمس شجرة (الديودار) في الليل .

٨٤

فوق حقول الأرز الخضراء والصفراء ، تتراصف ظلال غيوم الخريف التي
تطاردها الشمس المغدّة في السير .
وتنسى النحللات أن ترتشف رحيق الزهر المعسول وترفرف وتأخذ في
الطنين ، مجنونة ، سكرى بوهج النور .
وفوق جزر النهر تزقو البطّات فرحاً ، دون أن تعلم هناءتها .
يا إخواني ، ليمسك كلّ واحد منكم عن العودة الى البيت ، في هذا
الصباح .

فلنفتتح السماء الزرقاء بزوبعة ، لننهب الأرض نهياً ، ونحن نعدو .
وتطفو الضحكة في الفضاء كأنها الزبد فوق الماء .
ياإخواني لنبدد صباحنا ، في أغنياتٍ تافهة .

٨٥

من أنت ، أيها القارئ ، أنت الذي سوف تقرؤني ، بعد مائة عام ؟
ليس في مكنتي أن أبعث بزهرة واحدة من هذا الإكليل الربيعي ،
ولابشعاعٍ مذهبٍ واحدٍ من تلك السحب هناك .
افتح الأبواب وتأمل في المدى القصي .
واجن من حديقتك الزاهرة ، الذكريات العاطرة الفاغمة من الزهر
المصوح منذ مائة عام .
فقد يكون في ميسورك أن تشعر ، والسرور يملأ عطفك ، بالفرحة
الحية التي تفتت ، ذات صباح ربيعي مريقة صوتها الهنيء ، عبر مائة عام .

الحلال

البيت^(١)

سلكْتُ وحدي الدرب الممتدة في الحقل ، فيما كانت الشمس الأفلة
تبدو كبخيل وهي تلملم آخر أشعتها الذهبية .
وكان النهار يغيب ، شيئاً فشيئاً تحت جناح الدجى ، وكانت الأرض
الجرداء ، تنبسط ، إثر الحصاد ، صامتة .
وتعالى الى السماء ، بفتة ، صوتٌ حاد ، صوت طفل كان يدليج في
الظلمة ، مخلفاً أثر أغنيته في هدأة المساء .
وكان بيته في القرية قائماً هناك ، في نهاية الأرض المبهمة ، وراء حقل
قصب السكر ، مختبئاً بين أفياء أغصان الموز وسعف النخل الهندي الوانية
وأشجار جوز الهند والجاك ذات الشمار الحائنة الخضرة^(٢)
وتوقفت هنيهة ، في دربي المنعزلة ، تحت ضوء النجوم ، وأجلت بصري

(١) في هذه المجموعة الشعرية . ثلاث قصائد هي : (على الشاطئ) و (التبع) و (متى ولماذا) . لم نشأ
إيرادها . هنا ، لورود هذه القصائد نفسها في المجموعة الشعرية (جيتنجلي) حاملة الأرقام : ٦٠ ،
و٦١ ، و٦٢ (المعرب)

(٢) الخضرة الحائنة : الشديدة الضاربة إلى السواد .

في الأرض المظلمة ، تحضن بذراعيها شتيت البيوت العامرة بالأسرة
والمهود ، الأهله بقلوب الأمهات ومصاييح المساء ، الزاخرة بنفوس فتية
تمتلىء أعطافها بفرح لا يعلم نفسه ، مدى قيمته لهذا الكون .

درب الطفل

يتأتى للطفل أن يطير الى السماء ، إما جاذبته هذه الرغبة . ولكنه
لا يفعل لأن لديه ما يحمله على ألا يغادرنا . أجل ، إنه يحب أن يوسد رأسه
ثدي أمه ، ولا يقوى البتة على رؤيتها تغيب عن ناظريه .
إن الطفل الصغير يحيط بجميع ضروب الكلام السديد ، غير أن الذين
يدركون معناها في الأرض قلائل .
فليس عبثاً ألا يرغب في الكلام .
إنه الشيء الوحيد الذي يتشوف إليه هو أن يتلقن كلمات أمه من
شفثيها ، ولهذا يترأى بريئاً نقياً .
إن في حوزة الطفل الصغير أكواماً من الذهب والآلىء ، ومع ذلك فقد
قدم كشخاذاً الى هذه الأرض .
إن لديه سبباً يحفزه على أن يقدم في هذا التنكر .
أجل ، إن هذا الشحاذا الصغير الأثير العريان يصطنع العوز الشديد
ليتيسر له أن يطالب أمه بكنز حبها .
لقد كان الطفل الصغير حرّاً من أي رباط في هذه الأرض التي يتسامى
فوقها الهلال الصغير .
فليس عبثاً أن يتخلّى عن حرّيته .
أجل . إنه ليعلم أن ثمة مكاناً زاخراً بفرحة ثرة ، يشق في ركن
صغير من قلب أمه وأنه لأشهى لديه من الحرّية نفسها . أن تشده أمه

وتضمه بين ذراعيها الحبيبتين .

لم يكن الطفل يعرف البكاء ، كان يسكن أرض الغبطة الكاملة ، فلديه سبب يحمله على ذرف الدموع . أجل ، رغم أنه يداعب بابتسامة من وجهه الحبيب أوتار قلب أمه ، فإن نشيجه الرقيق المنبثق من آلامه الصغيرة ، هو الذي ينسج بينه وبين أمه رباطاً مزدوجاً من الحب والرحمة .

الموكب الخفي

إيم ياطفلي ، ثرى من الذي لَوْن ثوبك الصغير وغطى أطرافك الغضة بهذا التفاض^(١) الصغير الأرجواني ؟

لقد خرجت صباحاً الى فناء الدار لتلعب فوقعت وتعثرت وأنت تركض ، ثرى من الذي صبغ ثوبك الصغير ياطفلي ؟

ما الذي يحملك على الضحك يابرعم حياتي الصغير ؟
إن أمك تبتسم لك وهي واقفة في العتبة ، إنها تصفّق لك ، فتهزج أساورها ، وترقص أنت وفي يدك قضيب من شجر المامبو ، كأثك راعٍ صغير .
ما الذي يضحكك يابرعم حياتي الصغير ؟ .

إيم أيها الشحاذ ، ماذا تستجدي من أمك وذراعاك تتعلقان بعنقها ؟
أيها القلب الجشع ، هل تود أن أقطف لك الكون من الفضاء ، كما أقطف ثمرة ، لأضعه في راحتك الصغيرة الموردة ؟
إيم أيها الشحاذ ، ماذا تستجدي ؟
إن النسيم يحمل ، في جذلي ، وسوسة خلخالك . والشمس تُرامق زينتك وهي تبتسم .

(١) التفاض : أزار الضبي .

إن السماء تحنو عليك ، ساهرة ، حين تغفو بين ذراعي أمك ويقدم
الصباح ، منسرق الخطأ ، الى سريرك ليطلع عينيك .
ويحمل النسيم ، في جذلي ، وسوسة خلدالك .
إن الجنية ملهمة الأحلام قادمة اليك ، وهي ترفرف عبر الغروب ، في
السماء .
إن الذي يعزف موسيقاه للنجوم ، هو قائم الى جانب نافذتك ، يحمل نايه .
وتقبل اليك الجنية ملهمة الأحلام ، وهي ترفرف ، عبر الغروب ، في
السماء .

سارقة النوم

من الذي اختلس النوم من عيني الطفل الصغير ؟ يجب أن أعلم .
لقد اتخذت أمه أدراجها الى القرية لتستقي من الماء ، مسندة جرتها
الى خصرها .
وكان الوقت ظهراً ، وكان الأطفال قد استوفوا لعبهم ، وكان البط ، في
الغضبة ، صامتاً .
وكان الراعي الفتى قد أخذ الى النوم متفياً شجرة (البانيان) .
وانتصب الكركي هادئاً زميتاً ، في البركة ، قريباً ، من أجمة شجر
العنباء (المانجو) .
في تلك الأثناء ، قدمت سارقة النوم ، وسلت الغفوة من عيني الطفل
الصغير ثم طارت .
ولما آبت الأم الى البيت ألقت الطفل يحبو على أربع في أركان الغرفة .
ترى من الذي اختلس النوم من عيني الطفل الصغير ؟ ينبغي أن أعلم ،
يجب أن أعثر على السارقة وأكبّلها .

عليّ أن أنظر في ذلك الغار المظلم ، حيث ينساب جدولٌ صغير بين
الحصى والصخور الداكنة .

عليّ أن أبحث بين الظلال المهيّمة في حرج شجر (الباكولا) حيث يهدل
الحمام في مجاثمه وحيث تهزج خلاخيل الجن ، في الليالي المتلامحة
النجوم .

وفي المساء سوف ألوب عليها خلال الصمت الهامس المخيم في غابة
المامبو للبحث تريق اليراعات^(١) نورها وسوف أسأل المخلوقات التي ألتقي
بها : هلأ ذكرت لي أين تقيم سارقة النوم؟

من الذي اختلس النوم من عيني الطفل الصغير ؟ ينبغي أن أعلم .
تُرى يجب أن ألقيها درساً مفيداً إن تيسر لي أن أمسك بها ؟
سوف أنقص على عشتها لأرى أين تكذب ما اختلست من الكرى .
سوف أتوثق جناحيها بقسوة وأضعها على ضفة النهر ، ثم أدعها تلعب
بقصبة صيدٍ بين فساتل النيلوفر .

وفي المساء حين ينتهي البيع ، ويفزع الأهلاليك الى أحضان أمهاتهم
فإن طيور المساء سوف تصمّ آذانهن وهي تردّد ساخرة : تُرى من الذي
تختلسين كراه الآن ؟

البداية

سأل طفلٌ صغير أمّه : من أين أتيت ؟ وأين ظفرت بي ؟
وأجابته أمّه ، يتجاذبها ضحكٌ وبكاء ، ضامّة طفلها الى صدرها : لقد
كنت مختبئاً في قلبي ، كنت رغبته يا حبيبي .

(١) اليراعة : ذبابة تضيء ، وهي تطير في الليل .

كنت بين ذمى طفولتي ، وفي كل صباح ، حين كنت أسوي من
 الصلصال تمثال ربي فقد كنت أنت الذي أسويه ثم أنتقسه .
 كنت فوق المذبح الى جانب نصب بيتنا ، وكنت أعبدك ، فيما كنت
 أتجه إليها بعبادتي .
 لقد عشت في جميع تعلاتي ووجدي ، عشت في حياتي ، في حياة
 أمي .
 إن الروح الخالدة التي ترعى بيتنا قد غدتك ، العمر كله ، من ثديها .
 وحين كان قلبي يفتح ، في ريق صباي ، أفوافه ، فقد كنت تغلفني
 كالشذا الفاعم منه .
 إن عذوبتك الناعمة كانت تترقرق في أطرافي الفتية ، كأنها الألفة التي
 تسبق منبلج الفجر في السماء .
 أنت يا حبيب السماء الأول ، أنت يأتوأم شعاع الصباح ، لقد جرفك تيار
 حياة الكون حتى رسوت أخيراً في قلبي .
 وبينما كنت أرامق وجهك ، والغموض يسربلني ، أضحيّت أنت ، يامن
 تخص الجميع ، ملكاً لي .
 وخشية أن أضيعك فقد جذبتك وشددتك الى صدري ، ترى أي سحر قد
 وهب كنز الدنيا لذراعي النحيلتين ؟

دنيا الطفل

كم أودّ لو يتأتى لي أن أنتبذ ركناً هادئاً من قلب دنيا طفلي .
 إنني أعلم أن لهذه الدنيا نجوماً تتحدث إليه وسماء تتطامن الى وجهه
 لتسليه بقوس قزحها وغيومها العابثة .
 إن الذين يزعمون أنهم بكم ويصطنعون العجز عن الحركة ، يدلفون .

خلسة ، الى نافذته ، ليسردوا له القصص ويزجوا اليه أطباقاً حافلة بدُمى
براقة .

كم أودّ لو يتأتّى لي أن أسير في الدرب التي يسلكها فكر الطفل الصغير
وأضرب فيها بعيداً ، خلف جميع الحدود .

هناك ، حيث يعبر الرسل ، هائمين ، دون غاية ، في ممالك الملوك
التي لا تاريخ لها .

هناك ، حيث يتخذ العقل من قوانينه دميةً طائرة ثم يطلقها في الفضاء .
هناك حيث تحرّر الحقيقة الفعل من أغلاله .

ذم

علام تترقق الدموع في عينيك يا طفلي ؟
ما أجفى طبعهم وهم لا يألون يؤثّبونك على تافه الأشياء ؟!
لقد لَطَخْتَ بالمداد أناملك ووجهك وأنت تكتب - ألهذا السبب يدعونك
بالقذر ؟

بخ ، بخ ، أيجرؤون على أن يدعوا البدرَ الكامل بالقذر ، لأنّ وجهه
ملطّخٌ بالمداد ؟

إنهم يؤثّبونك على تافه الأشياء ، إنهم مستعدّون لإيجاد هفوة لك من العدم .
لقد مزّقت ثيابك وأنت تلعب ، ألهذا السبب يدعونك بالمهمل ؟
بخ ، بخ ، تُرى بماذا يدعون صباحاً خريفيّاً ، يبتسم من خلال غيومه
المهلهلة ؟

لاتولِ اهتمامك الى قالتهم ، يا طفلي ، إنهم يعدون ثبثاً طويلاً ينتظم مساوئك .
كلّ إنسان يعلم مدى كلفك بالحلوى ، ألهذا السبب يدعونك بالنهم ؟
بخ ، بخ ، بِمَ يدعوننا إذن ، نحن الذين نحبك ؟

الحكمة

قُلْ عنه ما يحلو لك . فأنا أعرف عثرات طفلي .
أنا أحبه لأنه طيب السريرة ، بل لأنه طفلي الصغير . ماذا تستطيع أن تعلم
كيف يشق له أن يكون أثيراً لديّ ، حين تحاول أن توازن بين حسناته وسيئاته .
و حين ألجأ الى معاقبته ، فإنه يضحي ، إذ ذاك ، أكبر جزء من كياني .
و حين أجعل دموعه تنهمر فإن قلبي يبكي معه .
لي الحق وحدي أن أؤثبه وأعاقبه ، فلمن يحب ، الحق ، وحده ، بأن يعاقب .

الدمى

أيها الطفل ، يالهناء لك وأنت تقتعد التراب ، لاهياً بغصن قصيف ،
طوال النهار .
إنني أبتسم وأنا أرى إليك تلهو بهذا الغصن القصيف الصغير .
إنني مشغول بإعداد حسابي ، فأظلل ساعة ، معنياً بجمع الأرقام .
لعلك أن تسارقني النظر ، مفكراً : أي غباوة في إفساد صباحك بهذا
الحساب ! .
أيها الطفل ، لقد فقدت فنّ الإهتمام بالمضي والطين الممجون .
إنني أبحث عن دُمى ثمينة ، فأنا أحتجن أكواماً من الذهب والفضة .
إنك تخلق من أي شيء تجده دُمى سارة . أما أنا فإنني أبعد قواي
ووقتي بحثاً عن الأشياء التي لن أستطيع الفوز بها .
إنني أبذل جهدي في عبور بحر اللذات بقاربي الهزيل الصغير وأنسى ،
فيما أقوم بذلك أنني ألهو بدميتي .

الفلكي

لقد اجتزأت بهذا القول : حين يتسلّل البدر المدور مساءً بين أغصان
شجر (الكادام) تُرى من يقدر أن يمسك به ؟
ولكنّ (دادا) ^(١) سخر منّي وقال : لم أرَ ، عمري كلّهُ ، غيباً مثلك ، إن
البدر لجذّ بعيد عنا فكيف يمكن الإمساك به ؟
وقلت : يالك من مجنون يا (دادا) أتقدر أن تدّعي بأنّ أمنا بعيدة عنا
حين نُطلّ من النافذة وتبسم لنا ونحن نلعب في فناء الدار ؟
وأجاب (دادا) : يالك من طفل ساذج ! ولكن كيف تستطيع أن تظفر
بشبكة تسع البدر كلّهُ ؟
وقلت : من المؤكد أنّك تقدر أن تناله بيدك .
وتهاتف (دادا) ضاحكاً ، قائلاً : لم أرَ ، عمري كلّهُ ، غيباً مثلك ، لعلّك
أن ترى إلى البدر حين يقترب كلّهُ هو كبير .
وقلت : أيّ هراء تتلقّنه في مدرستك ، أيتراءى وجه أمنا كبيراً حين
تنحني لتقبّلنا ؟
وردّد (دادا) قائلاً : يالك من طفل ساذج !

غيوم وأمواج

— أمّاه ، أولئك الذين يعيشون بين الغيوم يهتفون لي إننا نلعب منذ
يقظتنا حتّى ينقضي النهار .

(١) (دادا) : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

إننا نلعب مع الفجر الذهبي ونلهم مع القمر الفضي .
وقلت : كيف أستطيع أن أصل إليكم ؟
فأجابوا : تعال الى طرف الأرض ، وارفع يديك نحو السماء ، فلسوف
تحملك الغيوم .
وقلت : إن أمي تنتظرني في البيت ، فكيف أقوى على مغادرتها
والمجيء إليكم ؟
حينذاك ابتسموا ومضوا طائرين .
ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمي : سوف أمثل أنا دورَ
السحاب وتمثلين أنتِ دورَ القمر ، سوف ألك بيدي الاثنين ، وسوف
يمسي سقف بيتنا السماء الزرقاء .
أولئك الذين يعيشون بين الأمواج يهتفون لي : إننا نغني من الصباح
حتى المساء ونهيم في كل مراد . لا ندري أتى نمر .
وسألت : ولكن كيف السبيل الى الإجتماع بكم ؟
فأجابوا : تعال الى طرف الشاطئ ، وقف ثمة ، وعيناك مغمضتان ،
فلسوف تحملك الأمواج إلينا .
وقلت : إن أمي تنتظرني ، مساءً ، في البيت ، فكيف أقوى على
مغادرتها والمجيء إليكم ؟
حينذاك ابتسموا ورقصوا ثم مضوا .
ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمي : سوف أمثل أنا دورَ
الأمواج وتمثلين أنتِ دورَ الشاطئ البعيد .
سوف أقلب ثم أقلب حتى أفسد ركبتك ، مرسلأ ضحكتي . ولن يعلم
إنسان ، في الأرض ، مكاننا ، أبداً .

زهرة الشامبا

افتراضي أنني انقلبت ، طلباً للدعابة ، وحلّت الى زهرة (شامبا) ،
ونموت عالياً فوق غصن من هذه الشجرة ، وجعل النسيم يهزني وأنا أضحك
وأرقص فوق تفرتها^(١) الغضة ، تُراك تتعرفين علي يا أمي ؟
لعلك أن تنادينني : يا طفلي الصغير أين أنت ؟ حينذاك سوف أضحك
وحدي وألزم الهدوء .

سوف أفتح ، خلسةً ، أفوافي وأراقبك وأنت منصرفة الى عملك .
وحين تمرين ، في ظلّ شجرة (الشامبا) ، إثر استحمامك ، وتتخذين
سمتك ، وشعرك المبتل مرسلٌ على كتفك ، نحو القاعة الصغيرة التي تلهجين فيها
بصلواتك ، فليعلّك أن تتنسمي شذا الزهرة ، ولكّلك لن تعلمي أنه يذوق مني .
وحين تتخذين مجلسك الى جانب النافذة ، بعد طعام الغداء ، لتقراي
في كتاب (الرامايانا) ، وظلّ الشجرة يتنقل بين شعرك وركبتك فلسوف أريق
ظلّي الصغير فوق صفحة كتابك حيث تقرأين ، تُراك تحزرين أنه ظلّ طفلك
الصغير ؟

وحين تذهبين ، مساءً ، إلى مريض البقر ، ويدك تحمل السراج
المضيء ، فلسوف أتناهوى ، فجأةً ، على الأرض ، وأحول ، مجدداً ، إلى
طفلك الصغير ، وأستعطفك لتروي لي حكاية :

.. أين كنت يا طفلي العاصي ؟

.. لا أريد أن أذكر لك ذلك يا أمي .

لعلّ هذا ما قد نردده كلانا ، آنذاك .

(١) التفرّة : أول ما يبدو من ورق الشجر .

أرض الجح

إذا علم الناس أين يقوم قصر الملك ، فسرعان ما يغيب في القضاء .
إن جدران مشيّد بالفضة وسقفه مبني بالذهب البراق .
تسكن الملكة قصرأ ذا سبعة أفنية ، وتُزهى بجوهره ، ثمنها ثروة سبع ممالك .

ولكن دعيني أ همس في أذنك يا أمي وأسألك : أين قصر ملكي ؟
إنه في ركن من سطح بيتنا ، هناك ، حيث يقبع أصيص نبات (التولسي) .

الأميرة ترقد ، مضطجعة ، على الشاطئ البعيد ، شاطئ البحور السبعة ، الممتنعة العبور .

ليس ثمة إنسان ، في الدنيا ، سواي ، يتأتى له أن يجدها .
تزدان ذراعاها بالأساور وتتعلق بأذنيها لؤلؤتان ، وينحدر فرعها ، متموّحاً ، حتّى يلامس الأرض .

سوف تستيقظ حين أمستها بمخصرتي السحرية ، وسوف تتهاوى جواهر من شفيتها ، حين تبتسم .

ولكن دعيني أ همس في أذنك يا أمي لأذكر لك بأنّها هناك في ركن من سطح بيتنا حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .

حين يآزف الوقت الذي تردين فيه النهر لتفتسلي ، فاصعدي الى السطح .

سوف تجديني ألزم ركناً منه ، هناك ، حيث تتلاقى ظلال الجدران .
لقد أتيح للهرة الصغيرة وحدها ، أن ترافقني ، لأنها تعلم أين يسكن الحلاق ، في الحكاية .

ولكن دعيني أهنس في أذنك يا أمي لأذكر لك أين يسكن الحلاق في الحكاية .

إنه مقيم ، في ركن السطح ، حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .

أرض المنفى

أماه لقد أريد النور في السماء ، ولأعلم ماهو الوقت .

لقد برمت بلعبي ، ولهذا فقد قصدتك . اليوم هو السبت ، يوم عطلتنا .

دعي عملك يا أمي ، تعالي اجلسي هنا ، قرب النافذة ، وقولي لي أين

تمتد صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة .

إن ظل المطر قد غطى كل منفسح السماء .

البرق الضاري يمزق بمخالبه الفضاء .

وحين تهدر الغيوم ويتهزّم الرعد ، فإنني أحب أن أشعر بوجيب قلبي

الخائف وأن أتعلق بك .

وحين يسحّ المطر الغزير طوال ساعات ، فوق أوراق المامبو وتهتزّ

نوافذنا وتضجّ ، إنا جاذبتها الريح ، فإنني أوشّر أن أمكث في الغرفة ، ملتزماً

جانبك ، وأنت تتحدثين لي عن صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة .

تُرى أين تمتد يا أمي ؟ على شاطئ أي بحر ؟ في سفح أي ربوة ؟ في

مملكة أي ملك ، تراها تنبسط ؟

- هناك حيث لا تلقي وشيعاً يفصل بين الحقول ولا درياً تنساب فيها ،

درياً تقود الفلاحين الى قريتهم ، مساءً ، أو تقود المرأة حمالة الحطب

اليابس ، من الغابة الى السوق . هناك حيث تمتد الرمال ، ينجم في مواضع

منها عشبٌ أصفرٌ وتنصب شجرة واحدة عشش فيها عصفوران حكيما

عجوزان ، أجل هناك ، تنبسط صحراء (التيابنتار) .

في ميسوري أن أتخيل كيف يمتطي ابن الملك ، في يوم غائم كهذا اليوم ،
سهوة جواده الرمادي ليجوز الصحراء وحده . بحثاً عن الأميرة المضطجعة
الحبيسة في قصر المارد الجبار ، القائم على حيد هذا الماء المجهول .
وحين يحبو ضباب المطر الى الفضاء القصي ، وينقض البرق كأنه وخزة
الألم المدهام ، تراه يفكر في أمه المسكينة التي هجرها الملك ، في أمه التي
تنظف الحظيرة وهي تكفكف دمعها ، فما يخبُّ به جواده في صحراء
(التيابنتار) التي ذكّرتها الخرافة .
انظري يا أمي ، يكاد الظلام أن ينتشر ، قبل أن يتجرّم النهار ، هناك في
درب القرية لا يسعى أي مسافر .
لقد عاد الراعي الفتى من المرعى مبكراً ، وغادر الرجال حقولهم
ليجلسوا فوق شباكهم ، تحت طنوف أكوأخهم الصغيرة ، وهم يجيلون
أبصارهم في السحب المتوعدة .
أماء ، لقد تركت كتبتي على الرف ، حنانيك ، لا تسأليني ، اليوم ،
إعداد دروسي .
حين أضحي كبيراً كأبي ، سوف أتعلم كل ما يجب أن أعرف .
ولكن اذكري لي ، اليوم فقط ، أين تمتد صحراء (التيابنتار) .

اليوم المطير

تجمعت غيوم مكفهرة ، في خفة فوق طرف الغابة المظلم .
إيه يا طفلي إياك أن تخرج .
إن أشجار النخل المصطفة على شاطئ البحيرة ، تتحدر بذراها السماء
العابسة وتفيء الغربان ذات الأجنحة المتسخة إلى الصمت فوق أغصان
الحناء ، وتخيم ، على الضفة الشرقية ، ظلمة داجية .

إن بقرتنا المربوطة بالوشيع تخور خواراً عالياً .
 إليه ياطفلي ابقى هنا ، ريثما أقودها إلى الحظيرة .
 ويتدافع الرجال مزدحمين إلى الحقل المغمور بالماء ، بحثاً عن
 الأسماك المنزلة من البرك الطافية ، ويجري الماء المجتمع من المطر
 ويتفطر إلى سواقٍ منسربة في حدود ضيقة فكأنه طفل ضاحك قد فصل عن
 أمه وعدا أمامها مازحاً معابثاً .
 اصغ إنني أسمع صوتاً يهتف بملاح المعبر^(١) .
 إليه ياطفلي لقد غلبت الغتمة ، ولم يعد العبور بالمركب متاحاً .
 وبدت السماء تركض^(٢) المطر الجامحة المجنون السريع ، وتراءى
 النهر الهادر نافذ الصبر ، وصدرت النساء ، عجالي ، من نهر الغانج ،
 بجرارهن الملاى .
 ينبغي أن تعد سُرُج المساء .
 إليه أيها الطفل إياك أن تخرج .
 إن الطريق المفضية إلى السوق مقفرة والدرب المحاذية للنهر زلقة والريح
 تزمجر هائجة ، بين أغصان المامبو كأنها طريدة ضارية قد وقعت في شبكة .

زوارق ورقية

يوماً بعد يوم ، أذفع بزوارقي الورقية ، واحداً إثر واحد ، في الجدول
 الجاري .
 لقد كتبت عليها ، بأحرف سود كبيرة ، اسمي واسم القرية التي أسكن
 فيها .

(١) المعبر : المركب الذي يعبر به .

(٢) ركض الفارس الجواد : استحبه للعدو .

أملاً أن يلقاها إنسان في أرض غريبة ما ، ويعرف منها من أنا .
 لقد أوسقت زوارقي الصغيرة بزهور (الشيولي) المقطوفة من حديقتنا ،
 أملاً أن يتاح لهذه الزهور ، زهور الفجر بأن تنقل غضة رينا إلى أرض الليل .
 ودفعت زوارقي وشخصت ببصري إلى السماء ، فشمت قزعات من
 الغيوم تنصب أشرعتها البيضاء الحدياء .
 لأدري أي رفيق لي عابث ، في السماء ، يحدر إلى هذه الغيوم نسيماً ،
 لتجري مع زوارقي .
 وحين يجن الليل ، فإنني أدفع رأسي بين ذراعي وأحلم أن زوارقي
 تمخر ، بعيداً ، بعيداً ، في موهن من الليل تحت أشعة النجوم ، تواكبها
 جنيات النوم ، متخذة حمولتها سلالاً ملاء بالأحلام .

الملاح

لقد رسا قارب الملاح (مادهو) في مرفأ (راجكوني) . وكان محملاً
 بالقنب ، دون أي طائل ، وظل ، ثمة ، راسياً عاطلاً منذ أمد بعيد .
 كم أود لو أنه يعيرني قاربه فإني أزوده بمائة مجداف وأنصب له خمسة
 أشرعة أو ستة بل سبعة .
 ولن أقوده إلى أسواق غبية .
 سوف أمخر به الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .
 أماء لا تنتبذي ركناً ، لتبكي في غيابي .
 فلم أذهب مثل (رامشاندرا) إلى الغاية ، لأعود منها بعد أربعة عشر
 عاماً .
 سوف آخذ بمدرجة الأمير في الحكاية ، وأوسق قاربي بكل مايطيب
 لي .

سوف أصطحب صديقي (آشو) وسوف نمخر ، والغبطة ملء أعطافنا ،
الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .
سوف ننصب أشرعتنا ، حين يسفر الفجر .
وفي الظهر ، حين يأزف وقت استحمامك في البركة ، نكون قد شارفنا
أرض الملك العجيب .
سوف نجوز مخاضة (تيربورني) وندع صحراء (التيابنتار) خلفنا .
وحين نعود ، فلسوف أجد الظلمة توشك أن تنتشر ، ولسوف أحدثك
عن كل ما شاهدت .
سوف أمخر الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .

الضفة الأخرى

كم أود أن أذهب إلى هناك ، إلى الضفة الأخرى من النهر .
حيث نيطت تلك القوارب بجذوع شجر المامبو ، في صف واحد .
هناك ، يعبر الرجال بقواربهم النهر ، صباحاً ، حاملين على عواتقهم
محاربتهم لحرق حقولهم النائية .
هناك ، يدفع الرعاة قطعانهم الخوارة ، لتسبح إلى المرعى المجاور ،
من هناك يؤوبون جميعاً إلى بيوتهم مساءً ، تاركين الجزيرة الصغيرة
الكاسية بالعشب تعوي فيها بنات آوى .
أماه هلاً سمحت لي بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟
يقال إن خلف هذه الضفة العالية ، تتوارى برك عجيبة .
إلى هناك تفرع أسراب البط الوحشي ، إثر موسم الأمطار .
هناك تربو فرائس القصب الكثيفة ، على عذار البرك ، حيث تضع الطيور
المائية بيضها .

هناك ، يخلّف الدجاج ذو الذيل المتخلّج ، آثارَ برائنه الصغيرة ، فوق
الوحد النظيف .

هناك تدعو ، في المساء ، الأعشاب السواق^(١) المتماوجة المتوجة
بالزهور البيضاء أشعة القمر لتسبح فوقها .

أماه ، هلاً سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟
سوف أتقل ، من ضفة إلى ضفة ، وسوف يرامقني ، بإعجاب ، صبيان
القرية وبناتها ، وهم يغتسلون .

وحين تستشرف الشمس كبد السماء ويزحل^(٢) الضحى عن مكانه
للظهيرة ، فلسوف أقدم راكضاً إلى أمي وأقول لها : أماه إنني جائع .
وحين ينقضي النهار ، وتجنم الظلال ، تحت الأشجار ، فلسوف أقدم مع
الغروب .

ولن أتركك أبداً ، وأقصد المدينة لأكتدح مثل أبي .
أماه ، هلاً سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟

مدرسة الزهور

حين تنهزم رعود الغيوم العاصفة في السماء ، وتهطل أمطار حزينان .
فإن الريح الشرقية الرطبة ، تنسم عبر أشجار الخلدج ، وتنفخ في
مزمراها بين أغصان المامبو .

وحينئذ تتفتح أكمام الزهور ، فجأة ، ولا يدري أحد ، من أي مكان قد
وافت وتشرع في رقصها ، فرحة فوق العشب .
أماه ، أعتقد ، أن للزهور مدرسة ، في جوف الأرض .

(١) السواق : الطويلة الساق .

(٢) زحل عن مكانه : زال وتبقى . من فصيح العامية .

إنها تتلقن دروسها ضمن أبواب مغلقة ، وإن رغبت في الظهور قبل
الأوان ، فإن معلمها يلزمها بأن تقف في ركن ما .
وحين يقبل موسم الأمطار ، فإنها تحظى بعطلتها .
إن الأغصان تصطفق في الغابة ، وترتعش الأوراق على هبة الريح
النكباء ، وتصفق السحب المرعدة بأيديها الضخمة .
وتنطلق الزهور الطفلة ، بثيابها ، الصبيغة بالحمرة والصفرة والبياض .
ألا تعلمين يا أمي أن مسكنها في السماء ، حيث تقيم النجوم .
ألم تلحظي كيف تمنى أن تصل إلى هناك .
ألا تعلمين ما الذي يحفزها على العجلة .
أجل ، في ميسوري أن أحزر لمن تمد أذرعها : إن لها مثلي أمأ .

التاجر

تصوري يا أمي ، أنك ستلزمين البيت ، وأنني بسبيل الرحيل إلى بلاد
مجهولة .
وتصوري أن زورقي معد في مرسأه ، موسق بالحمولة .
والآن ، فكري جيداً يا أمي ، قبل أن تذكر لي ماذا تودين أن أجلبه
لك ، في عودتي .
أتريدين ذهباً ، أكواماً من الذهب ؟
هناك ، على ضفاف الجداول الذهبية ، فإن الحقول حافلة بالحصاد
الذهبي .
وفي ظلال ممر الغابة تتهاوى زهور (الشامبا) الذهبية على الأرض .
سوف أجمعها كلها لك في منات السلال .
أمأه . أتريدين لآلي كبيرة تماثل قطرات غيث الخريف ؟

سوف أبحر إلى شاطئ جزيرة اللؤلؤ .
هناك ، ترتعش لآلىء براقّة ، في سدفة الفجر ، فوق زهور المرج ،
وتنهمر لآلىء ، قطرة ، قطرة ، على العشب ويتناثر زبد أمواج البحار الهائج ،
لآلىء ، فوق رمل الشاطئ .
سوف أجلب لأخي زوجاً من الجياد المجنحة ، ليطير بين الغيوم .
سوف أجلب لأبي قلماً سحرياً ، يدرج وحده في كتابه ، دون علم
صاحبه .
لك أنتِ يا أمي ، سوف أجلبّ الجوهرة والسفط اللذين بذل سبعة ملوك
ممالكهم ثمناً لها .

٥٩

لو أنني لم أكن طفلك ، يا أمي الحبيبة ، بل كنتُ جرواً صغيراً ، تراك
تنهينني قائلة : مه ، إن حاولتُ أن أكل من صحنك ؟
تراك تزجريني ، قائلة : اذهب ، أيها الجرو الشرير .
على رسلك إذن يا أمي ، على رسلك ، لن آتي اليك حين تنادينني ، ولن
أدعك تطعميني بعد الآن .
لو أنني لم أكن طفلك يا أمي الحبيبة ، بل كنت ببغاء صغيرة ، تراك
تقيدينني ، خشية أن أطيّر ؟
تراك تتوعدينني بإصبعك قائلة : أيها الطائر القبيح الذي لا يني ينقر
قيده ، في الليل والنهار .
على رسلك إذن ، يا أمي على رسلك ، سوف أعدو هارباً الى الغابة ، ولن
أدعك تضميني بذراعيك بعد الآن .

نزعہ

حين يدوي درداب الطبل^(١) ، في الصباح ، عشر مرّات ، وأتخذ سمّي الى المدرسة .

فإنني ألتقي ، كلّ يوم ، بالبائع ينادي : أساور ، أساور زجاجيّة .
لاشيء يحمله على حتّ خطاه ، ليس ثمة درب عليه أن يسلكها أو مكان عليه أن يقصده ، أو زمان عليه أن يؤوب فيه الى البيت .
كم أودّ أن أصبح بانعاً ، أسلخ سحابة يومي ، وأنا أجوب الدروب متادياً : أساور ، أساور زجاجيّة .

وحين أعود من المدرسة ، في الساعة الرابعة ، عصراً .
فإنني أستطيع أن أرى من خلف حاجز هذه الدار الى البستاني وهو يحفر الأرض .

إنه يعمل بمسحاته ما يحلوه ويعقر ثيابه بالتراب ، ليس ثمّ إنسان يؤثبه إن لوحت الشمس أو بللته الأمطار .
كم أودّ أن أصبح بستانيّاً ، وأنصرف الى الحفردون أن يثني أي إنسان .
وحين تنتشر العتمة ، في المساء ، وتبعث بي أمّي الى السرير .
فإنني أستطيع أن أرى من نافذة مفتوحة الى العساس^(٢) ، غادياً رانحاً .
الطريق مقفرة مظلمة ومصباح الشارع قائم كأنه عملاق ذو عين حمراء واحدة في هامته .

ويرتج العساس سراجة ، ويمشي وظلّه يسمي الى جانبه ولا يفيء الى سريريه ، عمره كلّ ، مرّة واحدة .

(١) درداب الطبل ، صوته .

(٢) العساس ، حارس الليل .

كَمْ أَوْدٌ أَنْ أَضْحِي عَسَاساً ، أَجُوبُ الدُّرُوبَ ، طَوَالَ اللَّيَالِي ، وَأَطَارِدُ
بِسِرَاجِي الظَّلَالِ .

المتعالي

أُمَاهُ ، إِنَّ طِفْلَتَكَ لِحِمَقَاءَ ، إِنَّهَا تَبْدُو هُرَاءَ بَعِثْهَا الْوَلِيدَ ، إِنَّهَا لَا تَسْتَبِينُ
الْفَرْقَ بَيْنَ ضَوْءِ الشَّارِعِ وَضَوْءِ النُّجُومِ .
وَحِينَ نَلْهُو بِلَعِبَةِ أَكْلِ الْحَصَى فَإِنَّهَا تَحْسِبُهُ طَعَاماً سَائِغاً وَتَحَاوِلُ أَنْ
تَضْعَهُ فِي فَمِهَا .
وَحِينَ أَفْتَحَ أَمَامَهَا كِتَاباً ، وَأَطْلُبُ إِلَيْهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ : آ ، ب ، ج ، فَإِنَّهَا
تَمَزَّقُ بِيَدَيْهَا الصَّفَحَاتِ ، وَتَتَهَانَفُ ضَاكِكَةً ، دُونَ سَبَبٍ ، هَكَذَا تَرِيدُ طِفْلَتَكَ
الصَّغِيرَةَ أَنْ تَتَعَلَّمَ .
وَحِينَ أَهَزَّ رَأْسِي غَضَباً ، وَأَوْنَبَهَا قَانِلاً ، أَيْتَهَا الشَّرِيرَةَ . فَإِنَّهَا تَضْحَكُ
وَتَحْسِبُ ذَلِكَ هَزْلاً .
كَلْنَا يَعْلَمُ أَنَّ أَبِي غَانِبٌ ، وَلَكِنْ ، حِينَ أَنَادِي وَأَنَا أَلْعَبُ : أَبْتَاهُ ، فَإِنَّهَا
تَجِيلُ بَصَرَهَا عَجَباً ، وَتَظُنُّ أَنَّ أَبَاهَا قَرِيبٌ .
حِينَ يَقْدُمُ الْغَسَّالُ بِحَمِيرِهِ لِيَنْقُلَ عَلَيْهَا الثِّيَابَ ، وَأَتَّخِذُ مِنْ حَمِيرِهِ طَلَاباً
لِي ، ثُمَّ أَفْسِرُ لِأَخْتِي أَنَّنِي مَعْلَمٌ مَدْرَسَةٍ ، فَإِنَّهَا تَزْعَقُ ، دُونَ سَبَبٍ ،
وَتَنَادِينِي : دَادَا^(١) .
إِنَّ طِفْلَتَكَ الصَّغِيرَةَ تَرِيدُ أَنْ تَمْسِكَ بِالْقَمَرِ ، إِنَّهَا لِمُضْحِكَةٌ ، إِنَّهَا
تَدْعُو : غَانُوشَ بَدَلاً مِنْ غَانِيشِ^(٢) .

(١) دادا : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

(٢) غانيش : اسم متداول في الهند .

الرجل الصغير

أنا صغير لأنني طفل ، سوف أصبح كبيراً حين أصير في عمر أبي .
سوف يقول لي معلّم : لقد تأخّرت ، أحضر لوحك وكتبك .
سوف أجيب : ألا تعلم أنني كبير مثل أبي ؟ ولست بمحتاج الى مزيد
من الدروس .

سوف يعجب المعلّم ويقول : في مكنّته أن يدع كتبه ، إن أراد ، فقد
أضحى الآن رجلاً ، سوف أرتدي ثيابي وحدي وسوف أتخذ أدراجي نحو
المعرض حيث تزدهم جموعٌ غفيرة .

سوف يخفّ عني إليّ ويقول لي : أخشى أن تضلّ طريقك يا بنيّ دعني أحملك .
سوف أجيب : ألا ترى يا عمّي ، أنني كبيرٌ مثل أبي ، أريد أن أذهب
الى المعرض وحدي .

سوف يقول عمّي : أجل ، إنّه يقدر أن يذهب ، أنتى يشاء ، فقد أضحى
الآن رجلاً .

سوف تقبل أمي من الحمام لتجدني أُمّح حاضتي دراهم ، فلنا أعرف
كيف أفتح الصندوق بمفتاحي .

سوف تصرخ أمي وتردّد : ماذا تفعل أيها الطفل العايب ؟
سوف أقول لها : أمّاه ، ألا تعلمين أنني كبير مثل أبي ، وأن عليّ أن
أهيب الحاضنة فضة ؟ .

سوف تردّد أمي : في مستطاعه أن يمنح دراهم من يوده ، فقد أضحى رجلاً .
وفي عطلة تشرين الأول سوف يعود أبي الى البيت ، حاملاً إليّ من
المدينة أحذية صغيرة وثقفاً حريرية^(١) طائناً أنني ما زال طفلاً صغيراً .

(١) الثناض وجمعه ثفن : أزوار الطفل الصغير .

سوف أقول له : أعطها الى (دادا) إذ إنني رجلاً مثلك .
سوف يفكر أبي ويقول : في ميسوره أن يشتري ثيابه كما يرغب فقد
أضحى رجلاً .

الساعة الثانية عشر

أماء ، إنني أتشوف إلى أن أدع دروسي جانباً ، لقد عكفت على
كتبي ، منذ متوع الصباح .
تقولين إن الساعة لا تتجاوز الثانية عشرة ، ولكن ، افترضني أنه لا يوجد
أي تأخر ، أفلا تستطيعين أن تتصورتي أن العصر قد حل ، فيما تشير الساعة
إلى الثانية عشرة .
في ميسوري أن أتخيل ، في يسر ، أن الشمس قد لامست طرف حقل
الأرز ، وأن الصيادة العجوز تقطف الأعشاب ، لتعدها عشاء لها ، إلى جانب
البركة .
إنني أقدر أن أغمض جفني لأتمثل الظلال ، تزداد قتامة ، تحت أشجار
(المادار) ، ويتراءى ماء البركة أسودَ براقاً .
مادامت الساعة قد تشير في الليل إلى الثانية عشرة فعلاً لا يتسقى الليل
أن يحل حين تشير الساعة في الظهيرة إلى الثانية عشرة ؟

حرفة الكاتب

تقولين إن أبي يؤلف شتيت الكتب ، بيد أنني لا أفقه شيئاً مما
يخط .

لقد أنفق السهرة كلها ، وهو يقرأ لك ، ترى أتدركين في الحق ، ما
يعنيه ؟

أي حكايات طريفة تستطيعين أن تقصيهما علينا يا أمي ، وإنني
لأنساء ، عجباً ، لم لا يكتب أبي مثلها ؟ ترى ألم تقص عليه أمه حكايات
المردة والجن والأميرات . ؟

تراه قد نسيها كلها ؟

وفي الغالب ، حين يتلأأ في الذهاب إلى الحمام ، فإن عليك أن تمضي
وتناديه مائة مرة .

إنك تنتظرينه وتجهدين في حفظ صحون الطعام ساخنة ، من أجله ،
فيما يعكف على الكتابة ، ناسياً كل شيء .

إن أبي يلهو دوماً بتأليف الكتب .

وحين يتفق لي أن أذهب لألهو في غرفته ، تبادرين إلى البحث عني
وتدعينني بالطفل العاث .

وحين تنأهى مني أقل ضجة ، تخاطبينني : ألا ترى إلى أبيك وهو
يشتغل ؟

أي لذة يستمرنها في أن يكتب ويكتب ويكتب ؟

وحين أمسك بقلمه أو بريشته وأخط في دفتره ، مثلما يفعل : أ ، ب ،

ج ، د ، هـ ، و ، ز ، فعلام تسخطين علي يا أمي ؟

إنك لا تنبسين ببنت شفة حين يكتب أبي .

وحين يبدد أبي أكواماً من الورق ، فلا يكرئك ذلك البتة .

ولكن حين أمسك بوريقة واحدة لأصنع منها قارباً ، تقولين : يالك من

طفل مضايق !

مارأهك إذن بأبي الذي يخربش في صحائف وصحائف ويملاها بخطوط

سوداء في كلا وجهيها ؟

الساعي الشريف

لِمَ تتعدين الأرض ، هادئة صامته ؟ قللي لي ، يا أمي الحبيبة .
إن المطر يسحّ من النافذة المفتوحة ويبلّل جسمك كله ، وأنت غير
آبهة لذلك .

ألا تسمعين درداب الطب يدوي أربع مرات ، لقد أزف أوان عودة أخي
من المدرسة إلى البيت .

ماذا دهاك ؟ لماذا تتراءين كئيبة ؟

ألم تتلقي ، اليوم رسالة من أبي ؟

لقد رأيت الساعي يحمل الرسائل في قمطرة^(١) ، ليوزعها على معظم
أهالي البلد .

بيد أنه يحتفظ برسائل أبي ، ليقرأها وحده ، إنني لموقن بأن الساعي
رجل شرير .

ولكن لاتحزني لذلك ، يا أمي الحبيبة .

ففي غد تقام سوق القرية المجاورة ، اطلبي إلى الخادم أن تشتري لي
أقلاماً وورقاً .

سأكتب أنا رسائل أبي كلها ، ولن تجدي فيها خطأ واحداً .

سأخط ابتداءً من حرف الألف إلى حرف الكاف .

ولكن لم تبتسمين يا أمي ؟

ألا تعتقدين أن في ميسوري أن أكتب مثل أبي ، كتابة جميلة ؟

غير أنني سأسطر الورق ، في عناية ، سأخط الحروف كلها كبيرة رانعة .

(١) القمطر : مانتان فيه الرسائل والكتب

وحين أنتهي من كتابة رسالتي ، أفتظنين أنني سأخذ بمدرجة أبي
المخبول فأرمي بالرسالة في قمطر هذا الساعي البغيض .
سأحملها أنا إليك ، دون انتظار ، سأعينك على قراءة خطي ، حرفاً
فحرفاً .
إنني أعلم أن هذا الساعي لا يود أن يحمل إليك الرسائل الرقيقة .

البطل

أماء ، لتصور أننا ماضيان في الرخيل وأننا نضرب في أرض عجيبة
محفوفة بالمخاطر .
أنت تسعين في حداجتك^(١) وأنا على صهوة كميت يخب إلى جانبك .
الشمس تجنح إلى المغيب ، إنه المساء . وتمتد مفازة (جوارديغي)
جهمة غبراء ، في منسرح نظرنا ، وتنفسخ البداء مقفرة جرداء .
وتفكرين واجفة ، وتتساءلين : لأدري أين وصلنا ، وأقول لك ، أماء ،
لاتخافي .
المرج مكسو بالأعشاب الشائكة ، تعدو في بعض أطرافها درباً ضيقاً
مهممة .
وفي المدى الواسع ، لا يبين أي قطع ، فقد عادت القطعان إلى حظائرها
في القرى .
الحلقة تنتشر ، والظلمة تغزو الأرض والسماء ، ونحن لا ندري أنى ندلج .
وتناديني ، فجأة ، وتسأليني بصوت خفيض : ماهذا النور الذي يشع
قرب الشاطئ ؟

(١) الدجاجة : هودج تركب فيه المرأة .

في تلك اللحظة يدوي زنير مخيفاً ، وتهول أشباح نحونا .
وتتمسكين بحداجتك وترددين أسماء الله ، في دعائك .
ويفزع الحمالون ، إلى أجمة شائكة ، وقد ارتعدت فرائصهم ، فَرَقاً ورعباً .
وأصرخ : لاتفزعني يأمي ، فأنا هنا .
ويتقدم المغيرون ، شيئاً فشيئاً ، وقد بدوا شُعَتَ الشعور ، شاهرين في
أيديهم العصي الطويلة .
وأصرخ : احذروا أيها الأشرار ، إن خطوة واحدة تنتهي بكم إلى
الردى .
ويتعالى مجدداً ، زنيرهم المخيف ، ويتقدمون إلى الأمام .
وتشدين على يدي وتقولين : بحق السماء ياطفلي الحبيب ابتعد
عنهم .
وأقول : ستريين ما أنا فاعل بهم .
وأهمز جوادي وأركضه في تقريب^(١) هائج ، وسيفي وترسي يقمعان معاً .
وتدور معركة رهيبة يأمي ، قد تبعث في أطرافك الرعدة ، لو يتسنى لك
أن تشاهدها من حداجتك .
ويلوذ أكثرهم بالفرار ، ويُضحى بعضهم قطعاً ممزقة .
وأعلم أنك تفكرين وأنت جالسة منفردة ، بأن طفلك قد لقي ، ولا بد
مصرعه ، إذ ذاك .
ولكنني أقدم إليك ، مخضباً بالدماء ، وأقول لك : أماء لقد انتهت
المعركة .
وتهبطين من حداجتك ثم تقبلينني وتضمينني إلى صدرك وتتسألين
تُرى ماذا كنت أفعل لو لم يرافقني طفلي ؟

(١) تقريب لجواد : عدوه .

تقع ، كل يوم ، آلاف الحوادث العقيمة ، فلم لا يتفق لمثل هذا الحادث
أن يحظى بأن يكون حقيقة واقعة ؟
لعله أن يشابه قصة في كتاب ، وقد يعلق عليه أخي : ثراه ممكناً ؟ إنني
أتمثله جدّ طريف .
وقد يردد أهالي القرية جميعاً : أليس من حسن الطالع ، أن يكون هذا
الطفل إلى جانب أمه ؟

النهاية

أفد الترحل يا أمي ، فأنا ذاهب .
حين تمدين ذراعيك ، في الغلس^(١) الشاحب من الفجر المنزوي نحو
وليدك في السرير ، سوف أقول لك : ليس طفلك هنا ، أماء أنا ذاهب .
سوف أحول الى زفرة طرية من النسيم تداعبك ، سوف أحول الى غصون
الماء حين تستحمين فيه فألثمك وألثمك .
وحين يجلد المطر ، في الليالي العاصفة أوراق الشجر ، سوف تسمعين
وأنت في السرير همسي ، وسوف تشعّ ضحكتي مع البرق ، وتنسرب من
النافذة المفتوحة الى غرفتك .
وحين تأوين الى مضجعك وينقضي هزيع كبير من الليل وأنت تفكرين
في ابنك ، فلسوف أغتي لك من ذرى النجوم : نامي يا أمي نامي ، ولسوف
أندحرج على أشعة القمر الهائلة حتى أشارك سريرك وأضطجع على صدرك
وأنت نائمة .

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

سوف أنقلب الى حلم وانزلق من أجفانك المنفرجة حتى أصل الى أغوار نومك ، وحين تستيقظين وتجيلين طرفك حواليك ، وأنت مرتعشة ، فلسوف أنسل من الظلمة ، مرفراً ، كأنني يراعة مضيئة .
وفي عيد (بوجا) الكبير حين يقدم أطفال الجيران ليلعبوا ، في فناء لدار ، سوف أذوب في موسيقا التاي وأخفق في قلبك ، سحابة اليوم .
سوف تقدم خالتي الطيبة ، حاملة هدايا عيد (بوجا) وسوف تسألك :
'ين طفلك يا أختي ؟
سوف تقولين لها في رقة : إنه في إنسان عيني ، إنه في جسمي ، إنه في روحي .

الذاء

كان الليل داجياً حين مضت ، وكانوا مستغرقين في سبات .
الليل حالك ، الآن ، وإنني أناديها : عودي يا حبيبتي فإن الكون غاف ، وقد لا يدري أحد إن قدمت لتمكثي فترة قصيرة ، فيما تتلامح النجوم .
لقد مضت ، حين كانت الأشجار مبرعمة ، وكان الربيع في ريعان شبابه .
إن الأزهار منورة ، الآن ، وأناديها : عودي يا حبيبتي ، الأطفال يقطفون الأزهار ، ثم يبعثونها في غمرة لهوهم الغافلة ، وإن عدت وتناولت زهرة صغيرة ، فلن يشعر أحد بفقدانها .
إن الذين كانوا يلهون مايزالون يستمرنون اللهو - فما أكثر ماتبدد الحياة!

وأصغي الى لغوهم ، وأقول : عودي يا حبيبتي ، فإن قلب أمك يطفح

بالحب ، حتى حفافيه ، فإن عدت واختلست منها قبلة واحدة ، فلن ينقَسَ بها على أَمَك أيّ إنسان .

طلّاع الياسمين

آه ، يا هذا الياسمين ، هذا الياسمين الأبيض! أحسبني ما أزال أذكر اليوم الأوّل الذي ملأت فيه ذراعيّ بهذا الياسمين ، بهذا الياسمين الأبيض .

لقد شغفتُ بنور الشّمس ، بالسّماء ، بالأرض الخضراء .

لقد تناهى الى سمعي الخريّر الناعم من النهر المتترقّق في ظلمة منتصف الليل .

لقد سعى الخريف وغروب الشّمس إلى لقائي ، عند منعطف الطريق ، في العزلة المنزوية ، كعروسٍ تحسر عن خمارها لتستقبل حبّيتها .

لما تزل ذاكرتي معطّرةً ، بطلّاع الياسمين الأبيض الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

لقد مرّت في حياتي أيّامٌ رغيدةٌ ، ولقد ضحكت ، مع اللاهين ، في ليالي الأعياد .

وفي الأصباح المربّدة الممطرة ، جعلت أنعم شتى الأغاني الوانية .

لقد أحطت عنقي بطوق مسائي من زهر الباكولا ، مضمّور بيد الحب .

لما تزل ذاكرتي معطّرة بطلّاع الياسمين الرّيان الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

شجرة البانيان

يا شجرة البانيان ، أنت يا ذات الذروة المشعقة ، التي تنتصبين على ضفة
البركة ، تُراك نسيت ذلك الطفل الصغير ، كما نسيت العصافير التي
عشعشت فوق أغصانك ثم هجرتك ؟
ألا تذكرين كيف كان يتخذ مجلسه قرب النافذة ، ليتأمل في جذورك
المتشابكة الناشبة في الأرض .
سوف ترد النساء البركة ، ليملأن جرارهن ، وظلك الكبير الأسود
يرتجف على صقال الماء ، كأنه النعاس الذي يغالب اليقظة .
كانت أشعة الشمس تتراقص فوق الماء الجعد كأنها مكوكٌ دقيقٌ لا يألو
ينسج بساطاً من ذهب .
وكانت بطتان تسبحان قريباً من الضفة المعشوشبة ، وكان الطفل
يجلس ، هادناً مفكراً .
كان يتمنى أن يصبح الريح التي تهبُّ بين أغصانك الهامسة ، أن يصبح ظلك
الذي يتطاول مع امتداد النهار فوق صفحة الماء ، أن يصبح عصفوراً يحطُّ فوق
أعلى غصنٍ لك ، ثم يستدف^(١) ، كهاتين البطتين ، بين الأعشاب والظلال .

بركة

بارك هذا القلب ، هذه الروح البيضاء التي ظفرت بقبلة السماء ، من
أجل الأرض .

(١) استدف الطائر : طار قريباً من الأرض .

إنه يحب نور الشمس ، يحب نظرة أمه إليه .
لم يتعلم بعد ، أن يحترق التراب وأن يطعم بالذهب ، ضمه الى قلبك
وباركه .

لقد جاء الى هذه الأرض المتشعبة الى مائة مفرق طريق .
لأدري كيف اختارك من بين الجمع الغفير ، وكيف قدم الى بابك ،
وصافح يدك ، طالباً أن تهديه طريقه .
سوف يتبعك ، ضاحكاً ، لاغياً ، لاتنسّم في قلبه أي ريبة .
احتفظ بثقته ودله على الطريق القويمه وباركه .
أبسط يدك فوق رأسه وادع بأن ينساق النسيم اليه ، من العلاء ، مهما
ارتفعت الأمواج متوعدة ، ليملاً أسرعته وينحو به الى مرفأ الأمان .
لاتنسه وأنت تمضي مسرعاً . دعه يقدم الى قلبك ثم باركه .

الهدية

أودّ أن أقدم إليك هدية ياطفلي ، فإنّ تيّار الكون يجرفنا .
سوف تهفو حياة كلّ منا في سبيل لها وسوف يضحي حبنا منسياً .
ولكنني لست من الحمق ، بحيث أتمنى أن أشتري بهداياي ، قلبك .
إنّ حياتك لغضة الشباب ، وإنّ طريقك لطويلة ، وإنّك لتنهل المحبة التي
نزجها إليك في جرة واحدة ثم تدور على عقبك وتعدو بعيداً عنا .
إنّك منصرف الى لعبك مع لذاتك ، فأني ضير إن لم تولنا وقتاً أو تفكيراً .
وفي الحق إنّنا لنستطيع أن نحصي ، في شيخوختنا أيّامنا الغابرة وأن
نعطف في قلوبنا على ما فقدته أيدينا .
إنّ النهر يجري سريعاً ، وهو يغني ، ويحطم أمامه السدود كلّها ، ولكن
انجبل القائم الحالم بذكرياته ، يتابعه بوجده .

أغنيّتي

سوف تَلَفَكْ أغنيّتي بنغمتها ، ياطفلي ، كأنها أيدي الحب العاشقة .
سوف تلامس أغنيّتي جيبيكَ كأنها القبلّة المباركة .
وحين تضحي وحيداً ، فلسوف تجلس الى جانبك ، وتهمس في أذنيك .
وحين تغيب بين جموع الناس فلسوف تحميك بسياج من العزلة .
سوف تصبح أغنيّتي كجناحين لأحلامك ، ثمّ تنحو بقلبك الى حدود المجهول .
سوف تضحي كنجم أمين ، في العلاء ، حين يغلف الليل الحالك دربك .
سوف تسكن أغنيّتي الى أجفانك ثمّ تحمل نظرتك الى قلب الأشياء .
وحين يلوذ صوتي بالصمت . في الموت ، فلسوف تتردّد أغنيّتي في قلبك الحي .

الطفل الملاك

إنهم يصيحون ويقاتلون ، يحكّ في صدورهم الشكّ واليأس ، إنهم لا يعرفون نهاية لمنازعاتهم .
دع حياتك ياطفلي ، تتألق بينهم ، كشعلة من ضياء سنيّ نقي ، دعهم يفرغوا ، مبهورين ، الى الصمت .
إنهم قساة في جشعهم وحسدهم ، إن كلماتهم كمبدي خبيثة ظمأى الى الدّم .
إذهب الى هذه القلوب المعذّبة ، وقف بينها ، واحذر اليها نظرتك الرقيقة ، كالسلام الرحيم المتطامن من المساء الى كفاح النهار .

دعهم ينظروا الى وجهك يا طفلي ، ليتأتى لهم فهم معنى الأشياء كلها ،
دعهم يحتوك ، ليحب بعضهم بعضاً .
تعال واجلس في قلب اللانهاية يا طفلي ، وحين ينشق الفجر ، افتح
قلبك وارفعه كزهرة منورة ، واحن رأسك حين تغرب الشمس ، وتمم في
صمت ، عبادة النهار .

العقد الأخير

- ألا من يستخدمني لديه!
هذا ما كنت أردده ، عالياً ، في الصباح ، وأنا أسير في الطريق المعبدة الحجرية .
ومرّ ملك مستقلاً مركبته ، في يده سيفه .
وأمسك بيدي ، ثم قال : إنني أستخدمك ، على أن أدفع أجرتك ،
مشاركتك لي في سلطاني .
ولكن سلطانه لم يكن يحتوي على شيء ، ومضى بمركبته .
وفي الظهيرة القائظة ، كانت أبواب الدور القائمة مغلقة .
وأخذت ، أضرب ، هائماً ، في درب ملتوية .
وتقدّم شيخ يحمل سफطاً مليئاً بالذهب .
وفكر ثم قال : إنني أستخدمك على أن أنقذك أجرتك من مالي .
وجعل يعدّ نقوده ، قطعة ، قطعة ، ولكنني انكفأت راجعاً .
وكان الوقت مساءً ، وكان وشيع الحديقة كلّه مزهراً .
وتقدّمت الفتاة الوسيمة وقالت : إنني أستخدمك ، على أن أمنحك
أجرتك إبتساماً .
غير أن ابتسامتها شحبت ، واطردت دموعها ، باكيةً ، وعادت ،
وحدها وغابت في الظلام .

وكانت الشمس تتألق فوق الرمال وكانت الأمواج تتلاطم جامحة .
وكان ثمة طفل جالس ، يلهو بالأصداف .
ورفع رأسه وبدأ كما لو أنه يعرفني وقال : إنني أستخدمك ، على أن
أدفع شيئاً ، أجرّة لك .
ومنذ أن تمّ الإتفاق على هذا العقد الذي جرى فيما كنت ألهو مع طفل ،
فقد أصبحت رجلاً حراً .

دورة الربيع

تمهيد

شخصيات التمهيد

الملك - الوزير - الجنرال (بيجوي فارما)
السفير الصيني - الحكيم (سروتي بوشان)
الشاعر (كابي شيكار) - حجاب ، حاشية ،
رسول بشير .

(يتألف المسرح من مستويين ، أعلاههما - ويقع في الخلف - مخصص
لمنشدي المقدمة الغنائية ، ومسندٌ عليهما ستارٌ قرمزي . وأسفلهما
يتراءى ، حين ينحسر ستار المسرح .
في زاوية المسرح الأسفل ، ومن أقصى يساره . أعد بلات الملك ،
وقام ، على نشزٍ ، عرش ذو مظلة ، وقد انفسح صدر هذا المسرح ، لأداء
التمثيل وأطراده) .

(يدخل بعض أفراد الحاشية)

(أسماء المتكلمين ليست مذكورة ، على الهامش ، إذ يمكن حزرها
في يسر) .

- جه . جه .
- ما الأمر ؟
- لقد استبد بالملك ضيقٌ كبير .
- ياللهول !
- من الذي يزمر ، في الناي ، هناك ؟
- لماذا ؟ ما الأمر ؟
- إن الملك لفي قلقٍ شديد .
- ياللهول !
- ماذا يفعل أولئك الأطفال الطائشون الذين يثيرون هذه الضجة ؟
- إنهم من أسرة (ماندال) .
- إذن قل لأسرة (ماندال) أن تحمل أطفالها على الهدوء .
- تُرى إلى أين مضى الوزير ؟
- هأنذا ، ما الأمر ؟
- ألم تتأذ إلى سمعك الأخبار ؟
- لا ، أي أخبار ؟
- إن الملك مضطرب الفكر أشد الاضطراب .
- حسنٌ ، لقد تناهى إليّ بعض الأخبار الهامة حول حرب الحدود .
- الحرب ؟ إنّ في ميسورنا أن نظفر بها ، ولكن ليس في وسعنا أن نظفر بالأخبار .
- ثم إنّ السفير الصيني ينتظر مقابلة جلالة الملك .
- دعه ينتظر ، إنه لا يستطيع ، على أي حال ، أن يرى الملك .
- لا يستطيع أن يرى الملك ؟ - آه ، وبعد ، فهذا هو ذا الملك ، انظر إليه ، قادماً في هذه الطريق حاملاً بيده مرآة . « ليحيي الملك حياة مديدة » .

الوزير : لعله يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أن وقت ذهابه الى البلاط قد
أزف .

الملك : أزف وقت الذهاب ؟ أجل ، أزف وقت الذهاب ، ولكن لا إلى
البلاط .

الوزير : ماذا يعني صاحب الجلالة ؟
الملك : ألم تسمع ؟ إن الناقوس قد رنّ ، اللحظة ، مؤذناً بصرف حاشية
البلاط .

الوزير : متى ؟ أي ناقوس ؟ إننا لم نسمع أي ناقوس .
الملك : كيف يكون في مكنتكم أن تسمعوا ؟ لقد قُرع الناقوس في
مسمعي وحدي .

الوزير : أوه يا مولاي . لا يمكن لأحد أن تبلغ به الصفاقة أن يفعل ذلك .
الملك : أيها الوزير إنه يُقرع الآن .

الوزير : عفواً مولاي ، إن كنتُ كثير الغباء ، بيد أنني لأقدر على
الفهم .

الملك : انظر الى هذا ، أيها الوزير ، انظر الى هذا .

الوزير : انظر الى شعر صاحب الجلالة ؟ . .

الملك : ألا تستطيع أن تلمح ، ثمة ، قارع ناقوس ؟

الوزير : أوه ، يا صاحب الجلالة ، أيمزح جلالتك ؟

الملك : ليس المزاح من شأني ، ولكن من شأنه (هو) ذاك الذي يمسك
بالعالم كله من اذنه ، ويتخذ منه هزأة له . ليلة أمس ، فيما كانت
الملكة تطوق عنقي بعقد من ياسمين ، صرختُ فزعاً : « أيها
الملك . ما هذا ؟ ههنا ، خلف اذنك ، شعرتان شائبتان » .

الوزير : أوه حنانيك يا مولاي ، لاتدع القلق يستحوذ عليك ، من أجل
شيء بسيط كهذا ، ماذا ! حكيم البلاط...

الملك : أيها الوزير ، لقد كان لمؤسس أسرتنا المالكة حكيمٌ أيضاً ، ولكن أي شيء يستطيع أن يفعل ؟ إنَّ الموت قد ترك بطاقة دعوته خلف أذني ، لقد ودَّت الملكة أن تقتلع الشعرات البيض ، ههنا وههنا ، ولكنني قلت لها : « أيتها الملكة ، ماذا يجدي هذا كله ؟ إنَّ في ميسورك أن تستبدي دعوة الموت ، ولكن ، أياكون في ميسورك أن تستبدي الموت الداعي ؟ » ، هكذا... أمّا الآن...

الوزير : أجل يا مولاي ، أمّا الآن ، فلننصرف إلى العمل .
الملك : العمل ؟ أيها الوزير ، لا ينفح لي وقتٌ للعمل استدع لي الحكيم (البانديت)^(١) ، استدع (سروتي بوشان) .

الوزير : ولكن ، مولاي ، الجنرال...
الملك : الجنرال ؟ - لا ، لا ، لا أبغي الجنرال ، استدع الحكيم .
الوزير : ولكن ، أخبار الحدود...

الملك : أيها الوزير ، لقد تناهت إليّ الأخبار من آخر الحدود وأعظمها كلها ، من حدود الموت ، استدع لي الحكيم .

الوزير : ولكن... إذا شاء صاحب الجلالة أن يمنحني لحظة ، فإنَّ السفير القادم من لدن امبراطور الصين العظيم...

الملك : أيها الوزير إنَّ أكبر الأباطرة قد بعث إليّ بسفارته ، استدع (سروتي بوشان) .

الوزير : حسنٌ يا مولاي ، ولكن حماك...
الملك : ليس حموي بالذي أرغب في رؤيته الآن ، استدع الحكيم .
الوزير : ولكن لعلّه أن يروق لك أن تصغي إليّ هذه المرة : إنَّ الشاعر

(١) البانديت : في الهندية الحكيم الذي يزاوِل الحكمة والطب معاً .

(كابي شيكار) ينتظر ، حاملاً كتابه الجديد (حديقة الشعر) .

الملك : دغ شاعرك يمتّع نفسه ، لاهياً ، متسلّقاً عذبات الأغصان من حديقة شعره ، ولكن استدع الحكيم .

الوزير : حسنٌ يا مولاي ، سأطلب إليه القدوم فوراً .

الملك : قل له أن يصطحب معه كتابه في الصلوات المسمّى (اوقيانوس الزهد) .

الوزير : أجل يا مولاي .

الملك : ولكن ، أيها الوزير ، من هم هؤلاء الذين يثيرون هذه الضجة كلها ؟ اخرج واطلب اليهم أن يلتزموا الصمت فوراً ، ينبغي أن أنعم بالهدوء .

الوزير : إنّ راقّ لصاحب الجلالة أن يعرف ، أن مجاعة كبرى قد انتشرت في (ناجاباتان) ، وأن رؤساء القوم في القرى يرجون أن يسمح لهم برؤية محياك .

الملك : إنّ زمن عمري لقصير ، أيها الوزير ، ينبغي أن أنعم بالهدوء .

الوزير : إنهم يقولون أنّ زمن أعمارهم لأقصر ، وإنهم ماثلون أمام باب الموت ، إنهم يتشوّفون أيضاً الى الهدوء ، الهدوء بإطفاء حرقه الجوع .

الملك : أيها الوزير إنّ حُرقة الجوع لتطفأ ، أخيراً ، على المحرقة الجنائزية .

الوزير : إذن فهذه الرعيّة الشقيّة...

الملك : شقيّة! اصغ إلى نصيحة ملك شقي يزجّيها الى رعيّة الشقيّة : إنه لمن العبث أن ينفذ صبر المرء ، وأن يحاول التملّص من شبكة الصيّاد القاسي ، فإنّ الموت ، هذا الصياد ، سوف يظفر عاجلاً أم آجلاً بصيده .

الوزير : حسنٌ وبعدُ ؟
 الملك : عليّ بالحكيم وبكتابه (اوقيانوس الزهد) .
 الوزير : وفي هذا القحط...
 الملك : أيها الوزير ، إنّ القحط الحقيقي هو قحط الزمن لا قحط القوت
 إنّنا نتألم جميعاً من جوعنا الى الزمن ، وليس ثمة أحدٌ قد ظفر
 بما يكفيه منه ، لا الملك ولا شعبه .
 الوزير : وإذن...
 الملك : إذن ، فاعلم أنّ التماسنا مزيداً من الزمن سيكون مصيره لهيب
 الدينونة ، فلماذا نقسر صَوْتنا على الدعاء ؟ آه ، ها هو ذا ،
 أخيراً (سروتي بوشان) ، اليك تحيّي...
 الوزير : أيها الحكيم ، هلاً قلتَ للملك إنّ إله الحظ يتخلّى عمن يدع
 سبيلاً للكآبة أن تستبدّ به .
 الملك : (سروتي بوشان) . ماذا يهمس وزير في أذنك ؟
 الحكيم : إنه يسألني ، أيها الملك ، أن أرشدك الى طُرُق الحظ .
 الملك : أي إرشاد تستطيع أن تزجيه ؟
 الحكيم : ثمة رباعية في كتابي ، كتاب الصلوات ، تترادف على هذا
 النحو :

ألا إنّ حظ ابن آدم يسبّدو	سريع التقلب ، لا يستقر
كزهرة لوتس ، تهنو شروداً	فطوراً تقرأ ، وطوراً تفسر
وينهب ، في الغد ، ما كان أعطاً	هـ أمس ، ويلعب لعب القدر
فكلُّ اعتقاد بحظ جنون	وكلُّ اعتماد على الحظ شر ^(١)

(١) آثرنا نقل الرباعيات شعراً ، أخذاً بمدرجة الشاعر طاغور الذي نظمها في الانكليزية شعراً ملتزمين بذلك ما التزمه الشاعر نفسه حين نقل المسرحية من البنغالية الى الانكليزية . (المعرب)

الملك : إيه أيها الحكيم ، إن خفقة ناسمة من تعاليمك لتطفئ ، شعلة
الجشع الزائفة ، لقد قال معلمنا : « إن الأسنان لتتساقط ، وإن
الشعر ليخطه الشيب . ومع ذلك فإن الإنسان ليتعلق بالأمل
الخداع الذي يلهو به » .

الحكيم : حسن أيها الملك ، مادمت قد عرضت ، الآن ، لموضوع الأمل
فذرني أقدم اليك رباعية أخرى من (أوقيانوس الزهد) ، وإنها
لترآدق على النحو التالي :

ونعلم أن القيود تشد جميع الأناسي ، فوق الثرى
ولكن قيد الشعلة يبدو كأعجب قيود يغفل الثرى
فكل ابن انشى أسير بقيد من الأمل الحلو ، رهن العنا
ولا يجد الأمن إلا متى تحطم وأنفك قيد المنى

الملك : آه أيها الحكيم ، إن كلماتك لثمينة . أيها الوزير ، انفضح ، على
التو ، مائة دينار ذهبية ، ماهذه الضجة في الخارج ؟

الوزير : إنهم جوعى القحط .

الملك : قل لهم أن يلزموا الهدوء .

الوزير : دع (سروتي بوشان) يذهب ويحاول ، بكتاب الصلوات ، أن
يحمل اليهم الهدوء ، فيما يكون في ميسور صاحب الجلالة أن
يبحث في شؤون الحرب .

الملك : لا ، لا ، دع شؤون الحرب تقبل فيما بعد ، ليس في مقدوري
أن أدع (سروتي بوشان) يمضي .

الحكيم : أيها الملك ، لقد عرضت في حديثك ، منذ هنيهة ، لمطية من
ذهب ، ولكن الذهب ، في حد ذاته لايتيح أي فائدة
مستديمة فقد جاء في كتابي عن الصلوات المسمى
(أوقيانوس الزهد) :

ومن يهب الذهب اللامعا يهب المأ داتماً موجعا
ومن ينفق الذهب الساطعا يتح للندامة أن ترجعا
وسيان من شاء إنفاق بذره ومن شاء إنفاق عشرين بذره
فهذا يؤوب ويسفح عبره وذاك يعود ويمتنى بحسره
الملك : أه أيها الحكيم ، ياللمعنى الشهي! إذن أنت لاترغب في أي
ذهب ، يا معلّمي ؟

الحكيم : لا . أيها الملك ، لا أرغب في الذهب بل في شيء أكثر بقاء
منه ، في شيء قد يجعل فضلك باقياً أيضاً ، لعلني أن أكون
سعيداً جداً ، إن وهبت لي مُلك (كانشانبور) فقد جاء من أجل
هذا في كتاب الزهد...

الملك : لا ، أيها الحكيم ، لقد فهمت جيداً ، لست بمحتاج الى أن
تستشهد بالكتاب ، دعماً لمطلبك فقد فهمت أحسن الفهم .
أيها الوزير...

أنظر في أمر جعل مقاطعة (كانشانبور) مُلكاً للحكيم - ماذا
يجري الآن في الخارج ؟ لِمَ يصرخون ؟

الوزير : إن راق لصاحب الجلالة أن يعلم : إنهم جموع الشعب .

الملك : لِمَ لا يأتلون يصرخون ؟

الوزير : إن صراخهم لا يني يتردد ، إنني أسلم بهذا ، غير أن السبب
يظل نفسه ، على نحو رتيب دائم : إنهم جوعى .

الحكيم : ولكن أيها الملك ، ينبغي أن أفضي إليك بشيء قبل أن أنساه :
إن الرغبة الوحيدة التي تجاذب زوجي ، هي أن تدع جسدها
كله ، من رأسها الى أخمص قدميها ، يهزج مسبحاً بجودك ،
ولكن... وأسفاه إن الرنين الذي يخلص منها جد خفيض ، لأنها
عاطلة من الحلبي .

الملك : إنني أفهمك أيها الحكيم . أيها الوزير! استوص ، حالاً ، على حلي من صانع البلاط ، لتوهب لزوج (سروتي بوشان) .

الحكيم : أيها الملك ، هلاً قلت للوزير ، فيما يقوم بما طلبت إليه ، إننا كلينا مضطربان في صلاتنا ، بسبب ترميم الدار ، دعه يطلب إلى بنائي البلاط أن ينشئوا ، بإتقان ، داراً حسنة البناء ، يتيسر لنا فيها القيام بصلواتنا ، في هدوء وأمن .

الملك : حسنٌ أيها الحكيم . أيها الوزير!

الوزير : أجل يا صاحب الجلالة .

الملك : قم بهذا الأمر ، على التو .

الوزير : مولاي ، إن خزيتك خاوية عاطلة من المال .

الملك : أفر ، إنها لقصة قديمة اسمعها كل عام . عليك أنت أن تزيد في المال ، وعليّ أنا أن أوسع في الإنفاق ، ماذا تقول في ذلك يا (سروتي بوشان) ؟

الحكيم : أيها المليك ، ليس في مكنتي أن ألزم الوزير ، إنه يهتم بثرواتك في الدنيا ، فيما نهتم نحن بثرواتك في الآخرة ، لهذا فحيثما يرى هو نقصاناً نرى نحن سعةً وغنى . والآن ، إن تركتني أغوص ، مرةً أخرى ، في أعماق (أوقيانوس الزهد) ، فلسوف تجد مكتوباً فيه مايلي :

فحيث يجود المليك بمالٍ تكون الخزانة في خير حال

الملك : أيها الحكيم ، إن صحبتك لا تقدرُ بضمن .

الوزير : يا صاحب الجلالة ، إن (سروتي بوشان) ، يعرف مدى قيمته وإن شارفت دافعاً واحداً . تعال يا (سروتي بوشان) ، هلم نحتج كل الثروات التي تحتاج إليها ، لتعمر خزينة صلواتك . إن للثروة عادةً قبيحةً ، عادةً التناقص السريع ، فإن لم نبادر

لجمعها ، فلن يتبقى سوى النزر اليسير مما يكفي للحفاظ على الزهد في تمام روعته .

الحكيم : أجل أيها الوزير ، دعنا نمض ، على التو ، (يخاطب الملك)
مادام يصطنع مثل هذه الجلبة ، من أجل أمرٍ تافهٍ كهذا ، فالأولى أن يُشرع بتهدئته ، ثم أعود إليك بعد ذلك .

الملك : أيها الحكيم ، أخشى أن تتخلّى ، ذات يوم عن حمايتي الملكية نهائياً ، لتفرغ الى عزلتك في الغابة .

الحكيم : أيها الملك ، مادمتُ أجد الهناءة والدعة ، في قصر الملك ، فإنه صالحٌ لي صلاحٌ صومعةٍ لراحتي الفكرية ، عليّ أن أغادرك ، أيها الملك الآن . أيها الوزير! هيا بنا .

(يخرج الوزير والحكيم)

الملك : إيي يا ربي العزيز ماذا أفعل ؟ ها هو ذا الشاعر قادمٌ ، أخشى أن يحملني على تحطيم عزيمتي كلّها ، إيي يا شعري الشائب ، غطّ اذني على نحوٍ ، لايتستى لكلمات الشاعر المضلّة ، أن تنسرب الى مسمعي .

الشاعر : أيها الملك ، ما الأمر ؟ أسمع أنك تريد أن تصرف شاعرك .

الملك : ماذا أتوقع من الشعراء ، حين يحمل إليّ الشعرُ رسالةَ الرحيل ؟
الشاعر : أيّ رسالة رحيل ؟

الملك : انظر إلى هذا ، خلف اذني ، أفلا تلمحه ؟

الشاعر : ماذا أرى ؟ شعراً شائباً أيها الملك ، لا يأخذك القلق من أجل هذا .

الملك : أيها الشاعر ، إنّ الطبيعة تحاول أن تسلبني اخضرارَ الشباب وأن تصبغ كلّ شيءٍ بلون البياض .

الشاعر : لا ، لا ، أيها الملك ، إنك لم تفهم الفنان ، فعلى مدى هذا القاع
الأبيض سوف تضفي الطبيعة ألواناً جديدة .

الملك : لما ألمح بعدُ أي أثر للألوان .

الشاعر : إنها مازالَ كامنة ، ففي قلب اللون الأبيض تكمن ألوان قوس
قزح كلها .

الملك : أوه أيها الشاعر ، هلاً هداً ، إنك تهيج الاضطراب في عظمي
حين تتحدث على هذا النحو .

الشاعر : أيها الملك ، إن جعل هذا الشباب يُصَوِّحُ فدعهُ يُصَوِّحُ . إن
ملكة أخرى للشباب مقبلةٌ إليك ، إنها تضع على رأسك إكليلاً
من الياسمين رجاء أن تضحي عروساً لك ، إن مهرجان الزفاف
يهيأ ويُعد خلف الستار .

الملك : أوه ، أيها الشاعر العزيز ، إنك تشيع الاضطراب في كل شيء .
إمض من هنا ، هية أيها الحاجب ، هناك ، أذهب فوراً ، واستدع
(سروتي بوشان) .

الشاعر : ماذا ستفعل معه ، أيها الملك ، حين يقدم ؟

الملك : سأهيبُ بفكري أن يثوب إلى الهدوء وسأمارس زهدي .

الشاعر : آه أيها الملك ، حين سمعت هذه الأخبار ، قدمتُ على الفور ،
ليكونَ في استطاعتي أن أكون رفيقك في ممارسة الزهد .

الملك : أنت ؟

الشاعر : أجل أنا ، أيها الملك ، إننا نحن الشعراء نوجد ، لهذا الهدف
الحق : أن نحرّرَ البشرَ من أهوائهم .

الملك : لا أفهم ماتقول ، إنك تتكلمَ أغاراً .

الشاعر : كيف ؟ ليس في مقدورك أن تفهمني ، في حين كنتَ تُنْفِقُ
الوقتَ في تلاوة قصائدي . إن في كلماتنا لزهداً ، وإن في

قريظنا لزهداً ، وإنّ في موسيقانا لزهداً . لهذا كلّهُ فإنّ الحظّ
يهجرنا ، ونحنُ أيضاً تهجره ، إنّنا نسعى ، طوال اليوم الى
تلقين الشبيبة الطقوس المقدسة ، طقوسَ الحظ المهجور .

الملك : وماذا تقول لنا هذه الطقوس ؟

الشاعر : إنّها تقول : « إيهِ ، أيها الأخوة ، لا تتعلّقوا بخيراتكم
ورياشكم ، ولا تنتبذوا دوماً ، ركنأ من حجرتكم ، اخرجوا ،
اخرجوا الى العالم الرحب ،
اخرجوا الى سُبُل الحياة ،
اخرجوا ، أيها الزاهدون الشباب » .

الملك : ولكن أتعني أيها الشاعر ، حقاً ، أنّ العالم الرحب هو طريق
الزهد ؟

الشاعر : لمَ لا أيها الملك ؟ في العالم الرحب ، كلّ شيء هو الحياة ، كلّ
شيء هو الحركة ، إنّ من يتحرّك دوماً متنقلاً ، مع حركة الحياة
هذه ، راقصاً يزمر في نايه ، ساعياً في كلّ مضطرب من الأرض
هو الزهد الحقيقي ، هو المريد الحقيقي للشاعر الرائد .

الملك : ولكن كيف يتاح لي أن أظفر بالأمن ؟ ينبغي أن أحظى بالأمن .
الشاعر : أوه أيها الملك ، لا تخالجنّا أقلّ رغبة في الأمن . إنّنا الزاهدون .
الملك : ولكن ألا يجب علينا أن نبحث عن الكنز الذي يقال إنه لا يتغيّر
البتّة ؟

الشاعر : لا ، إنّنا لانطمع في أيّ كنز لا يتغيّر البتّة ، إنّنا الزاهدون .

الملك : ماذا تعني ؟ أوه أيها الشاعر العزيز ، إنّك تشوش كلّ شيء إنّ
جعلتَ تحدث هكذا ، إنّك تؤدي بأمن أفكاري ، ناد (سروتي
بوشان) ، أطلب الى أحدهم أن يستدعي الحكيم .

الشاعر : اليك ما أعنيه أيها الملك : إنّنا الزاهدون الحقيقيون ، لأنّ التغيّر

هو سُرْنَا الحقيقي ، إننا نخسر رجاءً أن نجد ، إننا لا نؤمن
بالذي لا يتغير البتة .

الملك : ماذا تعني ؟

الشاعر : ألم تلاحظ انعقاد النهر المندفِع وهو يعدو مزبداً ، من كهفه
الجبلي . إنه يهبُ لنفسه الإنطلاقَ ففي هذه اللحظة وحدها ،
يجد نفسه...

إن الشيء الذي لا يتغير البتة ، بالنسبة للنهر ، هو رملُ الصحراء
حيث يغيب .

الملك : آه ، ولكن إصغ أيها الشاعر ، إصغ إلى هذه الأصوات في
الخارج ، إنه عالمك ، فماذا تفعل به ؟
الشاعر : أيها الملك ، إنه شعبُك الساعِب .

الملك : شعبي ؟ أيها الشاعر ! لم تدعوه كذلك ؟ إنه شعب العالم ، لا
شعبي ، هل خلقتُ أنا شقاءه ؟ قل لي ماذا يستطيع شعراؤك
الشباب الزاهدون أن يفعلوا ، ليواسوا آلاماً كهذه ؟

الشاعر : إننا وحدنا ، نستطيع حقاً أن نبلو هذه الآلام . لأننا كالنهر الذي
يتدفق ، فرحانٌ جذلانٌ ، وكذلك نخفف عبئنا وعبء العالم ،
ولكن الطريق الوعاء المحصورة لا تتغير البتة وبهذا فإنها تجعل
العبء أكثر وقراً ، إن الأحمال الثقيلة تنن وتصر ، في مدى
الطريق ، وتحزُّ جروحاً رغبةً في الصدور ، إننا نحن الشعراء ،
ندعو كل إنسان أن يحمل أفراده وأتراحه في هينٍ ، وعلى نغمٍ
موزونٍ . إن نداءنا هو نداء الزاهدين .

الملك : آه أيها الشاعر ، الآن ، لأعني نفسي بـ (سروتي بوشان)
فليُشْنق الحكيم نفسه ، ولكن أتدري أي قلقٍ يُحك في صدري
الآن ؟ قسماً بحياتي ، إن موسيقا كلماتك ، وإن لم ألقه

مغناها ، لتملؤني اضطراباً ، والأمر مع الحكيم يتخذ سبيلاً
أخرى مخالفة تماماً ، إن كلماته واضحة وضوحاً كافياً ، خاضعة
خضوعاً صحيحاً لقواعد الإعراب ، ولكن النغم... لا ، لا فائدة من
المضي في التحدث إليك أكثر من هذا...

الشاعر : أيها الملك ، إن كلماتنا لا تتكلم بل تغني .

الملك : حسنٌ ، أيها الشاعر ، ماذا تود أن تفعل الآن ؟

الشاعر : أيها الملك ، أنا ذاهب ، لأنطلق عبر هذا الصراخ الذي يتعالى
وراء بابك .

الملك : ماذا تعني ؟ ، إنه غوث الذين أصابتهم المجاعة يقع على عاتق
رجال الأعمال وليس للشعراء شأن بأمور كهذه .

الشاعر : أيها الملك ، إن رجال الأعمال يقومون بعملهم دون انسجام ،
ولهذا فإننا نبادر ، نحن الشعراء لنجعل هذا العمل منسجماً .

الملك : تعال ، الآن ، يا شاعري العزيز ، وتحدث بكلام جلي .

الشاعر : أيها الملك ، إنهم يعملون لأنّ عليهم أن يعملوا ، أمّا نحن
فنعمل لأننا مدّلهون بالحياة ، ولذا فإنهم يأخذون علينا ، أننا
غير عمليين ، ونأخذ عليهم أنهم فارغون من الحياة .

الملك : ولكن من منكم على صواب أيها الشاعر ؟ من منكم الظافر ،
أنتم أم هم ؟

الشاعر : نحن أيها الملك ، نحن الظافرون دوماً .

الملك : ولكن ما برهانك على ذلك أيها الشاعر ؟

الشاعر : أيها الملك ، إنّ أعظم الأمور في الدنيا ليستهيّن بالبرهان ،
ولكن إن استطعت أن تزيل من الدنيا لأمر ما ، الشعراء كلّهم
وقريضهم كلّهم ، فسرعان ما تكتشف ، بغيابهم نفسه ، من أين
يمتدح رجال الأعمال حيويّتهم ومن هم الذين يمدّون ، في

الواقع ، حصاة حقولهم ينسج الحياة . إنهم ليسوا بأولئك الذين استغرقوا في قراءة كتاب الحكيم (أوقيانوس الزهد) ولا بأولئك الذين يتشبهون بشرواتهم دوماً ، ولا بأولئك الذين أضحوا مهرةً ، إذ يؤدون أصنافاً شتى من العمل ، ولا بأولئك الذين يلهجون بواجباتهم الجافة ، لا ، ليس هؤلاء هم الذين يظفرون في النهاية بل أولئك الذين يحبون لأنهم يحيون ، هؤلاء هم الذين سيؤتى لهم الغلاب حقاً ، لأنهم يذعنون حقاً ، إنهم يرضون بالآلم بجماع قواهم ، ويزيلون الآلم بجماع قواهم ، إنهم هم الذين يبدعون ، لأنهم يعرفون سرّ الفرحة الحقيقي الذي هو سرّ الزهد .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر ، إن كان مذكّرتَ هكذا ، فماذا تطلب إليّ أن أفعل الآن ؟

الشاعر : أطلب اليك ، أيها الملك أن تنهض وتحرك ، إن الصراخ الذي يتناهى من الخارج هو صراخ الحياة للحياة ، فإن لم تحرك الحياة في أعماقك ، متجاوبةً مع ذلك النداء ، فثمّة سبب يستدعي الخوف حقاً ، لا لأن الواجب قد أهمل ، بل أنك بسبيل إلى الموت .

الملك : ولكن... من المؤكد أن علينا أن نموت ، عاجلاً أم آجلاً ، أيها الشاعر .

الشاعر : لا ، أيها الملك ، إنه لكذبٌ ، حين نشعر على نحوٍ مؤكد بأننا نحيا ، فإننا نعرف على نحوٍ مؤكد ، أننا ماضون في الحياة والعيش ، أما الذين لم يخضعوا الحياة لمحكّ التجربة ، في السبيل الممكنة كلّها ، فهم الذين لا يأتلون يصرخون : « الحياة منقضية ، الحياة ذابلة » .

الحياة شبيهة بقطرة ندى فوق ورقة لوتس .

الملك : ولكن أليست الحياة متقلبة ؟

الشاعر : إنها كذلك ، لأن حركتها متصلة دائبة ، فاللحظة التي توقف فيها أنت هذه الحركة ، هي اللحظة التي تشرع أنت فيها بأداء مأساة الموت .

الملك : أيها الشاعر ، ثراك تقول الحقيقة ؟ أحقاً أننا سنستمر في الحياة ؟

الشاعر : أجل إننا سنستمر في الحياة .

الملك : إذن فإن علينا ، إن استمررنا في الحياة ، أن نجعلها جديرة بالخلود أليس كذلك ؟

الشاعر : أجل ، حقاً .

الملك : إيه أيها الحاجب .

الحاجب : أجل ، يا صاحب الجلالة .

الملك : ادع الوزير حالاً .

(يدخل الوزير)

الوزير : فيم يرغب جلالتك ؟

الملك : بحق الأرض أيها الوزير لم جعلتني أنتظر طويلاً ؟

الوزير : كنت مشغولاً جداً ، يا صاحب الجلالة .

الملك : مشغولاً ؟ بأي شيء كنت مشغولاً ؟

الوزير : كنت مشغولاً بدعوة الجنرال إلى الإنصراف .

الملك : لم صرفت الجنرال ؟ لقد كان علينا أن نناقش معه قضايا الحرب .

الوزير : كان علي ، إلى ذلك ، أن أعد التدابير اللازمة لسفر السفير

الصيني رسمياً .

الملك : ماذا تعني بسفري رسمياً ؟

الوزير : لعلّه يروق لصاحب الجلالة أن يعلم ، أنه لم يُسمح له بمقابلة ، لهذا فإنه...

الملك : أيها الوزير ، إنك تثير عجبي ، أهكذا تدير أمور الدولة ؟ ماذا دهاك ؟ هل فقدت صوابك ؟

الوزير : أضف الى ذلك ، يا مولاي ، أنني كنت أحاول أن أجد وسيلة لهدم دار الشاعر . لم يشأ أحدٌ ، في البدء ، أن يقوم بذلك ، وأخيراً فإن جميع حكماء المدرسة الملكية لتعليم النحو والمنطق ، قدموا بأدواتهم وشرعوا في العمل .

الملك : أيها الوزير ، تُراكِ جُننت في هذا الصباح ؟ أتهدم دار الشاعر ، ولِمَ ؟ إن في وسعك إذن أن تقتل كل الطيور في الحديقة ، لتُعدّ منها خَشْوَ الفطائر .

الوزير : إذا راق لصاحب الجلالة ، فليس ثمة ضرورة لإزعاجه ، لن نعد الى هدم الدار فإن (سروتي بوشان) قرّر استملاكها لنفسه حين سمع بأنها ستهدم .

الملك : ماذا أيها الوزير ؟ إن هذا لأسوأ بكثير ، إن آلهة الموسيقى قد تحطّم معزفها على رأسي ، إن سلك سمعها خبرٌ كهذا .

الوزير : ثمة شيء آخر ، ينبغي القيام به يا صاحب الجلالة ، علينا أن نهب للحكيم مقاطعة (كانشانبور) .

الملك : لا ، أيها الوزير ، أي خطأ تقترف! ينبغي أن نصير المقاطعة الى شاعرنا .

الشاعر : إليّ ، أيها الملك ؟ لا ، إن شعري لا يقبل مكافأة البتّة .

الملك : حسنٌ ، حسنٌ ، دع الحكيم يستأثر بها .

الوزير ، وأخيراً يا مولاي ، فقد أنهيتُ إلى الجبلوه أوامرَ بأن يفرقوا
الشعب الجائع .
الملك : أيها الوزير إنك لاتفعل سوى الخطأ ، إن السبيل المثلى لتفريق
الشعب الجائع الساعب هي تفريقه بالقوت لا بالقوة .

(يدخل الحاجب)

الحاجب : أيسمح صاحب الجلالة ؟
الملك : ما الأمر أيها الحاجب ؟
الحاجب : لعلّه أن يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أن (سروتي بوشان)
الحكيم ماثلاً هنا ، لقد جاء مصطحباً (كتاب الصلوات) .
الملك : أوه ، أوقفه أيها الوزير أوقفه ، سيبتُ البلبلة في كل شيء ، لا
تدعه يتقدم إليّ هكذا ، فجأة ، فقي لحظة ضعف يمكن أن ألقي
نفسي وقد أصبحت غريقاً في أعماق (أوقيانوس الزهد) ، أيها
الشاعر ، لاتدع لي وقتاً أحمل فيه على هذا الأمر ، افعل شيئاً
ما ، أي شيء . أديك شيء معدّ تقوم به ؟ أي ملهاة ؟ أي
قصيدة ؟ أي حفلة مقنعة ؟ أي...
الشاعر : أجل أيها الملك ، أعددتُ الشيء اللازم ، ولكن لا أستطيع أن
أقول أهو مأسة ، أم قصيدة أم حفلة مقنعة .
الملك : ترى أياكون في وسعي أن أفهم ما كتبت ؟
الشاعر : لا ، أيها الملك ، إن ما يكتبه الشاعر لا يرمي إلى أن يتضمن
معنى ما .
الملك : إذن فإلام يرمي ؟
الشاعر : إلى أن يتضمن الجرس الموسيقي نفسه .
الملك : ماذا تعني ؟ ألا يتضمن ما ينظمه فلسفة ما ؟

الشاعر : لا ، لا يتضمّن ذلك والحمد لله .

الملك : إذن ، قَماًذا يقول هذا الشعر ؟

الشاعر : إنه يقول : « إنني موجود » . أتعرف معنى الصرخة الأولى التي يطلقها الطفل الوليد ؟ إن الطفل يسمع حين يولد صرخات الأرض والماء والسماء التي تحيط به تهتف له كلّ : « إننا نوجد » ويجب قلبه الضئيل الصغير صارخاً بدوره : « إنني موجود » . إن شعري شبيهٌ بصرخة هذا الطفل الوليد ، إنه جوابٌ عن صرخة الكون .

الملك : أليس هو بأكثر من هذا أيها الشاعر ؟

الشاعر : لا ، ليس هو بأكثر من هذا ، إن في نشيدي حياةً تهتف : « في الفرح والحزن ، في العمل والراحة ، في الحياة والموت ، في الانتصار والاندحار ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، كلُّ شيء يهتف : « إنني موجود » .

الملك : حسن ، أيها الشاعر ، في مسوري أن أؤكد لك ، أن مسرحيتك لن تصبح ، إن لم تحوِ فلسفةً ما ، مثلاً يحتذى في أيامنا هذه .
الشاعر : إن هذا لصحيح ، أيها الملك ، إن الرغبة الجديدة ، في هذا العصر الحديث هي إلى الجمع والتكديس أكثر تشوّفاً منها إلى الإيجاد . إنَّها في جيلها هذا ، أوسع فطنةً من أطفال النور .

الملك : من الذين سندعوهم إذن ، ليحضروا الحفلة ؟ هل ندعو طلبة مدرستنا الملكية الشباب ؟

الشاعر : لا ، أيها الملك ، إنهم يجرحون الشعر بمنطقهم : إنهم كالأيل الأروق^(١) الفتى الذي يجرب أن ينطح بقرنيه الصغيرين مظاهر الورد .

(١) الأروق : ذو القرن .

- الملك : اذن فمن أدعو ؟
- الشاعر : ادع أولئك الذين وخط الشيب شعرهم .
- الملك : ماذا تعني أيها الشاعر ؟
- الشاعر : إن شبيبة من أدركوا منتصف العمر هي شبيبة التجرد ، لقد خوّضت في أمواه اللذة وجازتها ، واستشرفت منظر أرض الهناء الصافية ، إنها لاترغب في التهام الثمرة بل في إنتاجها .
- الملك : أنا ، على الأقل ، قد بلغت عمر التبصر ، وأضحى لزماً علي أن يكون في وسعي تذوق أغانيك ، هل أدعو الجنرال ؟
- الشاعر : أجل ، ادعُه .
- الملك : والسفير الصيني ؟
- الشاعر : ادعُه أيضاً .
- الملك : سمعتُ أن حميَّ بسبيل المجيء .
- الشاعر : حسنٌ ، ادعُه أيضاً ، ولكن تخالجنى الشكوك في أولاده الشبان .
- الملك : ولكن لا تنس ابنته .
- الشاعر : لا يأخذتك القلق من أجلها ، إنها تعمل على ألا تُنسى .
- الملك : و(سروتي بوشان) هل أدعوه ؟
- الشاعر : لا أيها الملك ، لا تدعُه ، على التأكيد ، إنني لا أكن له أي مودة ، فلم اقتص منه ؟
- الملك : حسنٌ أيها الشاعر ، لك أن تنصرف ، اذهب وقم بإعداد المسرح .
- الشاعر : لا ، أيها الملك سوف نقوم بهذه المسرحية ، دون أي استعداد خاص . إن الحقيقة تبدو مزيفة حين يُغالي في تزيينها .
- الملك : ولكن ، أيها الشاعر ، ينبغي أن تكون هناك ستارة خلفية .

الشاعر : لا ، سوف يكون الذهن ستارتنا الخلفية ، ولسوف تنفضُ عصا
الموسيقا السحرية ، الصورة على صفحته .

الملك : أياكون في المسرحية أناشيد ؟

الشاعر : أجل ، أيها الملك ، سوف يُفتحُ باب كلِّ فصل ، بمفتاح
موسيقى .

الملك : وما موضوع هذه الأناشيد ؟

الشاعر : تعري الشتاء .

الملك : ولكن لم نقرأ أيها الشاعر هذه القصة في علوم الأساطير .

الشاعر : سينظم هذا النشيد بدوره في أسطورة العالم ، ففي كلِّ عام
ينحسر في مسرحية الفصول قناع الرجل الشيخ : الشتاء .

ويتراءى محيا الربيع في تمام رونقه ، وهكذا فإننا نرى أنَّ
القديم هو جديدٌ دوماً .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر إننا متفقون أحسن إتفاق على الأناشيد ،
ولكن ما لديك بشأن ما تبقى ؟

الشاعر : إنَّ ما تبقى كلِّ يتصل بموضوع الحياة .

الملك : الحياة ؟ ما هي الحياة ؟

الشاعر : يترادف موضوعها على النحو التالي : عصابةٌ من الفتيان يمضون
ليلحقوا برجلٍ شيخٍ نذروا على أنفسهم أن يمسكوا به ثمَّ
يدخلون غاراً فزع إليه ، ويقبضون عليه ثمَّ...

الملك : ثمَّ ماذا ؟ . ماذا رأوا ؟

الشاعر : آه سوف يذكر هذا في أوانه .

الملك : ولكن ، لم أفهمُ أمراً واحداً : تُرى أياكون لمأساتك وأناشيدك
الموضوع نفسه أم موضوعاتٌ مختلفة ؟

الشاعر : الموضوع نفسه . أيها الملك ، إنَّ دور الربيع في الطبيعة هو

الدور المقابل الذي يلعبه الشباب في حياتنا . لقد نهبتُ
الموضوع في يسر ، من المأساة الغنائية التي نظمها شاعر
الكون .

الملك : ومن هم إذن الأشخاص الذين يسرون ؟

الشاعر : أحدهم يا شاعر السرور

الملك : ومن هو الآخر ؟

الشاعر : هو الآخر شاعر آخر هو

الملك : من هو ؟

الشاعر : هو الذي يجعل الحياة محببةً إلينا .

الملك : ومن هناك أيضاً ؟

الشاعر : هناك (دادا) الذي يرى أن الواجب لا الفرح هو جوهر الحياة .

الملك : أهنئك الآخرين ؟

الشاعر : أجل المنشد الضريع .

الملك : الضريع ؟

الشاعر : لأنه لا يرى بعينه بل بكيانه كله ، بفكره كله ، بروحه كلها .

الملك : ومن هناك أيضاً في مسرحيتك بين الممثلين الرئيسيين ؟

الشاعر : أنت أيتها الملك .

الملك : أنا ؟

الشاعر : أجل ، لأنك إن مكثت بمنأى عن المأساة ، بدلاً من المشاركة

فيها فإنَّ الملك قد يعاود الجور على الشاعر ، ويعاود استدعاء

(سروتي بوشان) . ولن يكون ، بعد هذا ، أي أمل في نجاته ،

وقدَّ يندحرُ شاعرُ الكون نفسه ، ويتعَمَّن على ريح الربيع

الجنوبية أن تنكفي دون أن تظفر بتحيةٍ ولائها .

الفصل الأول

(بشراء الربيع منتشرون في جميع الأرجاء ، تتناهى أغانر من بين أوراق البامبو المرتعشة وأعشاش الطيور والأغصان المزقّرة) .

- مقدمة التشيد -

(يرتفع الستار القرمزي الثاني^(١) حاسراً عن الجزء العلوي من مؤخرة المسرح ، ومظهراً قاعاً سماوياً ذا زرقة شديدة ، يتراءى فوقه قرن الهلال ونقاط النجوم الفضية . تقوم ، على وصيد المسرح الأمامي ، شجرات يصل فيما بينها حبلاً أرجوحة مكلّلة بالزهور . في جميع الأركان أزهاراً منوّرة ، وفي أقصى اليسار ، يظهر مدخل غار معتم . فتیانُ يحاكون أشكال البامبو وهم يترجّحون) .

(١) لا يسحب الستار القرمزي الثاني ولا ستار المسرح ، أثناء تمثيل المسرحية . يؤدي التمثيل في مقدمة المسرح أو في مؤخرته ، وتكون الأخيرة معتمّة ، حين لا تستعمل .

نشيد البامبو

إيم أيتها الريح الجنوبيّة ، أيتها الجوّالّة ، تعالي وهدديني .
أيقظيني ، في نشوة الأوراق الغضة .
أنا شجرة البامبو ، انتظر الى جانب الطريق لهائك .
لأدع الحياة توسوس بين أغصاني .
إيم أيتها الريح الجنوبيّة ، أيتها الجوّالّة ، إن مسكتي هو نهاية الدرب .
إنني أعرف تجوأتك ولغة خطاك ،
إن أصغر لمسة منك ترعشني وتوقظني من نعاسي ،
إن همسك يحصد أسراري .

(تدخل فرقة من الفتيات ، يرقصن
ويحاكين أشكال الطير)

نشيد الطير

السماء تهرق نورها في قلوبنا .
فنفعم السماء بالأغاني رداً عليها ،
إننا نرشق السماء بنغماتنا ،
حين يهيج الهواء أجنحتنا بجنونه .
إيم يا شعلة الغابة
إن مشاعل زهورك كلها ملتهبة .

لقد لُهمت أغانيها اللاهبة بشغف شبابك .
وتدفع براعم المانجو ، في نسيم الربيع ، برسالتها الى المجهول ،
ويتعالى همس أحلام الأوراق الفتية ، طوال النهار ،
إيم أيها الربيع ، لقد أقيمت بشبكة أريجك حول قلوبنا ، وسخبتنا بين
الأغاني .

(يتراءى بين أغصان الأشجار وهي تضاء
فجأة ، فتبان يحاكون زهور الشامباك)

نشيد برعم الشامباك المنور

إن ظلي يرقص فوق مويجاتك ،
أيها النهر المتدفق دوماً ،
إنني أنتصب ، أنا برعم الشامباك المنور . ثابتاً لأرجم ، على الشاطئ ،
مع زهوري الساهرة .
إن حركتي تختبئ ، في سكون أعماقي .
في عذوبة ميلاد الأوراق الفضة .
في فيض الزهور .
في الإندفاع الخفي من الحياة الجديدة نحو النور ،
إن هزتها ترعرش السماء ، وتحرك صمت الفجر .

(الصباح)

(تشيع العتمة في مؤخرة المسرح ، يتألق النور في مقدمته ، تدخل جماعة من الفتيان - يتراوح عددهم بين الثلاثة والثلاثين - وهم ينشدون)

إنَّ نار نيسان تطفر من غابةٍ الى غابةٍ ، متوامضةً ، منتفضةً ، أوراقاً وزهوراً ،

من جميع الأنحاء والأركان ،
السماء خيرةً إذ تبذل ألوانها ،
والفضاء يهذي بالأغاني ،
وأغصان الغابة التي تعبت بها الريح ،
تريقُ قلقها في دمننا ،
الفضاء مفعمٌ بذهول الغبطة ،
والنسيمُ يعدو من زهرة الى زهرة ، سائلاً عن أسمائها .

فتى : إنَّ نيسان يجذب بشدة يا أخي .
فتى آخر : كيف تبين لك ذلك ؟
فتى آخر : لو لم يفعل ذلك لما أتيح له أن يجذب (دادا) ويخرجه من غاره .

فتى آخر : حسنٌ ، إنني أعلن : ها هو ذا (دادا) قارئنا الموسق بالحكم الخلقية ، يُجرُّ في اتجاؤ مخالفٍ لمسيل قلمه ومداداه .
شاندرا : ولكن ينبغي لك ألا تعزو الفضل كله لنيسان ، فإنني أنا (شاندرا) . قد خبأت الأوراق الصفراء من مخطوطة كتابه بين

البراعم الغضة من غابة (بيال) . وإنّ (دادا) بسبيل البحث عنها .

فتى : أتكون مخطوطة كتابه قد ضاعت ؟ ياله من تخلص حسن!
فتى آخر : علينا أن نسلب (دادا) معطف فلسفته الرمادي أيضاً .
شاندرا : أجل ، إنّ تراب الأرض يرتعش فتوةً ، ومع ذلك فليس ثمة لمسة واحدة من لمسات الربيع في جسد (دادا) كلّهُ .
دادا : أوه ، أوقفوا هذا الجنون ، أيّ أذى تلحقونه بأنفسكم! لم نعد نحن أطفالاً .

شاندرا : (دادا) ، إنّ عمر هذه الأرض ليس بأصغر من عمرك ، ومع هذا فإنها لاتخجل من أن تتراءى في ميعه الصبا .

فتى : (دادا) ، إنك تجهد نفسك ، دوماً ، برباعياتك هذه الملأى بنصح قديم قدم الموت ، فيما تجد الأرض والماء في أن يظلاً فتيين .

فتى آخر : (دادا) . كيف تستطيع في الدنيا أن توالي نظم أشعار كهذه وأنت قابض في غارك ؟

دادا : حسن ، إنني لا أستبث القصيد كما يُستبث البستاني الهاوي أزاهيره ، فإن قصائدي تتضمّن مادتها وقيمتها في ذاتها .

فتى : أجل ، إنّها كنبات اللفت المتشبث بأديم الأرض .

دادا : حسن ، اصغوا إليّ اذن .

فتى : يا له من أمر مفزع! هاهو ذا (دادا) ينطلق ، هانجاً ، هانماً مع رباعياته .

فتى آخر : أوه ، ايها العزيز ، لقد تركت الرباعيات ، سائبةً ، وليس ثمة وسيلة لإيقافها .

فتى آخر : لقد انتهيت الى السابلة كافةً ، تحذيراً بأن رباعيات (دادا) قد

أُصِحتْ مجنونةً ، وأنها تعدو هانجةً .

شاندرا : (دادا) ، لا تُعَنِّ نفسك بمزاحهم ، وتابعِ قراءتك . إذا لم يقدر أحدٌ على تحمّلها ، فأحسب أنني قادرٌ على ذلك ، لست أنا بجبان كهؤلاء الأشخاص .

فتى : تعالَ ، إذن ، يا (دادا) ، لا نودُ أن نُضحي جبناءً ، سوف نلزم مكاننا ، لانحرف عنه مقدارَ بوصةٍ واحدةٍ ، بل نأخذ في الإصغاء إليك ليس غير .

فتى آخر : سوفَ تتلقَى طعناتٍ رماحٍ رباعياتك في صدورنا لا في ظهورنا .
فتى آخر : ولكن ، حنانيك يا (دادا) ، هلا تلتوت علينا رباعيةً واحدةً وحسب ؟

دادا : حسنٌ ، أصغوا ، الآن :

إذا كانت قصبات البامبو تصلح أن تكون ناياتٍ فحسب ، فقد تذوي وتموت من الخزي الشديد .
إنها تُشاعِر رؤوسها ، عالياً ، نحو السماء ، لأنها ذاتُ منافعٍ جمّةٍ مختلفةٍ .

فتى : عفواً إليكم ، أيّها السادة ، لاتضحكوا ، ولودوا بالصبر ، فيما أفسّر لكم . المعنى هو...
فتى آخر : المعنى ؟

فتى آخر : لماذا ؟ ثرى ، أينبغي أن يلي هجومُ جيش المعنى قصفاً مدافع رباعياتك ، حتّى تتَمَّ الغلبة ؟

دادا : ثمة كلمةٌ واحدةٌ وحسب ، تحملكم على الفهم ، إنها تعني أنه إذا كانت قصبات البامبو ليست بأفضل من تلك الآلات الصاخبة...

فتى : لا ، يا (دادا) ، ليس علينا أن نفهم .

فتى آخر : إنني أتحدثك بأن تجعلنا نفهم .
 فتى آخر : (دادا) ، إن فزعت الى القوة لحملنا على الفهم ، فلسوف نلجأ
 الى القوة لنقسر أنفسنا على ألا نفهم .
 دادا : إن موضوع الرباعية هو : إن لم نفعل الخير للعالم فإن...
 فتى : فإن العالم يفرج عنه آنذاك ، أعظم تفريج .
 دادا : ثمة أبيات ، تجلو ذلك على نحو أوضح هي :
 في سماء منتصف الليل ، نجوم شتى ،
 معلقة بالفضاء ، دون أيما هدف ،
 إذا شاءت أن تهبط الأرض ،
 ففي ميسورها أن تضحي مفيدة في إنارة الطريق .
 فتى : أرى أن واجبنا جعل المعنى أكثر وضوحاً ، اقبضوا عليه ، ولندعه
 ينتصب ، ناهض الكتفين ، ولنعد به الى غاره .
 دادا : لماذا أنتم اليوم هائجو الأعصاب ، هكذا ، هل لديكم عمل
 خاص تقومون به ؟
 فتى : بلى ، لدينا ، في الحق ، عمل عاجل جداً .
 دادا : وما عملكم هذا ؟
 فتى : إننا نبحث عن مسرحية ، نمثل فيها ، في مهرجاننا ، مهرجان
 الربيع .
 دادا : إلبوا ليل نهار ، إلبوا .

(ينشدون)

لقد تحررنا يارفاقي ، من الخوف من العمل ،
 لأننا تعلم أن العمل هو لعب ،
 لعب الحياة .

إنه للعبُّ أن نكافحَ ونندفع ،
 بين الحياةِ والموت ،
 إنه للعبُّ ذاك الذي يتألق ، في ضحكةِ النور المترققة في القلب
 اللانهائي ،
 إنَّه ليزأر في الريح .
 ويرغي ، مزيداً ، في البحر .
فتى : ها هو ذا مُرشِدنا قادم ، يا إخواني ، . ها هو ذا
 مُرشِدنا . ها هو ذا مُرشِدنا .
المرشد : تحيّي لكم ، أيّ ضجّة تثيرون! .
فتى : أهذا ما حَمَلَك على الخروج من الأبواب ؟
المرشد : أجل .
فتى : حسنٌ ، لقد قمنا بها ، لهذه الغاية .
المرشد : ألا تريدون أن أظللَ حُلْسَ بيتي ؟
فتى : ولماذا تظللَ حُلْسَ بيتك ؟ إنَّ العالمَ الخارجي قد صُنِعَ من البَذلِ
 السخي الذي تزجيه الشمس والقمرُ والنجومُ ، فذرنا نستمتعُ
 به ، ليكون في وسعنا أن نَعذَرَ الله في الإغضاءِ عن مثل هذا
 البذل والإسراف .
المرشد : بِمَ تتحدّثون ؟
الفتية : بما يلي :

(ينشدون)

اللعبُ ينورُ زهراً
 ويُنضجُ ثمرأً
 في أشعةِ شمسِ الشبابِ الخالد .

- اللعب يتفجر ، في النار الحمراء كالدم ،
ويحيل التفسخ والموت الى رماد .
- فتى : إن اعتراض (دادا) يدور حول هذا اللعب .
دادا : أقول لكم السبب في ذلك ؟
الفتية : أجل ، يا (دادا) في وسمك أن تقوله لنا ولكننا لا نَعِدُكَ
بالإصغاء .
- دادا : ها هو ذا :
الزمن هو رأسمال العمل ،
واللعب هو اختلاسه ،
اللعب يتهب الدار ثم يتلف ماسلبه ،
لهذا فإنّ العاقل يسمّه بأنه سيء ، أكثر ممّا هو عديم النفع .
- شاندرا : من المؤكّد يا (دادا) أنّك تتكلّم هراء ، إنّ الزمن نفسه هو
لعب ، إنّ هدفه هو تزجية الفراغ وحسب .
- دادا : ما العمل إذن ؟
شاندرا : العمل هو الغبار الذي يتعقد ما مرّ الزمن .
دادا : أيّها المرشد ، عليك أن تذكر لنا أجوبتك .
المرشد : لا ، لن أذكر لكم أيّ جواب ، ولكنني أسوق سؤالاً ، جواباً عن
سؤال آخر ، هذا هو نهجي في الإرشاد .
- دادا : إنّ لكلّ شيء حدوداً ، ولكن ليس لأعمالكم الغريرة حدود
البيّة .
- فتى : أتعلم السبب ؟ لأننا ، في الواقع ، لسنا سوى أطفال ، وأنّ لكلّ
شيء - فيما عدا الطفل - حدوداً .
- دادا : أفما تدركون سنّ الرشد ؟
فتى : لا . لن ندرك هذا السنّ أبداً .

فتى آخر : سوف نموتُ شيوفاً ، ولكن لن ندرك سن الرشد أبداً .
 شاندرا : حين نقابل سن الرشد . فلسوف نحلق رأسها ، ونضعه على
 حمالي ونبعث به عبر النهر .
 فتى : أوه ، تستطيع أن تتجنب الإزعاج الذي يصيبك ، في خلق رأس
 سن الرشد ، فإن هذا الرأس أصلع .

(ينشدون)

إن شَعَرْنَا لن يَخْطَهُ الشَّيْبُ أبداً .
 أبداً .
 ليس ثمَّ بَيَاضٍ من أجَلنا في الدنيا .
 ولا حَفْرَةً في طَرِيقِنا .
 لعل الذي تَتَّبِعُهُ أن يكون وهماً .
 ولكنه لا يَضِلُّنا أبداً .
 أبداً .

(المرشد ينشد)

إن شَعَرْنَا لن يَخْطَهُ الشَّيْبُ أبداً .
 أبداً .
 لن نَشْكُ في العالم ، ولن نَغْمِضَ عَيوننا لنذكر أبداً . أبداً ،
 لنَتَلَمَّسَ مَتَاهَةً فِكْرنا ،
 سوف نَتَدَقَّقُ ، مع فيضان الأشياء ، من الجبل الى البحر .
 ولكن لن نُضِلَّ في الصَّحراء الرَّمْلِيَّةَ أبداً ، أبداً .
 فتى : يبدو من مظهر (دادا) أنه سوف يسعى ذات يوم الى الرجل
 الشيخ ، ليتلقَى منه دروسه .

- المرشد : أي رجل شيخ ؟
- فتى : الرجل الشيخ المتحدث من سلالة آدم .
- فتى آخر : إنه يسكن في غار ، ولا يفكر في الموت البتة .
- المرشد : أين اتصل علمكم به ؟
- فتى : اوه ، كل إنسان يتحدث عنه ، وقد أشارت إليه الكتب أيضاً .
- المرشد : أي شيء يشابه ؟
- فتى : بعضهم يقول إنه أبيض كجمجمة رجل ميت ، وبعضهم يقول إنه أسود كوقب عين هيكلي عظمي .
- فتى آخر : ولكن ، ألم يتأذى إلى سمعك أخباراً عنه أيها المرشد ؟
- المرشد : إنني لا أؤمن به أبداً .
- فتى : حسن ، إن هذا ليناقض كل التناقض الرأي السائد بأن هذا الرجل الشيخ هو أثبت وجوداً من أي شيء آخر . إنه يحيا ضمن ضلوع الخلق .
- فتى آخر : أخذاً برأي حكيمنا فإننا نحن الذين لا نحظى بالوجود ، فليس في وسعنا التأكد من أننا كائنون أو غير كائنين .
- شاندرا : نحن ؟ إننا معاً جديدون أعظم الجدة ، ولم نلتق بعد أوراق اعتمادنا التي تبرهن على أننا موجودون .
- المرشد : ألم تمضوا حقاً وتعقدوا صلة وثيقة مع الحكماء ؟
- فتى : لماذا ؟ وأي ضرر في ذلك أيها المرشد ؟
- المرشد : إن وجودكم سوف تشحّب كضباب الخريف الأبيض ، وإن آخر أثر من لون الدم سوف يزول من دماغكم . إن لدي اقتراحاً .
- فتى : ما هو أيها المرشد ، ماهو ؟
- المرشد : ألم تكونوا بسبيل البحث عن مسرحية ؟
- فتى : أجل ، أجل ، إننا نبحث عنها في لهفة متقدة .

فتى آخر : إننا نفكر فيها ، على نحوٍ عنيفٍ ، أهاب بالناس أن يبادروا الى بلاط الملك ، ليسطوا له شكائهم .

المرشد : حسن ، أستطيع أن أقترح عليكم مسرحية ذات موضوع مستجد .

فتى : ماذا ؟ ماذا ؟ قل لنا .

المرشد : أمضوا وأسروا الرجل الشيخ .

فتى : إن هذا لجديدٌ . لاشك في ذلك ، ولكننا نشك كثيراً في أن تكون هذه مسرحية .

المرشد : أنا واثق بأنكم لستم أهلاً للقيام بها .

فتى : لسنا أهلاً لذلك ؟ . إننا سنقوم بها .

المرشد : لا ، لن تستطيعوا ذلك أبداً .

فتى : حسنٌ ، لنفترض أننا عمَدنا الى أسره ، فماذا تمنحنا ؟

المرشد : سوف أقبل كلاً منك معلماً لي .

فتى : معلماً ؟ أنت تريد أن يخطُ الشيبُ شعرنا . وأن نصبح باردين ، شيوخاً قبل أواننا ؟

المرشد : إذن ماذا تريدون مني أن أفعل ؟

فتى : إن أسرناه فلسوف ننزع عنك القياد .

المرشد : سيكون في ذلك لي تضريحٌ كبيرٌ ، فقد جعلتم عظامي كلها مفككةً ، حسنٌ لقد تقرر كل شيء .

فتى : أجل ، لقد تقرر ، سوف نقدّم به إليك ، حين يكتمل بدرّ الربيع المقبل .

فتى آخر : ولكن ماذا سنفعل به ؟

المرشد : سوف تدعونه يشارككم في مهرجان الربيع .

فتى : أوه ، لا ، إن في ذلك لمهانةٌ كبيرةٌ ، فإن زهور المانجو سوف

تستحيل على الفور الى بذر .

فتى آخر : وسوف تضحي طيورُ الوقواق كُلِّها بوماً .

فتى آخر : وسوف يذهب النحل منشداً شعراً سنسكريتياً ، مانناً الفضاء
بالطين المدوي : منس - نسس .

المرشد : وسوف تصبح مجتمكم ثقيلةً بالفتنة ، الى حدٍّ تجدون فيه
مشقةً لتستمسكوا على أرجلكم .

فتى : يا للهول!

فتى آخر : لسوف تُصاب مفاصلكم كُلِّها بالبرثية^(١) .

فتى آخر : يا للهول!

المرشد : سوف يصبح الواحد منكم الأخ الأكبر للآخر ، فيما يشدّ
بعضكم آذانَ بعضٍ ، لتحملوا أنفُسكم على الجلوس في
استقامة .

فتى : يا للهول!

المرشد : وسوف...

فتى : كفى « سوف » . إننا مستعدون للاستسلام .

فتى آخر : سوف تتخلّى عن لعبتنا الخاصة بأسر الرجل الشيخ .

فتى آخر : سوف نرجئها الى مقدم الطقس البارد ، فإنَّ صحبتك في هذا
الوقت الربيعي سوف تكفينا .

المرشد : آه ، لقد عرفت ، إنكم ظفرتُم برعشة الرجل الشيخ تسري في
عظامكم .

فتى : لماذا ؟ وما علامات ذلك ؟

المرشد : ليس لديكم الحماسة ، أنتم تنكفنون على أعقابكم ، منذ

(١) البرثية : الروماتيزم .

البداية . لِمَ لاتعمدون الى التجربة ؟

فتى : حسنٌ ، إننا متفوقون ، هيا بنا .

فتى آخر : لنمض خلف الرجل الشيخ ، سوف نقلعه ، كما نقتلع الشعر
الشائب ، حيثما وجدناه .

المرشد : ولكن الرجل الشيخ بارعٌ في أمور الإقتلاع ، وأحسن سلاح
لديه هو المعول .

فتى : لستَ بمحتاج الى محاولة إخافتنا ، على هذا النحو ، فإن علينا
حينَ نستعد للإقدام على مغامرة ، أن نرمي ظهرياً ، بالخوف
كله ، بالرباعيات كلها ، بالحكماء كلهم ، بالأسفار كلها .

(ينشدون)

إننا ماضون في طريقنا ،

لا نخشى اللص : الرجل الشيخ ،

إن طريقنا مستقيمةٌ ، فسيحةٌ .

إن عبننا خفيفاً ، لأن جيوبنا خاوية ،

من ذا الذي يستطيع أن يذهب منا جيوبنا ؟

إننا لا نألف الراحة ولا نستمرى الدعة ،

ولا يهمتنا الثناء ولا النجاح .

إننا نرقص على إيقاع ارتفاع الحظ وانخفاضه .

إننا نلعب لعبتنا ، سواء أخسرنا أم ربحنا ،

ولانخشى اللص .

الفصل الثاني

(بشراء الربيع يحاولون أن يسلبوا الشتاء ثيابه

اللييمة)

(المسرح الخلفي منير ، يكشف عن الشتاء ،

الشيخ ينال منه الفتية والفتيات الذين يحاكون

بلباسهم بشراء الربيع)

نشيدُ بُشراء الربيع

إننا نبحثُ عن رفاقنا في اللعب ،

موقطين إياهم من كل الأرجاء ،

قبل منبجِ الفجر ،

إننا نناديهم ، بتغريد الطيور ،

ونشير إليهم بهز الأغصان ،

وننفضُ لهم سحرنا ،

في روعة السحب ،

إننا نضحك من الموت المهييب ،

رجاة أن ينضمَّ إلى ضحكنا ،

إننا نمزق جراب الزمن ،
نظفر منه بسلبه .
إيو أيها الشتاء ، سوف تفقد قلبك لتهبه لنا ،
ولسوف يتألق في الأوراق المرتعشة ،
ويتحطم في الأزاهير .

نشيد الشتاء

دعوني أذهب ،
إنني أنصب شراعي لزمهرير الشمال ، لسلام الشواطئ المتجمدة .
إن ضحككم ليست في حينها يارفاقي ،
إنكم تحيلون ألحان الوداع إلى أغنية مرحبة بالقيادم الجديد ،
ولكن الأشياء كلها ، عاودت دفعها بي إلى حلبة الرقص القائمة في
قلوبها .

نشيد بُشراء الربيع

نحن عيون الحياة ، نكمن مترصين في كل مكان ، إننا ننتظر أن نسليك
الوفر الأخير من الساعات الذابلة ، لنبدده في مهب الرياح الشكسة ،
سوف نوثقك بسلاسل من الزهر ،
حيث يحرس الربيع أسراه .
لأننا نعلم أنك تحمل حليتك ، حلي الصبا ،
الخبية خلف أسمالك المغبرة .

الظهيره

(المسرح الخلفي مظلم ، يدخل رهط من الفتيان من المسرح الرئيسي . ليس هناك ضرورة لتغيير في التزييق المسرحي (الديكور) فقد ترك لخيال النظارة أن يتمثله)

فتى : أيها المُجيز^(١) ، أيها المُجيز ، إفتح بابك .

المجيز : ماذا تريدون ؟

فتى : نريد الرجل الشيخ .

المجيز : أي رجل شيخ .

فتى : لا نريد أي رجل شيخ ، نريد الرجل الشيخ .

المجيز : من هو ؟

فتى : الرجل الشيخ الحقيقي الأصلي .

المجيز : أوه ، فهمت ، لِمَ تريدونه ؟

فتى : لمهرجاننا ، مهرجان الربيع .

المجيز : لمهرجان الربيع ؟ ها جئتم ؟

لم نصبح كذلك فجأة ، فقد كنّا على هذا النحو ، منذ البدء ،

وسنبقى على هذا النحو حتى النهاية .

(ينشدون)

إن الزّمار ينفخ في نايه في بُهرة الحلقة ،

(١) المجيز ، الذي ينقل الركاب بزورقه أو بمعبوه من عدوة النهر الى العدوة المقابلة .

متوارياً عن النظر ، وقد عصف بنا الهياج ،
 وجعلنا نرقص ،
 وألمَّ بريح آذار الجنون .
 فأخذت تعدو وتدور وتترجّح مع الأغصان الصاخبة ،
 إنّ الشمس والنجوم قد قُذِفَ بها في دوامة الحبور .
 فتى : هلاً ذكرت لنا ، الآن ، أيها المُجيز ، أخبارَ الرجل الشيخ .
 فتى آخر : إنّك تمضي بمعبرك^(١) من مرسى شاطيء الى مرسى آخر ، لا
 ريب أنّك تعرف أين...
 المجيز : إنّ عملي مقصور على الممر فحسب ، أما أيّ ممر هذا ، وماذا
 يعني ، فلمّ تسنح لي فرصة بأن استوضح ذلك ، إنّ هدفي هو
 مرسى الشاطيء لا البيت ،
 فتى : حسنٌ ، لنمض ، ولنجرّب السّير في السُّبُل كلّها .

(ينشدون)

إنّ الزّمار ينفخ في نايه في بُهرة الحلقة ، متوارياً عن النظر .
 آه ، يا للنغم الهانج الذي ترقص على إيقاعه البحور الكبرى!
 وترقص قلوبنا الخفاقة .
 اقذف بالأعباء الكبرى والهموم يا أخي ،
 ولا تأخذك الرّيبة في طريقك ،
 فإنّ الطريق نفسها تتفجّح .
 تحت خطّ الحرية الرافضة ،
 المجيز : ها هو ذا العاس^(٢) ، سلّه ، أنا أعرف أمور الطريق ، وهو يعرف

(١) المغبر : ما يعبر به النهر .

(٢) العاس : العارس الليلي .

أُمُور عابري النهر .

العاس : من أنتم ؟

فتى : نحن من ترانا ليس غير ، هذا هو وصفنا وحسب .

العاس : ولكن ماذا تريدون ؟

فتى : نريد الرجلَ الشيخَ .

العاس : أيّ رجل شيخ هذا ؟

فتى : الرجل الشيخ الأيدي .

العاس : يا للعبث! بينا أنتم تبحثون عنه ، يسعى هو في أعقابكم .

فتى : لماذا ؟

العاس : إنه يجب أن يدفء دمه المتبرّد بخمر الشباب الحارة .

فتى : إننا نُعدُّ له استقبالاً حارّاً ، إنّ كل مانريده هو أن نراه ، هل

رأيتَه ؟

العاس : إنّ حراستي تتمّ في الليل ، إنني أرى مواطني ، ولكنني لا أعرف

قسمات وجوههم ، ولكن اتبھوا ، إنّ الجميع يعرفون أنّ الرجلَ

الشيخَ خطّافٌ كبير ، فيما تريدون أنتم اختطافه . هذا منتهى

الجنون .

فتى : لم يعدْ هذا سرّاً خبيئاً ، إذ لا يستدعي الأمرُ أمداً طويلاً ،

ليكتشف أننا مجانين .

العاس : أنا الحارس الليلي ، إنّ الناس الذين أراهم ، في مدى الدرب ،

يتشابهون كلّ التشابه ، لهذا فإمّا لمحتُ شيئاً عجيباً فإنه يصدم

ناظري دوماً .

فتى : اصفوا إليه ، إنّ النخبة المرموقة من جيراننا تُردّدُ هذا الشيء

نفسه بأنّ كلّاً منا عجيبٌ .

فتى آخر : أجل إنّ كلّاً منا عجيبٌ ، ليس في الأمر خطأ .

العاس : ولكن هذا كله غرارة طفولية .
فتى : أسمعتم هذا ؟ إنه نفس مايقوله صاحبنا (دادا) تماماً .
فتى آخر : لقد مضينا في ذلك ، مع غرارة طفولتنا ، عبر قرون سحيقة .
فتى آخر : والآن أصبحنا أطفالاً ثابتين .
فتى آخر : ولنا مرشدٌ هو دَرَبٌ في أمور الطفولة . إنه يندفع ، بكثيرٍ من الإستهانة ، فيطرح ، عند كل خطوة ، قليلاً من عمره .
العاس : ومن أنتم ؟
فتى : نحن فراشات تحررت من فيلجة العمر^(١) .
العاس (لنفسه) : مجانيين ، مجانيين يهرفون .
المجيز : ماذا ستفعلون كلكم . الآن ؟
شاندرا : ستمضي .
المجيز : الى أين ؟
شاندرا : لمّا نقرّر بعد .
العاس : أقرّرتُم المضي دون أن تعرفوا الى أين ؟
شاندرا : بلى سنقرّر ذلك ونحن ماضون .
العاس : وماذا يعني هذا ؟
شاندرا : إنه يعني هذا النشيد :
إننا نمضي ولا نتي نمضي .
إننا نمضي ، فيما تلمع النجوم الشاردة في السماء ثم تشحب .
إننا نعرّف لحن الطريق ،
فيما تنشر أعضاؤنا ، حوالينا ، ضحكة الحركة ،
ويخف ، في الفضاء ، معطفنا ، معطف الصبا ، المصنّع بشتيت

(١) الفيلجة : بيت من حديد تنسجه دودة القز على نفسها وتعرف عند العامة بالشرنقة .

الألوان .

العاس : أ تكون عادتكم أن تجيبوا بالأناشيد عن الأسئلة ؟
شاندرا : أجل ، وإلا فإن جوابنا يضحى غير مفهوم البتة .
العاس : إذن فأنتم ترون أن أناشيدكم مفهومة .
شاندرا : أجل ، حقاً ، لأنها تتضمن موسيقا .

(ينشدون)

إننا نمضي ولانتي نمضي ،
إن العالم ، هذا الجوّالة ، يحب رفاق طريقه ،
إن نداءه يوافي في السماء .
إن الفصول ترشدنا الى الطريق ، وتفعم دربنا بالأزاهير .
العاس : ليس هناك ، كائناتٌ عاديةٌ تغني هكذا ، خلال الحديث .
شاندرا : ها نحن أولاء ، نُستجلي من جديد : لسنا بكائناتٍ عاديةٍ .
العاس : أليس لديكم عمل تؤدونه ؟
شاندرا : لا ، نحن في عطلة .
العاس : لماذا ؟
شاندرا : مخافة أن يتبدد وقتنا كلّهُ .
العاس : لأفهمكم جيّداً .
شاندرا : إذن علينا أن نعاود الغناء .
العاس : لا ، لا ، ليس ثمة حاجة الى ذلك ، لا أمل أن أفهمكم على
نحو أفضل ولو تغنّيتم .
شاندرا : كلّ الناس تخلّوا عن أملهم في فهمنا .
العاس : ولكن كيف يمكن أن تسير الأمور لمصلحتكم مادامت سيرتكم
على هذه الشاكلة ؟

شاندرأ : ليس ثمة ما يدعو إلى أن تطرد الأمور وفق مصلحتنا ما دمنا نسعى نحن إليها .

العاس : إنهم مجانيين ، مجانيين حقاً ، مجانيين يهرفون .

شاندرأ : ها هو ذا صاحبنا (دادا) قادم .

فتى : (دادا) ، ما الذي يحملك على التخلف وراءنا ؟

شاندرأ : ألا تعلمون أننا أحرار كالرياح ، لأنه لا قوام لنا ، ولكن (دادا) شبيه بسحابة آب الممطرة ، وعليه أن يتوقف ، بين الفينة والفينة ، ليخفف من عبثه .

دادا : من أنت ؟

المجيز : أنا المجيز .

دادا : ومن أنت ؟

العاس : أنا العاس .

دادا : إنني مبتهج برويتكما ، أريد أن أتلو عليكما بعض ما كتبت ، إنه لا يتضمن أشياء تافهة ، بل يتضمن أهم العبر .

المجيز : حسنٌ هلاً أسمعنا .

العاس : لقد تعود معلمنا أن يقول لنا : إنه يتوفر عددٌ جُم من الناس لترديد الأشياء الحسنة ، ولكن لا يتسقى سوى عدد قليل للإصغاء إليها ، فإن الإصغاء يتطلب قوة الفكر ، والآن هيا بنا يا مولاي ، هيا اسمعنا .

دادا : ألمح في الشارع أحد الضباط يجرد تاجراً ، لقد رمى الملك هذا التاجر بتهمة كاذبة ، رجاء أن يستولي على ماله ، لقد أوحى إليّ هذا بشيء : يجب أن تعرفوا أنني لا أخط سطرأ واحداً دون أن يوحي إليّ به بعض الأحداث الجارية . في مقدوركم أن تتيّنوا ذلك بشعري ، في الشوارع والأسواق .

المجيز : ارجوك ، يامولاي ، لنستمع الى ما كتبت .
 دادا : إن قصبة السكر الممتلئة برحيقها ،
 قد امتصها ومضعها الشحاذون كلهم ،
 إيو أيها الرجال المجانين ، خذوا درسكم من هذا :
 إن الأشجار التي سلمت هي الأشجار المثمرة . سوف تدركون
 أن الإضطراب قد ألم بقصبة السكر ، لأنها تحاول أن تحتفظ
 برحيقها ، ولكن ليس ثمة إنسان يقطع - مهما يكن مجنوناً -
 الشجرة التي تؤتي ثمارها بحرية .
 العاس : يا لروعة هذه الكتابة! أيها المجيز .
 المجيز : أجل ، أيها العاس ، إنها تتضمن عبراً جليلاً مفيدة لنا .
 العاس : إنها تزودني بغذاء للتفكير ، لكم وددت لو أن جازنا الكاتب
 كان هنا ، فلعلني أن أستكتبه هذا . إبعث بشخص يطلب الى
 الناس في الساحة أن يجتمعوا .
 شاندراف : ولكنك قد وعدت أيها المجيز ، بأن تقدم معنا . إذا شرع
 (دادا) بتلاوة رباعياته ، فلسوف...
 المجيز : على رسلك ، لامجال لجنونك هنا ، إننا مجدّدو الحظ بلقاء
 معلّمتنا ، دعنا نهتبل هذه الفرصة فنظفر بالكلمات الطيبة ، كلنا
 بسبيل إلى الشيخوخة ، ومن يدري متى سنموت ؟
 الفتية : هذا سبب آخر يحملكم على توثيق عرى صحبتنا .
 شاندراف : إن في وسعكم ، دوماً ، الوقوع على (دادا) آخر ، ولكن ، إمّا
 اخترمتنا المنيّة ، فإن الله لن يعاود الخطأ في خلق كائناتٍ غير
 مجدّيةٍ مثلنا .

(يدخل الزيات)

الزيات : إيه ، أيها الحارس الليلي .
 العاس : من هنا ؟ أنت الزيات ؟
 الزيات : إنَّ الطفل الذي كنت أرعاه قد اختطف ، ليلة أمس .
 العاس : من الذي اختطفه ؟
 الزيات : الرجل الشيخ .
 الفتية (في صوت واحد) : الرجل الشيخ ، إنك لا تعني ما تقول .
 الرجل الشيخ ؟ .
 الزيات : أجل ، أيها السادة ، الرجل الشيخ ، ما الذي جعلكم مسرورين
 هذا السرور كله ؟
 فتى : إنها عادة سيئة ألفناها ، إننا نُسرُّ دون أيما سبب ؟
 العاس (لنفسه) : مجانيين ، مجانيين يهرفون .
 فتى : هل رأيت الرجل الشيخ ؟
 الزيات : أحسب أنني لمحته ، من مسافة بعيدة ، ليلة أمس .
 فتى : أشبه بمن كان يبدو ؟
 الزيات : كان يبدو أكثر سواداً من أخينا الحارس الليلي ، كان أسود
 كالليل ، وفي صدره كانت عينان تبرقان كقطريين^(١) .
 فتى : هذا لا يلائمنا البتة ، فإنَّ فيه مضايقةً وحرماً من أجل مهرجاناتنا
 الربيعي .
 شاندر : يجدرُ بنا إذن ، أن نبدل تاريخ عيدنا من وقت تمام القمر الى
 محاقه ، فإنَّ للقمر ، في محاقه ، عيوناً لا عداد لها في صدره .
 العاس : ولكن ، أحذركم يا رفاقي ، إنكم لا تقومون بهذا العمل في
 تبصر .

(١) التطرب : دويبة تضيء ليلاً .

فتى : لا ، لا نقوم به في تبصر .
 فتى آخر : لقد كشفنا ثانية ، إننا لا نقوم بشيء في تبصر . هذا مخالفاً
 لعادتنا .
 العاس : أتأخذون ذلك مأخذ المزاح ؟ أهدركم يا رفاقي ، إن هذا
 لخطر .
 فتى : خطر ؟ هذا خير مزحة بين المزحات كلها .

(ينشدون)

لسنا جيداً صالحين ولا جيداً عاقلين .
 هذا كل ما نحن أهل له .
 تتعقبنا السعاية من أرض الى أرض ،
 ويقتفي الخطر خطانا .
 إننا نهتم اهتماماً بالغاً بأن ننسى ماتعلمناه ،
 إننا نتكلم أشياء مخالفة لما جاء في الكتاب ،
 جالبين لأنفسنا الاضطراب ،
 والتقريع ممن أوتي العلم .
 العاس : سادتي ، إنكم تتحدثون عن مرشدٍ ما ، أين هو ؟ لو أنه كان
 معكم لوضعكم في السبيل السوية .
 فتى : إنه لا يمكن بيننا البتة ، لنلا يضطر الى إيقاننا في السبيل
 السوية .
 فتى آخر : إنه يدفعنا في طريقنا ، ثم يتوارى .
 العاس : إنها لفكرة عميقة في الإرشاد .
 شاندر : إنه لا يعنى البتة بأمر إرشاده ، لهذا فقد اعترفنا به مرشداً لنا .
 العاس : إذن فإن مهمته يسيرة جداً .

شاندرا : ليس إرشاد الرجال مهمةً يسيرةً ، ولكن تسييرهم أمرٌ سهلٌ جداً .

(ينشدون)

لسنا جدّ صالحين ولا جدّ عاقلين .
هذا كلّ مانحن أهلٌ له .

لقد ولدنا في وقتٍ سيءٍ الطالع ،
حين كان نجم الفطنة أكثر النجوم عتمةً ،
نستطيع ألا نأمل ربحاً من مغامراتنا ،
إننا نسيرُ قُدماً ، لأن ذلك واجب علينا .

فتى : (دادا) تعال ، هيا بنا نذهب .

العاس : لا ، لا ، يامولاي ، لاتعرّض نفسك للأذى في صحبتهم .
المجيز : هلا قرأت لنا يامولاي شعرك ، إن جيراننا موشكون أن يصلوا
وسيصيبون فائدةً عميقةً .

دادا : لا ، لن أبعد قيد خطوةٍ من هنا .

فتى : إذن ، فلنذهب ، إن الرجال في الشوارع لا قبِلَ لهم بتحملنا .
فتى آخر : لأننا نملؤهم صخباً وضجّةً .

فتى آخر : إنكم تسمعون طنين النحل الانساني ، يفغم منه شهْدُ رباعيات
(دادا) .

الفتية (في صوت واحد) : إنهم قادمون . إنهم قادمون .

(يدخل رهط من الفلاحين)

فلاح : أحقاً تُعَدُّ ندوةُ قراءة ؟ من أنتم ، أمزعمون على القراءة ؟
فتى : لا ، إننا نجترح كلّ أنواع القسوة ، فما عدا هذا النمط وسوف

تحمل إلينا هذه المزية الخلاص .

فلاح : ماذا يقولون ؟ يتراءون كأنهم يتكلمون ألفاراً .
شاندرا : إننا نتكلم أشياء نفهمها نحن أحسنَ الفهم ، ولكنها تظلُّ ألفاراً
يستغلُّ عليكم فهمها ، إن (دادا) يردّد لكم أشياء تفهمونها
جيداً ، وإنها لتجاوب في مسامعكم ، لباباً حقيقياً للفتنة .

(يدخل غلام)

الغلام : لم أستطع الإمساك به .
فتى : من هو ؟
الغلام : الرجل الشيخ الذي تبحثون عنه .
فتى : هل رأيته ؟
الغلام : أجل لقد رأيته يمر ، راكباً عربة .
فتى : أين ؟ في أيّ اتجاه ؟
الغلام : لا أستطيع أن أجلو لكم ذلك ، بدقّة ، فإنّ الغبار المرتفع من
عجالِ عربته مازال منعقداً في الفضاء .
فتى : إذن فلنمضِ .
فتى آخر : لقد ملأ السماء بالأوراق الميتة .

(يخرجون)

العاس : إنهم مجانيين حقاً ، مجانيين يهرفون .

الفصل الثالث

(مقدمة غنائية)

(الشتاء محسور القناع - شياطينه)

الخبى يوشك أن يظهر

(المسرح مضاء ، مظهراً الشتاء وبشراء الربيع)

نشيد بشراء الربيع

لكم يبدو وقوراً!

ياله من هرم هزأة!

كم يتراءى هادئاً مهيباً ، بين معدات الموت .

تعالوا ، أيها الرفاق ، أعينوه على أن يجد نفسه ،

قبل أن يدرك بيته ،

استبدلوا بشوب هجرته ،

ثوب شبابه الهازج بالغناء ،

واختطفوا منه جعبته الحافلة بالأشياء الميتة ،

وأربكوا حساباته .

(جماعة أخرى تنشد)

سوف يأزف الزمن الذي يعرف فيه العالم ،
إنك لن تتواري خلف ظلالك نفسها ،
إن قلبك سوف يتفجر سيولاً ،
منطلقة من ركام الجليد ،
وريحك الشمالية تلوي وجهها ،
نحو مئوى الأشباح المرفقة ،
هناك يتعالى درداد الطبل السحري ،
ويبتظر الشمس ، وفي نظرتها تشع ضحكة ،
أن ترى الى شعرك الشائب يحول الى لون أخضر .

(المساء)

(المسرح الخلفي مظلم ، النور في المسرح الرئيسي يميل الى العتمة
ويتحول الى لون رمادي أسود) .

(جماعة من الفتية)

إنهم يهتفون جميعاً .
ها هو ذا ، ها هو ذا ، إننا لا نجد حين نبحت عنه ، سوى الفبار
والأوراق الجافة . يخيل إلي أنني ألمح خفقة راية عربته ، عبر الغيوم .
إن اقتفاء أثره لأمر شاق ، فتحسب تارة أنه في الشرق وتحسب تارة
أخرى أنه في الغرب .
وهكذا فبئنا تعبنا ، ونحن نتبع الظلال طوال النهار ، وكذلك تبدد
النهار .

أقول لك الحقيقة ، إنَّ الخوف كان لا يأتلي يستبدُّ بفكري ، مع مُضيِّ النهار ،
لقد ارتكبنا خطأً ، إنَّ نور الصباح جعل يهمس في آذاننا : « مرحى
لكم ، امضوا قُدماً » ، والآن فإنَّ نورَ السَّماء يهزأ بنا .

إنني أخشى أن نكون قد مُنينا بالخيبة ، وقد شرع يخامرني شعور
بإحترام رباعيات (دادا) أكثر من ذي قبل ، وعمّا قريب سنقتعد الأرض
لننصرف الى نظم رباعيات .

حينئذ سيقبل الجيران كلَّهم ، وسيتحلّقون حولنا ، وسيظفرون بفائدة
كبيرة من فطنتنا ، بحيث لن يتخلّوا عنا أبداً .

وسنرسخُ هنا ، كصخرة كبيرة ، باردة ثابتة .

سيتشبّثون بنا ، كضبابٍ مرزم كييف ، ونحن جالسون ثمة .

إنني أتساءل : ترى ماذا يفكر فينا مرشدنا ، إن تَسَنَّى أن يسمعنّا الآن ؟
إنني موقن أن مرشدنا هو الذي تركنا نتشرّد ، لقد حملنا على كدح لا
طائل فيه ، فيما هو يستمرى الدعة والكسل .

لننكفى على أعقابنا ولنكافحه ، سنقول له : لن نتقدّم خطوة واحدة ،
ولكن سنترتّع ، ثائنين أرجلنا تحتنا ، إنَّ هذه الأرجل هي مشرّعات ، فهي
تضربُ دوماً في الدرب .

ستتماسكُ أيدينا ، بقوة ، خلف ظهورنا ، فليس ثمة أذى من خلف ،
إنَّ الإزعاج كلّه يأتي من أمام ، فالظهر هو من بين أعضاء جسمنا كلّه ،
أكثرها استيثاقاً ، إنه يقول : اضطجع على الأرض .

إنَّ صدورنا تنتفخ في خيلاء حين نكون شباباً ولكن ، في النهاية لن
يكون في وسعنا سوى الاضطجاع على ظهورنا .

ويخطر في ذهني الجدول الصغير المتدفّق الذي يمر بقريتنا ، في هذا
الصباح ، لقد مثّل في خاطري أنه يقول لنا : « الى الأمام » ، بيد أنه كان
يقول في الواقع : « زيفٌ وخداعٌ » ، إنَّ العالم كلّه خداع .

فتى : لقد تعود حكيمنا أن يقول لنا ذلك .
فتى آخر : سنمضي الى الحكيم حين نعود .
فتى آخر : لن نخطو خطوة واحدة تتجاوز حدود ما خطه الحكيم .
فتى آخر : أي خطأ وقعنا فيه ، لقد حسبنا أن التحرك ، في حد ذاته ، عمل بطولي .
فتى آخر : ولكنّ عدم التحرك هو الأمر البطولي حقاً ، لأنه تحدّ للكون المتحرك كلّهُ .
فتى آخر : يا لنا من ثائرين شجعان! لن نتحرك أبداً ، سوف نؤتي الجراءة ، لنصكث هادئين ، ولن نريم بوصة واحدة .
فتى آخر : « إن الحياة والشباب زائلان » ، كذلك يقول السنّثُرُ القديم ، لتمضي الحياة والشباب الى الجحيم فلن نتحرك أبداً .
فتى آخر : « إن فكرنا وثروتنا زائلان » ، كذلك يضيف السفر القديم ، ونقول نحن : « دعهما يمضيان ، والزم مجلسك » .
فتى آخر : لنعد الى النقطة التي بدأنا منها .
فتى آخر : ولكن هذا قد يتطلّب منا أن نتحرك .
فتى آخر : اذن ماذا ؟
فتى آخر : اذن لنلزم مجلسنا ، حيث جننا .
فتى آخر : ولنتخيّل أننا كنّا هنا قبل أن نأتي .
فتى آخر : أجل ، أجل ، إن هذا يحمل أذهاننا على الهدوء ، فلو أننا جننا من مكان آخر ، فإنّ الذهن يحنّ الى هذا المكان .
فتى آخر : إن أرضَ هذا المكان هي أرض خطيرة .
فتى آخر : هناك يتحرك أديمها ، بله طرقها ، أمّا نحن...

(ينشدون)

إننا نتشبت بمجلسنا ولا نتحرك البتة .
 ونسمح لزهورنا بأن تصوح في أمن ،
 وتتجنب عناء حمل الثمار ،
 لتنفض النجوم المتألقة جنونها الأبدي ،
 فإننا نطفئ شعلتنا ،
 لترتعش الغابة وليزأر البحر ،
 فإننا نجلس صامتين .
 ليقبل نداء الموجة الهادرة من البحر ،
 فإننا نمكث هادئين .
 فستى : ألا تسمعون هذا الضحك ؟
 فتى آخر : أجل ، أجل ، إنه ضحك .
 فتى آخر : يا لها من سلوى! إننا لم نسمع هذا الصوت منذ عصور .
 فتى آخر : لقد كنا نتشوف الى لهاث ضحكة .
 فتى آخر : إن هذا الضحك ينحدر إلينا كأنه ديمة نيسان .
 فتى آخر : من يضحك هكذا ؟
 فتى آخر : ألم تستطع أن تحزر ؟ إنه صاحبنا (شاندرا) .
 فتى آخر : أي هبة رائعة أوتيها في ضحكة ، إنه كشلال يجرف الأحجار
 السوداء من طريقه .
 فتى آخر : إنه كشاع الشمس يفري الضباب بسيفه ، إرباً إرباً .
 فتى آخر : إن خطر حمى الرباعيات كله قد زال الآن ، فلتنهض .
 فتى آخر : منذ هذه اللحظة ، لن نبلو شيئاً غير العمل ، كما يقول السقر
 القديم : « إن كل شيء في هذا العالم زائل ، ولا يعيش إلا من
 يقوم بواجبه ويظفر بالشهرة » .
 فتى آخر : لماذا تستشهد بهذا ، ألا تزال تشكو من حمى الرباعيات ؟

فتى آخر : ماذا تعني بالشهرة ، تُرى أيكترث النهر بزيده ؟ إن الشهرة هي
الزبد المتناثر من تيار الحياة .

(يدخل شاندراف والمنشد الضريع)

حسنُ يا (شاندراف) ، ما الذي يجعلك جذلاً ؟

شاندراف : لقد تقصيت أثر الرجل الشيخ .

فتى : من الذي هداك اليه ؟

شاندراف : هذا الشيخ المنشد .

فتى : إنه يبدو أعمى .

شاندراف : أجل ، لهذا فإنه لم يُغنَ بأن يبحث عن طريقه .

فتى : ماذا تقول ؟ أياكون قادراً على أن يهدينا سواء السبيل ؟

المنشد : أجل .

فتى : ولكن كيف ؟

المنشد : لأنني أستطيع أن أسمع خفق الخطأ .

فتى : إن لنا أذاناً ، ولكن...

المنشد : إنني أسمع بكياني كله .

شاندراف : لقد هبوا جميعاً مذعورين ، حين سألت عن أخبار الرجل

الشيخ ، إن هذا المنشد وحده يتراءى غير مذعور ، إنه لا

يخاف لأنه يستطيع ، فيما أحسب ، أن يرى .

المنشد : أتعلمون لم لا أخاف ؟ حين أفلت شمس حياتي وأضحيت أعمى

فإن الليل الداجي قد نَفَصَ لي أنواره كلها ، ومنذ ذلك اليوم ، لم

أعدُ أفرق من الظلمة .

فتى : لنمض إذن ، لقد ارتفع نجم السماء .

المنشد : دعوني أغن ، وامشوا فيما أنا أغني ، واتبعوني . ليس في

مكنتي أن أجد طريقي إن لم أغني .

فتى : ماذا تغني ؟

المنشد : إن أغنياتى تتقدمنى وأنا أتبعها .

ينشد : ينشد : رويداً ، رويداً يا صاحبي ، امض الى غرفتك الصامتة .

إنني لا أعرف الطريق ، فليس لديّ النور .

إنّ حياتي وعالمي مظلمان .

ليس لديّ سوى خفيّ خطاك .

يقودني وأنا في هذه العزلة .

رويداً ، رويداً ، يا صاحبي ، امش على الشاطئ المظلم ،

دع نداء الطريق يقبل هامساً ، تحت جناح الدجى ، محمولاً

على نسيم نيسان ،

ليس لديّ سوى شذا إكليلك ، يقودني وأنا في هذه العزلة .

الفصل الرابع

(مقدمة غنائية)

(رُحط من الفتيان ، يجسّدون الأشياء الفتيّة ، يدخلون ويعرفون
بأنفسهم في النشيد التالي) .

نشيد الشباب العائد

مرّة إثر مرّة ، نردّد : « الى اللقاء » ،
لنعود مرّة إثر مرّة .
وأنت من أنت ؟
أنا زهرة (فاكول) .
ومن أنت ؟
أنا زهرة (بارول) .
ومن هذه ؟
نحن براعم المانجو الراسية على شاطئ النور ،

إننا نضحك ونمضي ، حين يومئ لنا الزمن .
إننا نندفع الى ذراعي العودة الأبدية .
ولكن من أنت ؟
أنا زهرة (شيمول) .
ومن أنت ؟
أنا عنقود (كاميني) .
ومن هذه ؟
نحن الجهرة المحتشدة من الأوراق الفتية .

(يتراءى الشتاء في إهاب الربيع ويجيب عن الأسئلة التي تُلقِيها جوقة
الأحياء الفتية)

نشيد الأعباء المطروحة

ألا تقرّ بهزيمتك بساعد الشباب ؟
بلى .
ألم تلتق أخيراً بالشيخ الذي لا يقدر عمره والذي يظلّ دوماً في ريق
الشباب .
بلى .
ألم تتخطّ الجدران التي تتداعى وتدفن كل من يستظل بها ؟
بلى .

(جماعة أخرى تنشد)

ألا تقرّ بهزيمتك بسواعد الحياة ؟

بلى .
هل مررتَ عبر الموت ، لتمثلَ أخيراً ، وجهاً لوجه أمام الخلود ؟
بلى .
ألم توجه الضربة الى التراب الشيطاني الذي يبتلعُ مدينتك الخالدة ؟
بلى .

(تحيط به أزاهير الربيع وتنشد)

نشيد الجمال الغصن

كنّا ننتظر على خيَر الطريق ، نحصي الاوقات ،
حتى تجليت في صباح نيسان .
أنت تقدم كجندي فتي ظافر بالحياة ، مائل أمام باب الموت .
إيه ، يالروعة ذلك !
إننا نصفي ، وقد أخذتنا الدهشة ، الى موسيقا صوتك الفتى .
إن معطفك يخفق في الريح .
كأنه شذا الربيع ،
إن الغصن الأبيض من زهور (المالاتي) المعقود
فوق شعرك يتوامض كأنه عناقيدُ النجوم .
إن نارا تتأجج خلف قناع ابتسامتك .
اوه ، يالروعة ذلك !
ومن يدري ، أين خُبتْ سهامك .
التي تصمي الموت ؟ .

الليل

(المسرح الخلفي مظلم ، والنور في المسرح الرئيسي يمتد
بسواد الحزن وحمرة الأرجوانية)

(تدخل جماعة من الفتيات)

فتى : لقد مضى (شاندرا) من جديد ، مخلفاً إيانا .

فتى آخر : إنه لمن الصعب أن يُحمل على الهدوء .

فتى آخر : إننا نشدُّ الراحة ونحن جالسون ، بيد أنه لا يستمرنها الا وهو
ماضٍ .

فتى آخر : لقد جازَ النهارُ مع المنشد الضريع ، ففي غور عمى الضريع
حيث يبحث (شاندرا) عن النور الخفي .

فتى آخر : لهذا فإنَّ مرشدنا يدعوهُ بالفؤاص .

فتى آخر : إنَّ حياتنا كلها تضحي فارغة حين يغادرنا (شاندرا) .

فتى آخر : ألا تشمر ، مع ذلك بشيء ما في الفضاء ؟

فتى آخر : يخيل إلينا ، أنَّ السماء تنظر الى محيانا كرفيقٍ يلتبس
الوداع .

فتى آخر : إنَّ هذا الجدولَ الصغيرَ من الماء ينساب في دغل نبات
(الكازوارينا) ، إنه يتراءى كدموعٍ منتصف الليل .

فتى آخر : إننا لم نراعِ الأرض ، من قبل ، بمثل هذا الإهتمام .

فتى آخر : حين نعدو ، بعدنذ ، بأقصى سرعة ، فإنَّ عيوننا تنظر الى
أمام ، ولا نرى أي شيء الى جانبنا .

فتى آخر : وإن لم تتحرك الأشياء ولم تغب ، فلعلنا لا نرى جمالاً في أيما
مكان .

فتى آخر : وإن لم يؤت الشباب سوى حرارة الحركة ، فلعله يجف ويضوي ،
ولكن لديه دوماً الدمة الخفية التي تجعله رطباً ندياً .

فتى آخر : إن صرخة العالم ليست كلمة «عندي» وحسب ، بل كلمة
«أعطي» أيضاً ، فني الفجر الأول من الخلق ، كانت كلمة
«عندي» قد زُقت الى كلمة «أعطي» ، فلو تراخت هذه الصلة ،
الى القطع ، لآل كل شيء الى الخراب .

فتى آخر : لا أدري الى أين سيفضي بنا هذا المنشد الضريع ، أخيراً .
فتى آخر : تتراءى هذه النجوم المطلّة علينا في السماء كأنها نظرات العيون
التي لاحصر لها والتي التقينا بها في العصور المنسية الغابرة
كلها ، وتترأى زفرة الذين نسيناهم كأنما تخلص إلينا من
خلال الزهور ، قائلة لنا : «تذكرونا» .

فتى آخر : سوف تنصدغ قلوبنا إن لم نغن .

(ينشدون)

هل خلفت حبك وراءك يا قلبي ؟
وهل افتقدت الأمن طوال أيامك كلها ؟
أتكون الطريق التي سعت فيها قد أصبحت مضيةً منسيةً ؟
جاءلةً عودتك دون أمل ؟
إنني أمضي ، مطوّفاً ، مصغياً الى ثرثرة الجدول ، وحفيف
الأوراق ،
ويخيل إلي أنني سوف أجد طريقي التي تفضي الى أرض الحب
الضائع ،
خلف نجوم السماء .
فتى : يا لهذا اللحن الغريب! إنه يتناهى من موسيقا الربيع .

فتى آخر : إنه يبدو كلحن الأوراق الصفرة .
 فتى آخر : إن الربيع قد أذخر دموعه لنا ، خفيةً ، أثناء ذلك .
 فتى آخر : كان يخشى ألا نفهمه ، لأننا كنا فتیاناً أغراراً .
 فتى آخر : كان يريد أن يفرّ بنا بابتساماته .
 فتى آخر : ولكننا سوف نرقد قلوبنا ، الليلة ، في كآبة الشاطئ الآخر .
 فتى آخر : آه ، أيتها الأرض العزيزة ، أيتها الأرض البهية ، إنها تريد كل
 ما في حوزتنا ، تريد لمسة أيدينا ، أغنية قلوبنا .
 فتى آخر : تريد أن تستنبط ما في أعماقنا ، ولو كان ذلك خافياً علينا .
 فتى آخر : إن حزنها هو أن تعلم ، إذ تعثر على بعض الأشياء ، إنها لم
 تعثر على كل شيء ، إنها تضيع الشيء قبل أن تدركه .
 فتى آخر : آه ، أيتها الأرض العزيزة ، لن نتنكر لك أبداً .

(ينشدون)

سوف أزينك بياكليلي
 قبل أن أغادر ،
 إنك تكلميني ، دوماً ، في أفراحي وأحزاني كلها .
 والآن ، في نهاية اليوم ، فإن قلبي سينفطر بالكلام .
 إن الكلمات توافيني ، دون أن يوافي اللحن . والأغنية التي لم
 أغنها لك قط ، تبقى خبيثة ، خلف دموعي .
 فتى : ألم تلحظ يا أخي أحداً ما ، قد مرّ ، فيما يبدو من هنا ؟
 فتى آخر : إن الأمر الوحيد الذي تشعر به ، هو مروره هذا .
 فتى آخر : لقد شعرت بللمسة معطف أحد عابري السبيل .
 فتى آخر : لقد مضينا لنأسر شخصاً ، ولكننا نشعر ، الآن ، بتوقنا إلى أن
 نُؤسر نحن .

فتى آخر : آه ، ها هو ذا المنشد ، الى أين جئت بنا ؟ إن لهات العالم
الرحالة ، لهات السماء المطرزة بالنجوم قد لامسنا هنا .

فتى آخر : لقد قدمنا ، باحثين عن شكل مسرحية جديد ، ولكننا أنسينا ،
الآن ، أي مسرحية نريد .

فتى آخر : لقد أردنا أن نأسر الشيخ الرجل .

فتى آخر : الجميع يقولون إن مرآه مرعب ، فهو ذو رأس لا جسم له وشدق
فاغر ، إنه تئين يتقد رغبة في التهام قمر شباب العالم ، ولكننا
لا نستشعر ، الآن ، أي خوف . إن الزهور تصوح والأوراق
تذبل وموجات النهر تحبو ، ولسوف نأخذ نحن بمدرجتها
أيضاً . إيه أيها المنشد الضرير ، أمسك بمزهرك وغن لنا ، من
يعلم في أي ساعة نحن من الليل ؟

(المنشد الضرير ينشد)

دعني أهب نفسي كلها ، قبل أن أسأل ذلك ،

لمن يهب له العالم نفسه كلها .

حين جئت للفوز بنواله فإنني لم أخف .

ولن أخاف حين أقدم إليه ،

لأزجي إليه كل ما في حوزتي .

إن الصباح يتقبل الذهب الموشى بالأغاني ،

والمساء يرد له ذهبه ، مغتبطاً ، جذلان .

إن فرحة الزهرة المنورة تفيء الى ثمره ،

مع تساقط أفوافها .

أسرع يا قلبي ، وبدد نفسك في الحب ،

قبل زوال النهار .

فَتى : أيها المنشد ، لِمَ لا يزال (شاندرا) غائبا حتَّى الآن ؟
المنشد : ألا تعلمون أنه قد مضى ؟
فَتى : مضى الى أين ؟
المنشد : لقد قال : «سأمضي لأظفر به» .
فَتى : من ؟
المنشد : الذي يخشاه الجميع ، لقد قال : «فيمَ اذن أنا شاب ؟»
فَتى : آه ، إنه لأمر رائع ، إنَّ (دادا) مضى لـيستلوا رباعياته على
الفلاحين ، و(شاندرا) قد اختفى دون أن يدري أحد أيَّ قصدٍ
حمله على ذلك .
المنشد : إنه يقول : «إنَّ الرجال قد حاربوا ، دوماً ، في سبيلِ قضيةٍ ما ،
وإنَّ التحام هذا الصراع هو الذي يكدرُ نسيم هذا الربيع» .
فَتى : التحام ؟
المنشد : أجل ، إنها الرسالة التي تقول أنَّ صراع الرجال لَمَّا ينته بعد .
فَتى : أتكون هذه الرسالة هي رسالة الربيع ؟
المنشد : أجل . أولئك الذين أضحوا بالموت خالدين ، بعثوا برسالتهم في
الأوراق الرِّيا من الربيع ، تقول هذه الرسالة : «إننا لم نشك في
الطريق قط ، ولم نحصرِ الثمن ، لقد اندفعنا ، لقد تفتَّحنا ، فإذا
اتَّخذنا مجلسنا لتناقش ، فأين يمكن أن يكون الربيع ؟» .
فَتى : أتكون هي الرسالة التي جعلت (شاندرا) مجنوناً ؟
المنشد : إنه يقول :

(المنشد ينشد)

إنَّ زهور الربيع قد ضفرت لي اكليل النصر .
إنَّ ريح الجنوب تزفر لهاثها الناريَّ من دمي ،

إنّ النحيب الذي يتردد ، دون جدوى ، في ركن البيت ، يتناهى
من خلف .

ويعتّل الموت أمامي ، مقدّماً إكليله .

إنه عاصفة الشباب تمسّ بأناملها معزفَ السّماء ،

وقلبي يرقص على لحنها الوحشي ،

ليس لي أن أجني وأختزن .

إنني أنفق وأبدّد ،

إنّ البصيرة والراحة تودّعاني في يأس .

فتى : ولكن الى أين قد مضى ؟

المنشد : يقول : « ليس في ميسوري الإنتظار ، على عذار الطريق ، أكثر
من ذلك ، يتعيّن عليّ أن أذهب وأجتمع إليه وأظفر به » .

فتى : ولكن ، أيّ طريق قد سلك ؟

المنشد : لقد دخل الغار .

فتى : كيف فعل ذلك ؟ إنّ في الغار ظلمة مخيفة ، ثراه ، دون أن
يستوضح قد ...

المنشد : أجل لقد مضى ليستوضح بنفسه .

فتى : متى سيعود ؟

فتى آخر : أعتقد أنه لن يعود أبداً .

فتى آخر : ولكن إن تركنا (شاندرا) ، فإنّ الحياة تغدو غيرَ جديرة بأن
تعاش .

فتى آخر : وماذا تقول لمرشدنا ؟

فتى آخر : سوف يتركنا مرشدنا أيضاً .

فتى آخر : تراه ترك لنا رسالة ، قبل أن يغيب ؟

المنشد : لقد قال : « إنتظروني ، سأعود » .

فتى : سيعود ؟ ولكن ، أيها المنشد ، أين يجب أن تنتظره ؟
المنشد : أمام الغار الذي ينبجس منه جدول الماء متدفقاً .
فتى : أي طريق قد سلك ليصل الى هناك ؟
فتى آخر : إن الظلمة فيه تتراءى كسيفٍ مظلم .
المنشد : لقد تسمت صوت رفيفٍ أجنحة الطائر الليلي .
فتى : لِمَ لم تذهب معه ؟
المنشد : لقد تركني هنا لأمنحكم الأمل .
الفتى : متى ذهب ؟
المنشد : في الساعة الأولى من الليل .
فتى : أحسب أن الساعة الثالثة قد مضت ، والقضاء رطيبٌ بارد .
فتى آخر : حلمتُ أن ثلاثاً من النساء ، بشعرهنّ المحلول...
فتى آخر : إيه دعنا من حلمك بالنساء ، إنني مُضنىٌ بأحلامك .
فتى آخر : كل شيء يبدو ، نذيراً بشؤمٍ مظلم ، لم أتبه ، من قبل ، الى
نعيق اليوم ، ولكن الآن...
فتى آخر : ألا تسمع نباح الكلب ، على العدو البعيدة من النهر ؟
فتى آخر : يبدو أن ساحرة تركبه ولا تأتلي تجلده .
فتى آخر : من المؤكد أنه لو تيسر لـ (شاندرا) أن يعود لكان قد عاد
الآن .
فتى آخر : كم أود أن تنقضي هذه الليلة .
فتى آخر : ألا تسمع صرخة امرأة ؟
فتى آخر : أوه ، النساء ، النساء ، إنهن ينشجن ويكيبن دوماً ، ولكنهن
لايستطعن أن يحملن على العودة أولئك الذين يجب عليهم أن
يمضوا قدماً .
فتى آخر : إن الجلوس في هدوء ، هكذا ، أضحي غير محتمل ، إن الرجال

يتخيلون ألواناً من الأشياء ، حين يجلسون هادئين ، دعنا
نذهب أيضاً ، فإِما بدأنا السير في طريقنا ، فإِنا الخوف
يفارقنا .

فتى آخر : ولكن من الذي يرشدنا الى الطريق ؟

فتى آخر : هناك المنشد الضريع .

فتى آخر : ماذا تقول ؟ المنشد ؟ أتستطيع أن ترشدنا الى الطريق ؟

المنشد : أجل .

فتى : ولكن لا نستطيع أن نؤمن في ذلك إلا في صعوبة ، كيف يكون

في ميسورك أن تهدي الى الطريق بغنائك وحده .

فتى آخر : إن لم يعد (شاندرا) فلسوف تفعل ذلك أنت .

فتى آخر : لم نكن نعرف أننا نحب (شاندرا) على هذا النحو العنيف ، لقد

كنّا نقبس منه في تلك الأيام جميعها .

فتى آخر : وحين يواتينا مزاج اللعب ، فإننا ننصرف الى اللعب إنصرافاً هو

من القوة بحيث نهمل رفيق اللعب .

فتى آخر : ولكن ، إن اتفق وعاد إلينا فلن نهمله أبداً .

فتى آخر : أخشى أن نكون قد آلمناه في أكثر الأحيان .

فتى آخر : ولكن حبّه يرتفع فوق ذلك كله ، إننا لم نعرف قط ، كم كان

جميلاً وطيباً ، حين كان في ميسورنا أن نراه كل يوم .

(ينشدون)

حينَ كانَ النور يملأ عالمي . ،

فقد كنتَ تجلس بمنأى عن ناظري ،

أما الآن ، وقد تلاشى النور ، فإنك تقبل إلى قلبي .

حين كان في حوزتي دُمي ، فقد كنت ،

ألهو بها ، وكنت تبسم لي ، ساهراً عليّ
إلى جانب الباب ، والآن وقد تفتّت هذه الدمى ، وأضحت
تراياً ، فإنك تقدم وتجلس إلى جانبي .
لم يبقَ لديّ سوى قلبي ، كموسيقا لي ، حين تقطعت أوتار
معزفي .

- فتى : إن المنشد يجلس ، بالغ الهدوء والصمت ، أنا لأحبّ ذلك .
فتى آخر : إنه يبدو نذير شؤم كسحابة الخريف الثقيلة .
فتى آخر : لنصره .
فتى آخر : لا ، لا إنه يهب لنا الشجاعة ، حين يجلس هناك .
فتى آخر : ألا ترون أنّ محيّا خالٍ من أيّ أمارّة خوف ؟
فتى آخر : إنه يبدو وكأنّ رسالات كانت تضرب جبهته ، ويتراءى جسمه
وكأنه يكشف عن شخص ما ، في المدى البعيد ، ويمثّل في
الخاطر وكأنّ له عيوناً في أطراف أنامله .
فتى آخر : إن في ميسورنا أن نرى - من ملاحظته ليس غير - أنّ شخصاً ما
بمسبيل المجيء عبر الظلمة .
فتى آخر : انظروا ، إنه ينهض واقفاً ويستدير نحو الشرق ويحيّه بولاء .
فتى آخر : ومع ذلك فلا يبين أيّ شيء ، بله أيّ خيط من نور .
فتى آخر : لم لا يسأل عما يراه ؟
فتى آخر : لا ، لا تزعجه .
فتى آخر : أتعلم ؟ يخيل إليّ أن فجراً ينبجج فيه .
فتى آخر : كأنّ زورقاً كبيراً من نور قد رسا على شاطئ جبهته .
فتى آخر : إن فكره هاديء كسماء الصباح .
فتى آخر : إن عاصفة أغاني الطيور ستهبّ عما قريب .
فتى آخر : إنه ليمسك بمعزفه ، إن قلبه ليفتي .

فتى آخر : صه ، إنه ينشد .

(المنشد ينشد)

النصر لك ، النصر لك دوماً .

أيها القلب الشجاع .

النصر للحياة ، للفرح ، للحب ،

للنور الخالد ،

سينقضي الليل وسينمحي الظلام .

تمسك بالإيمان أيها القلب الشجاع ،

استيقظ من النوم من فتور اليأس ،

واستقبل بالأغاني نور الفجر الجديد .

شعاع من النور يرف على الغار

فتى : آه ، ها هو ذا (شاندرا) ، (شاندرا) .

فتى آخر : صه ، لا تثر أي ضجة ، لا أستطيع أن أستبينه بوضوح .

فتى آخر : آه ، لا يمكن أن يكون أحد غير (شاندرا) .

فتى آخر : آه ، ياللفرحة!

فتى آخر : (شاندرا) تعال .

فتى آخر : (شاندرا) ، كيف قدرت على فراقنا ، هذا الأمد الطويل ؟

فتى آخر : أكان في مقدورك أن تأسر الرجل الشيخ ؟

شاندرا : أجل ، كان في مقدوري ذلك .

فتى : ولكننا لا نراه .

شاندرا : إنه قادم .

فتى : ولكن هلا قلت لنا ماذا رأيت في الغار ؟

شاندرا : لا ، لا أستطيع أن أقول لكم .

فتى : ولِمَ ؟

شاندرا : لو كان عقلي صوتاً لاستطعت أن أقول لكم .

فتى : ولكن هل استطعت أن ترى من أسرت ؟ أيكون رجل العالم الشيخ ؟

فتى آخر : الرجل الشيخ الذي يؤذ أن ينهل بحر الشباب ، بظمأه الذي لا يُنقع .

فتى آخر : أأكون ذلك الذي يشبه الليل الحالك ، والذي ثبتت عيناه في صدره ، والذي انحرفت قدماء عن الوضع السوي ، والذي يمشي إلى خلف ؟

فتى آخر : تُرى أأكون ذلك الذي يتوج رأسه بإكليل من الجمال ، ويعيش في قاعِ المنية المتأجج ؟

شاندرا : لا أدري ، ليس في مكنتي أن أقول ، ولكنه قادم ، ولسوف ترونه .

المنشد : أجل ، إنني أراه .

(يقوى النور ، شيئاً فشيئاً ، على المسرح ، حتى يضيئه بالقرى باهر)

فتى : أين ؟

المنشد : هنا .

فتى : إنه يخرج من غاره ، ثمة شخص قادم من الغار .

فتى آخر : ما أجمله !

شاندرا : كيف ؟ أهذا أنت ؟

فتى : مرشدنا !

فتى آخر : مرشدنا !

فتى آخر : مرشدنا !
فتى آخر : أين الرجل الشيخ ؟
المرشد : غير موجود في أي مكان .
فتى : غير موجود في أي مكان !
المرشد : أجل ، إنه غير موجود في أي مكان .
فتى : إذن من هو ؟
المرشد : إنه حلم .
فتى : إذن أنت الحقيقي .
المرشد : أجل .
فتى : وهل نحن حقيقيون ؟
المرشد : أجل .
فتى : إن الذين رأوك من خلف ، تخيلوك في أنماط جمّة من الأشكال .
فتى آخر : إننا لم نتعرفك من تراب الأرض .
فتى آخر : كنت تبدو هرمًا .
فتى آخر : ثم خرجت من الغار . وأنت تبدو الآن غلامًا .
فتى آخر : يخيل إلينا ، أننا نراك للمرة الأولى ، ليس غير .
شاندرا : يخيل إليكم أنكم ترونه للمرة الأولى ، ولسوف يخيل إليكم ذلك ، المرة تلو المرة .
المرشد : (شاندرا) ، ينبغي أن تقرّ بهزيمتك ، إنك لم تستطع أن تأسر الرجل الشيخ .
شاندرا : لندع مهرجاننا يبدأ ، فقد بزغت الشمس .
فتى : أيها المنشد ، إن مكثت هادئاً هكذا فلسوف يغلبك النوم ، أنشدنا شيئاً .

(المنشد الضريع ينشد)

إنني أفقدك ، لأجدك المرة تلو المرة .
يا حبيبي .

إنك تغادرني ليكون في استطاعتي أن أعدّ لك مزيداً من حسن
اللقاء ،

حين تعود
أنت لا تستطيع أن تتواري خلف شاشة الزمن ، إلا لأنك لي
وحيدي ، الى الأبد .

يا حبيبي .
حين أمضي ، باحثاً عنك ، فإن قلبي يخفق ، ممّجاً غصوناً عبر
حيتي .

إنك تبتسم ، متنكراً في لبوس الغائب .
ودموعي تفعم ابتسامتك عذوبة

فتى : أتسمعون هذا الدوي ؟

فتى آخر : أجل .

فتى آخر : ليس بطنين النحل ، إنه لفظ الناس في الساحة .

فتى آخر : ينبغي ، إذن ، أن يكون (دادا) مع رباعياته ، قريباً ، على قيد
ذراع .

دادا : أيكون هذا هو المنشد ؟

فتى : أجل يا (دادا) .

دادا : أوه ، إنني لسعيدٌ بأنك قدمت ، يجب عليّ أن أقرأ مجموعة
رباعياتي .

فتى : لا ، لا تقرأ ، المجموعة كلّها . بل واحدة منها .

دادا : حسنٌ ، هاكم واحدةً :
 إنَّ الشمس ماثلة أمام باب المشرق .
 إن درداب طبل نصرها يدوي في السَّماء .
 يقول الليل : إنني مباركٌ ، وموتي هناءةٌ .
 إنه يتلقَى صدقته الذهبية ، ويملاً جرابه منها ثم يرحل .
 فتى : هذا يعني...
 فتى آخر : لا ، لا نريد أن تفسر لنا .
 دادا : إنه يعني...
 فتى : مهما يكن مايعنيه ، فقد اعتزمنا ألا نعرفه .
 دادا : ما الذي يجعلكم قانطين هكذا ؟
 فتى : إنه يوم مهرجاننا .
 دادا : آو هل الأمر كذلك ؟ إذن دعوني أمضي الى الجيران كلهم .
 فتى : لا ، يجب عليك ألا تمضي الى هناك .
 دادا : أتوجد حاجة إليّ هنا ؟
 فتى : أجل .
 دادا : إذن فإنّ رباعياتي...
 شاندرأ : سوف نلون رباعياتك بفرشاة ثخينة ، بحيث لا يعرف أيّما
 إنسان إن كانت تتضمّن معنى ما .
 فتى : وعندئذ ستضحى أنت مجرداً من أيّ معنى .
 فتى آخر : وسيهجر جيرانك .
 فتى آخر : وسينظر إليك الحارس الليلي على أنّك مجنون .
 فتى آخر : وسينظر إليك الحكيم على أنّك أبله .
 فتى آخر : وسيعتبرك أقرب الناس إليك عديم النفع .
 فتى آخر : وسيعتبرك الأغراب عجباً .

شاندرا : ولكننا سنتوجك يا (دادا) بإكليل من الأوراق الغضة .
فتى : وسنطوق جيدك بعقد من ياسمين .
فتى آخر : وسنكون وحدنا الذين يعرفون قيمتك الحقيقية .

نشيد مهرجان الربيع

(يجتمع في المسرح الرئيسي أشخاص المسرحية كلهم ، دون
أن يستثنى (سروتي بوشان) ، ليرقصوا رقصة الربيع)

تعالوا واستمتعوا ،
فإن نيسان يستيقظ ،
وأرموا بأنفسكم في تيار الوجود ،
وحطّموا قيد الماضي .
إن نيسان يستيقظ ،
وبحر الحياة غير المتناهي .
يجيش ، أمامك ، تحت أشعة الشمس .
كل ما هو مضيع قد ضاع ،
والموت قد غرق بين أمواجه ،
فقص في أعماقه ، دون خوف .
وغبطة نيسان تملأ حنايا قلبك .

شَيْتَا

مقدمة

تتكئ هذه المسرحية الغنائية المكتوبة عام ١٨٨٩ على القصة التالية المأخوذة عن (المهابهاراتا) :

بينما كان (أرجونا) يسعى في مضطربه ، استجابةً لنذره ، توقّف في ، (مانيبور) وبصر ثمة بالحسناء (شيترا نفادا) ابنة (شيترا فاهانا) ملك المقاطعة ، ففتن بقسماتها وخطبها الى أبيها واستوضحه (شيترا فاهانا) عن شخصه . ولما عرف أنّ المائل أمامه هو (أرجونا يانداما) قال له :

- إنّ (برابهاتجانا) أحد أجدادي . من الأسرة الملكية في (مانيبور) ظلّ أمداً طويلاً دون عقب . فتكلّف أنواعاً من النذور القاسية ليرزق بوريث . وسرّ الرب (شيفا) بما بلا يد النكاح نفسه من الجهد فحقّق له رغبته . على أن يقدر له ولكل من أعقابه طفل وحيد . وقد حدث إنّ كلّ طفل موعود من سلالة كان غلاماً . غير أنني كنت أودّ من رزق بانثي هي (شيترا نفادا) التي سيدوم بها نسي . وقد ربّيتها كما نو كانت غلاماً وجعلتها وريثة لي .

وتابع المنك كلامه قائلاً

- إنّ الغلام الذي سيولد منها ينبغي أن تنحدر منه سلالتي ، هذا الغلام هو الثمن الذي سأطالب به لقاء هذا الزواج ، فلك أن تبني بها ، إن شئت ، بهذا الشرط .

فوعده (ارجونا) بذلك ، واتخذ (شيترانفادا) زوجاً له ، وعاش معها في عاصمة أبيها ثلاثة أعوام ، ولمّا رزق منها بغلام ، عانقها في حنانٍ ، وودّعها ثم ودّع أباه ، وانصرف عائداً الى تجواله .

الأشخاص

الآلهة :

مادانا (ايروس) : إله الحب .

فازانتا (ليكوريس) : إله الربيع .

الفانوس :

شيترا : ابنة ملك (مانيبور) .

ارجونا : أمير من أسرة (كوروس) وهو من طائفة (كشاتريا) المحاربة ،

يسيم في المسرحية حياة ناسك في الغابة .

قرويون : من ضواحي مقاطعة (مانيبور)

ملاحظة :

مثّلت هذه المسرحية الشعرية في الهند ، دون أي تزويق

مسرحي (ديكور) فكان الممثلون يلعبون ، يتحلّقهم النظارة .

وقد وجهت ، حول عرض المسرحية ، اقتراحات إلى المؤلف ،

فأضاف الى هذه الترجمة (التي أداها المؤلف نفسه بالإنكليزية)

بعض الإيضاحات ، بيد أنه رغب في أن تحذف ، حين تطبع

المسرحية في كتاب .

المنظر الأول

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شيترا : أنت الاله ذو السهام الخمسة ؟ أنت إله الحب ؟
مادانا : أنا أول من ولد في قلب الخالق ، أنا من يشدّ بقيود العناء
والهناء ، حياة الرجال الى حياة النساء .
شيترا : أجل ، إن قلبي ليعرف هذه القيود ويبلو هذا العناء ، وأنت ، من
أنت يا مولاي ؟
فازانتا : أنا صديقه (فازانتا) ملك الفصول . إن الموت والفناء موكلان
بالدنيا يكادان ينخران عظامها ، لولا إني ألاحقهما ولا أني عن
مهاجمتهما حيث ثقفتها ، فأنا الشاب الخالد .
شيترا : مولاي (فازانتا) لك أحني هامتي .
مادانا : ولكن أي نذر عتيّ تكلفته ؟ أيتها المجهولة الرقيقة ، لم تضوين
صباك الفنيان ، بالتقشف والزهد ؟ إنّ تضحية كهذه ، لا تأتلف
مع عبادة الحب ، فمن أنت ؟ وأي صلاة يرتل فوك ؟
شيترا : أنا (شيترا) سليلة الأسرة الملكية في (مانيبور) لقد وعد الرب
(شيفا) بنعمته الخيرة وعوداً كريماً لجدي الملك ، بذرية متصلة
من الذكور بيد أن الكلمة الألهمية لم يتأت لها أن تغيّر قبس
الحياة في بطن أمي ، لئن خلقتني ربّي امرأة ، لقد أوتيت طبعاً
عصيّ القيادة .

مادانا : أعلم ذلك ، لهذا فإن أباك أنشأك كما لو كنت غلاماً ، فعلمك
النزع^(١) في القوس ، ولقنك واجبات الملوك .

شيترا : أجل ، لهذا فقد اتخذت دثار الرجال ، وعزفت عن خدور
النساء ، وإني لأجهل حياة المرأة في قنص القلوب ، إن يدي
القويتين لقادرتان على عطف القوس ، أما سهام (كيوييد) فلم
أفوتها قط ، ولم أحذق لعبة لحظ العيون .

مادانا : لغة العيون لاتلقن آيتها الشابة الفتاة ، إنها تريش سهامها
وتجرح بلحاظها دون أن تدري ، ولا يبلو وقعها إلا من يتلقى
طعنتها في فؤاده .

شيترا : ذهبت الى القنص ذات نهار ، وهمت وحدي في الغابة على
شاطئ نهر (بورنا) ، وعقدت عنان جوادي بجذع شجرة ،
وغبت في دغل كثيف ، خلف غزال ، فإذا بدرب ضيقة تتلوى في
فيء غصون متواشجة ، وترتعش أوراقها على غناء الجداجد ،
شفقاً ووجداً . وفجأة . رأيت على الدرب شخصاً مستلقياً فوق
الهشيم . طلبت إليه في صلف ، بأن يتنحى ، ولكنه لم يرم .
وحينئذ ، همزته بسية^(٢) قوسي ، فهب ، كأنه لسان من النار
شبت بكون رمادي ، واستوى ، قائماً ، مشيقاً ، ونسمت على
شفتيه ابتساماً مستظرفة ، لعل مردّها سيماء الفتى التي كنت
أبدو فيها . عندئذ ، شعرت ، لأول مرة في حياتي ، بأنني
امرأة ، وأن أمامي رجلاً تتمثل فيه الرجولة الحقّة .

مادانا : متى آن الأوان ، فإنني ألقن هذا الدرس السامي : ينبغي لكل امرأة
ورجل أن يعرف كل منهما حقيقة نفسه ، وماذا جرى بعد ذلك ؟

(١) نزع في القوس : مدّها وجذب وترها .

(٢) سية القوس : طرفها

شيئاً : سألت ، في خوفٍ يمازجه عجب : ترى من تكون ؟ فأجاب : أنا (ارجونا) من قبيلة (كوروس) العظيمة ، عندئذ جمعت وتحجرت كتمثال ، وانعقد لساني ، ونسيت أن أؤدّي له واجب الاحترام ، أحقاً أراه ؟ أرى (ارجونا) معبود أحلامي ، أجل ، لقد سمعت ، منذ زمن بعيد ، أنه آلى على نفسه التبتّل مدى اثني عشر عاماً . لطالما هاج قلبي طموح الصبا ، فتمنيت أن يتكسر رمحي على رمحه ، فأستثيره ، وأنا متذكّرة الى القتال ، لأريه حذقي في المصاولة بالسلاح . آه يا قلبي المجنون ، أين غابت كبرياؤك ؟ لقد كان يتراءى لي ، كأثمن نعمة أفوز بها ، أن أبادل بتعلات شبابي كلّها ذرّة من التراب تطوؤها قدمه ، ولم أدر في أيّ دوامة تهت ، حين توارى عن ناظري خلف الأشجار ، يالك من امرأة حمقاء ! لم تقابليه بالتحية ، ولم تعتذري إليه ، وظللت ثمة واقفة كريفيةٍ ساذجة ، فيما كان ينأى عنك مستخفاً بك ، ساخراً ، وفي الغد عفت ثياب الرجال ، تزينت بأساورٍ وقلادةٍ وتمنطقت بزئار وارتديت غلالة أرجوانيّة ، وداخلني الخجل من دثاري الجديد الذي لم أعتده ، وانكفأت مسرعةً ، أسعى الى طلاب (ارجونا) فوجدته في الغابة قريباً من معبد (شيفا) .

مادانا ، تابعي قصّتك حتّى غايتها ، أنا ربّ القلوب ، وإنني لأعلم أسرار نزوتها .

شيئاً : إنني أذكر على نحوٍ مبهم ، ماقلت وماسمعت ، فلا تسلني أن أروي لك كلّ شيء ، إنّ الخجل قد انقضى عليّ كالصاعقة ، ولكن دون أن يتأتّى له تمزيقي ، لصلابة جبلت عليها تماثل صلابة الرجال ، ولما اتخذت سمّي ، عاندةً ، الى الدار جعلت كلماته الأخيرة تنفذ الى أذني كإبرٍ ملتهبة .

«لا يمكن أن أضحي زوجاً لك فقد نذرت نفسي على التبتل»
 آه ، يالنذر الرجال ، أنت تعلم يا إله الحب . إن الكثيرين من
 القديسين والحكماء قد أزوجوا إلى قدمي امرأة ، كل ما نالوا من
 اعتبار وتقدير ، في حياة ملأى بالتقشف ، وقصفت قوسي ،
 ونبذت سهامي إلى النار ، وكرهت ذراعي الفتية المدربة على
 شرعة^(١) القوس . إيه يا رب الحب ، لقد استنزلت إلى التراب ،
 كبريائي العقيمة ، كبرياء قوتي الفحلة ، إن مراسي كلها تقع
 محطمة ، عند قدميك . زودني الآن بدروسك . هب لي بأس
 الضعيف ، وامنحي السلاح الغلاب ، سلاح اليد العزلاء .
 مادانا : سأكون صديقاً لك ، وسأسوق إليك فاتح العالم (أرجونا)
 أسيراً ، ليلقي على يدك جزاء تمرده .
 شيترا : لو انفسح لي الوقت لأتيح لي أن أظفر شيئاً فشيئاً بقلبه ، دون
 أن أستمّد عون الآلهة ، فأقف إلى جانبه ، كرفيق له ، وأقود
 جياده العارمة التي تجرّ مركبته المحاربة وأراقفه في رحلاته إلى
 الطراد ، فأحرسه وأسهر عليه ، ليلاً ، أمام باب خيمته ، وأعينه
 على أداء واجبه كرجل من طائفة (كشاتريا) ، ليحمي الضعيف ،
 وينتصف للحق ، ويقيم العدل ، وأخيراً سوف يقبل يوم يلمحني
 فيه ، فجأة ، وسوف يتساءل : «من هذا الفتى ؟ تراه عبداً رقيقاً
 من عبيدي قد لزممني من قبل وتبعني في مضطربي هذا ؟» .
 لا ، لست كذلك المرأة التي تغذو يأسها بالصمت والعزلة ،
 وتنضجها بعبرات الليالي ، وتواريه بالبسمة الصابرة ، نهاراً ، ولا
 كذلك المرأة الأيم التي فطرت على الترمّل ، منذ مولدها . إن

(١) شرعة القوس : وترها .

زهرة رغباتي لن تتهاوى إلى التراب قبل أن توتي أكلها . إن
كدح الحياة كلّها هو الذي يمكّننا من معرفة ذاتنا الحقيقية
وإكبارها . ولهذا قصدت بابك أيها الحب . يا من قهرت العالم ،
وأنتَ (فازانتا) ياسيد الفصول الشاب ، أجتث من جسمي عيبه
الأول : فقدان الملاحة الأسرة . هب لي في يوم واحد فقط ،
جمالاً ذا أسرٍ يماثل أسر هذا الحب الوليد المفاجئ في قلبي ،
إيـو يا إله الحب امنحني يوماً قصيراً هنا فيه بالجمال الكامل ،
اتبعك ملبّيةً ، في جميع الأيام التي تليه .

مادانا : أيتها الفتاة ، لقد استجيب دعاؤك .

فازانتا : إن سحر براعم الربيع الطلق ، سوف يسربل جسمك الناضر ، لا
في أمدٍ قصيرٍ من يومٍ عابرٍ ، بل في مدى عام كامل .

المنظر الثاني

(ارجونا ، شيترا)

ارجونا : تراني كنت أحلم ؟ أم أن ما رأيت على ضفاف البحيرة كان حقيقة ؟ . كنت قد اقتعدت الأرض المكسوة بالطحلب ، ناعماً بالظلال المتطامنة من السماء ، مفكراً في الأيام الخالية ، حين انسأب ، رويداً ، رويداً ، من غور عتمة الأوراق ، طيفاً من الجمال كامل نقي ، طيف امرأة . وقفت على سيف الماء ، فوق بلاطة بيضاء من حجر ، فكأن قلب الأرض كان يخفق ، جذلان ، تحت قدميها العاريين . وكان يخيل إلي أن الغلالة الهفافة التي تلف جسدها ، تذوب نشوة في الفضاء ، كما تذوب غمامة الفجر الذهبية المنزاحة عن قمة الراية الشرقية المكلفة بالملج . وانحنيت على المرأة المتألثة من ماء البحيرة ، وجعلت تديم النظر في وجهها المنعكس على صقال الماء ، وانتصبت واقفة ، في وجل . وخفقت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ثم حلت يدها اليسرى غدائر فرعها ، في هينة ومهل ، فانسابت ، أثيثة ، حتى لامست قدميها وكشفت عن صدرها ، وأمكنت النظر في ذراعيها اللتين تحدوهما الغريزة الى المداعبة الحلوة . وأخذت ترنو ، حانية الرأس ، إلى تفتح صباها الطري ، وتتطلع الى حمرة الحياة اليانعة المترققة في إهابها الغض . وكانت تشع بجذوة مفاجئة سارة ، كما لو أن برعماً

من زهر اللوتس الأبيض فتح عينه ، عند منبج الفجر ، ثم لوى
جيده ، ليرامق ظلّه ، على صفحة الماء ، وظلّ ، سحابة يومه ،
مأخوذاً بنفسه ، منتشياً . بيد أن الابتسامة لم تلبث أن تلاشت ،
بعد لحظة ، من محياها ، وغام في عينيها ظلّ كآبة ، فعمقت
غداورها ، وغطّت ذراعيها بغلالتها ، وآبت وهي تتنهد في وني ،
وغابت ، كمساء جميل يمحي في الليل ، وهكذا خيل إليّ أن
التحقيق الأسمى للرجبة ، قد تجلّى ، كاملاً ، في ومضة . ثم لم
يلبث أن اختفى . ولكن من ذا الذي يدفع الباب ؟

(تدخل شيترا الى المعبد ، في زي امرأة)

ارجونا : إنّها هي ، مهلاً ، أيها القلب ، لاتخافي أيتها الفتاة . فأنا من
طائفة (كشاتريا) .

شيترا : أنت ضيفي . يا مولاي المبخّل . إنني أسكن هذا المعبد . كيف
أستطيع أن أحوطك بالإكرام الجدير بك ؟

ارجونا : أيتها الغادة الحسنة ، إن مرآك هو في الحق ، أسنى إكرام .
تري أأقدر أن أتجه اليك بسؤال ، إن لم يسؤك ذلك ؟

شيترا : لك أن تسأل .

ارجونا : أي نذر يلزمك أن تطلّي حبيسة في هذا المعبد المنزل ويحرم
الناس الفانين اجتلاء هذا السناء البهي ؟

شيترا : تكمن في قلبي رغبة خفية ، وأن أتجه ، كل يوم ، بصلاتي إلى
الاله (شيفا) لتحقيق هذه الرغبة .

ارجونا : وألسفاه ، أي رغبة تتشوفين إليها أنت يارغبة الكون كله ؟ لقد
ضربت أيتها الفتاة ، في كل مراد من الأرض ، سائحاً ، متجولاً ،
من أقصى الجبال في المشرق ، حيث تطيع ، على ذراها شمس

الصباح أقدامها النارية ، حتى منتهى أرض المغرب ، ورأيت أنى
سعت أسمى كل شيء وأتمنه وأحلاه ، وإني لأضع خبرتي تحت
تصرفك ، وما عليك إلا أن تذكر لي عمّ تبحثين وعمّ تبحثين .

شيترا : إن من أبحث عنه معروف من الناس كلهم .

ارجونا : حقاً ؟ من هو صفى الآلهة ، هذا الذي اكتسح مجده قلبك ؟

شيترا : إنه سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ، إنه أعظم الأبطال كلهم .

ارجونا : سيدتي ، لاتضحّي بكنز جمالك هذا ، على مذبح مجدر زائف ،
إن الشهرة المزورة تنتقل من شفة الى شفة ، كضباب الفجر
الذي يسبق مطلع الشمس . هلاً قلت لي : من هذا البطل
العظيم ، سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ؟

شيترا : أيها الناسك ، إنك لغيور من صيت الرجال الآخرين ، أتجهل أن
أسرة (كوروس) هي أشهر أسرة ملكية في الدنيا .

ارجونا : أسرة (كوروس) ؟

شيترا : ألم يتصل بسمك اسم أروع أسماء هذه الأسرة الملكية ؟

ارجونا : ذريني اسمعه من شفتيك .

شيترا : إنه (أرجونا) فاتح العالم ، لقد تلقفت هذا الاسم الخالد من
شفاه الناس ، وخبأته في قلبي الكبر ، خفية به ، حريصة عليه .
أيها الناسك ، ما بالك تبدو مضطرباً ؟ أيقون تألق هذا الاسم
خداعاً ؟ أجب فلن أتوانى عن كسر سبط قلبي^(١) ، لأقذف منه
الى التراب بهذه الجوهرة الزائفة .

ارجونا : لتكن مآثره وشجاعته واسمه حقيقة أو زائفة ، حنانيك ، لاتقصيه
عن قلبك ، إنه جاشر ، الآن ، أمام قدميك .

(١) السبط : وعاء تضع فيه المرأة حلالها .

شيترا : أنت أرجونا ؟

ارجونا : أجل ، أنا هو الضيف الجائع الى الحب ، جاء يقرع بابك .

شيترا : إذن ليس بصحيح أن (أرجونا) قد نذر التبتل على نفسه ملوأل اثني عشر عاماً .

ارجونا : لقد نسخت أنتِ نذري ، كما ينسخ القمرُ الظلمة التي نذرها الليل على نفسه .

شيترا : آه ، يا للعار! ماذا وجدت لدي ، لتنقض نذرك وتخدع نفسك ؟

ماذا تبغي من هاتين العينين السوداوين وهاتين الذراعين البضاوين كاللين ؟ أجل ، أنا أعلم أنك لا تنشد حقيقةً روحي ، مادمتَ مهتاً لأن تضحي بإخلاصك في سبيل عيني وذراعي ، لا يمكن أن يكون هذا هو الحب ، ولا أسمى ثناءً يسوقه رجلٌ الى امرأة . وأأسفاه ، إن الجسد هذا القناع الزائل ، قد يعمي الانسان عن اجتلاء الروح الخالدة . إنني أدري ، الآن ، إن صيت بطولتك ، يا (أرجونا) هو ، في الحق ، زائف .

ارجونا : آه ، كل شيء ، يتجلى لي بسبيل الى الحلم ، يا لهذا المجد من مجده عقيم ، ويا لهذه الشجاعة المزهوة من شجاعة باطلة ، أنتِ وحدك ، أيتها المرأة الفريدة قد استشرفت الكمال ، أنتِ ، ياغنى الكون . يا نهاية كل متربة ، يا مطمح كل جهدٍ من الناس من تُستجلى معرفة نفوسهم ، في أمدٍ متمهلٍ وثيدٍ ، أما رؤيتك ، في لحظة خاطفة ، فإنها استجلاء الكمال ، مرةً واحدةً ، تستغرق الدهر كله .

شيترا : وأأسفاه ، لست تراني أنا يا (أرجونا) ، بل ترى خدعة رب ، امضِ يا بطلي ، امضِ ، لا تتعلق بطيفٍ مضللٍ ، ولا تقدم قلبك الكريم الى وهم . امضِ .

المنظر الثالث

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شيترا : لا ليس هذا ممكناً ، ليس في مقدوري أن أقاوم هذه النظرة
المتقدمة التي تستبد بي ، كأنها الأيدي الناشبة التي تمدّها
الروح الجائعة ، في باطني ، وأن أشعر وجيب هذا القلب وهو
يناضل ، ليحطم أغلاله ، مستثيراً صرخته المشبوبة في الجسد
كله . ثم إن أصرّفه عني . بعد ذلك ، كما لو كان سخّاذاً ؟ لا ،
ليس هذا ممكناً .

(يدخل مادانا وفازانتا)

شيترا : آه يا إله الحب ، أيّ لهيبٍ مخيفٍ هذا الذي زمّلتني به! إنني
أحترق وأحرق كلّ شيء . ألمسه .

مادانا : وددت أن أعلم ماذا جرى ليلة أمس ؟

شيترا : لقد اضطجعت فوق فراش من العشب . تتخلّله أفرافٌ من زهر
الربيع ، وأخذت أستعيد كلمات الغزل التي سمعت (أرجون)
يطري بها جمالي ، مشبهاً . وكنت أرتشف الشهد الذي جنبه
نهاراً ، قطرةً فقطرة... أمّا حياتي الماضية فقد أنسيتها مع كل
ماسبقها من وجود . وشعرت وكأنني زهرةٌ لم يبقَ لديها سوى
ساعاتٍ منقضية معدودة ، لتصغي إلى الشقاء العذب الذي تهمس

به الغابة ، ثم تحذر نظرتها من السماء وتغضّ طرفها ، وتطرق برأسها وتفيء الى صمتها وتستسلم ، في زفرة ، الى التراب ، خاتمةً بذلك قصة صغيرة ، للحظة كاملة ، ليس لها ماضٍ ولا مستقبل .

فازانتا : إن حياةً مديدةً ثرةً بالمجد ، يمكن أن تنور ثم تصوح في يوم واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائي تضمنته أغنية صغيرة .
شيترا : وكان نسيم الجنوب يداعبني ويسلس لي النوم ، ومن خميلة ياسمين مزهرة دائية ، كانت تتهاوى قبلات صامتة فوق جسدي ، وشعري وصدري وقدمي . كانت كل زهرة تنتقي عشاً لتموت فيه . وأخلدت إلى الكرى ، وأحسست ، فجأة ، وأنا مستفرقة في سبات عميق بنظرة ماضية ثاقبة ، كأنامل النار الدقيقة ، تلذع جسمي الراقد . ونهضت... فإذا بالناسك يبدو مائلاً أمامي ، وكان القمر ، وهو يجنح الى المغرب ، يسارق النظر من فرجات الأغصان أعجوبة الفن الإلهي : هذا المخلوق الانساني المتهافت . وكان الفضاء عابقاً بالشذا ، وكان صمت الدجى قد استعار صرير الجدادجد صوتاً له ، وكانت ظلال الأشجار ، تنداح ، رهوة ساكنة ، فوق ماء البحيرة . وبدا الناسك ، وعصاه في يده ، فارغ الطول ، ساكن الجنان ، كأنه إحدى شجرات الغابة ، ومثل في وهمي وأنا أفتح جفني ، أنني مت في واقع الحياة ، ثم بعثت في أرض حالمية خيالية . وشعرت بالحياء ينزل حتى قدمي كأنه ثوب منسدل ، وسمعت نداه : إي يا حبيبتي ، يا أحب الناس إلي ، وانتلفت لحظات حياتي الماضية المنسية في كل واحد ، للتجاوب مع ندائه ، وهتفت له خذني ، خذني كلي . وبسطت ذراعي له .

واحتجب القمر خلف الأشجار ، وغلف ستاراً من الظلام كل شيء .
واندمجت الأرض والسماء والمدى والزمن والهناء والحياة
والمنية ، في نشوة عتية . وحين هلت بشائر الفجر ، وهتفت
الطيور أولى تغاريدها ، استيقظت ، وانحنيت ، فوق وجهه ،
وجلست متكئة على ساعدي الأيسر ، وكان مستلقياً غافياً ،
وعلى شفثيه كانت تسمو ابتسامة مبهمّة ، كأنها الهلال في سماء
الفجر ، وكان نور الصباح الوردي يحبو على جبينه النبيل ،
وتنهّدت ثم نهضت . وجمعت الغصون المعرشة المورقة ، لأظله
بها وأدرا عنه أشعة الشمس .

وأجلت طرفي حولي فصافح عيني الربيع القديم نفسه ، وتذكرت
حالي ، من قبل ، وكفزال يفرق من ظله ، أخذت أعدو ثم أعدو
في درب الغاية الممرعة بزهر الشيفالي .
وجلست ، منزوية ، ودفنت وجهي براحتي ، وأردت أن أنشج
وانتحب ، فلم تستهلّ عينايا بأي عبرة .

سادانا : وأأسفاه ، يا ابنة الإنسان الفاني ، لقد استللت لك من القبو
المقدس ، سلافة السماء الشذية ، وأترعت منها كأس ليلة
واحدة من ليالي الأرض وناولتك الكأس لتنهلي منها ومع هذا
فإنني أسمع صرخة اليأس .

شيترا (بمرارة) : ولكن من الذي بلّ صداه منها ؟ إن اكتمال لذة
الحياة النادر ، المتمثل في الوصال الأول للحب ، قد أتيح لي ،
ولكنه انتزع من يدي ، إن الحسن المجلوب ، هذا السربال
الخداع الذي يلفني ، سوف ينزاح عني ، حاملاً ذكرى الوصال
الشهية ، متساقطاً ، كالأفواف المتهاوية من الزهرة المنورة ،
حين تعصف بها الرياح ، وعندئذ تقعد المرأة ، خجلى من عريها

المعدم ، متحبةً ، ليلَ نهار ، يارب الحب إن هذا التصوّر اللعين
الذي جلوته لك يلازميني كأنه الشيطان ، ناهباً مني كلّ متع
الهوى ، كلّ القبل التي يظلماً إليها قلبي .

مسادانا : وأأسفاه ، كيف ضاعت ليلتك الفريدة هذه ، سدى ، إن زورق
الهناء يبدو مقترباً من شاطئك ، بيد أن الأمواج لم تدع له
سبيلاً ، ليرسو عند مرفئك .

شيترا : لقد تطامنت السماء ودنت مني ، الى مدى نسيت فيه ، لحظةً ،
أنها بعيدة عن متناول يدي ولكن... حين أفقت صباحاً ، من
حلمي ، عرفت أن جسمي هو خصمي ، وأضحت مشغلتني
البيغضة : أن أزيّن جسدي كلّ يوم ، لأوافي به حبيبي ، وأرى
إليه يحظى بإعجابه ، ربّاه هلاً استعدت نعمتك .

مسادانا : ولكن ، إن استعدتها ، فكيف تلقين حبيبي ؟ ألا ترين أنها
قسوةٌ بالغةٌ أن أنتزع كأس الهناء من شفثيه ، وهو لم يكد يفرغ
من حسو النحلة الأولى ، ترى بأيّ وجه غضوبٍ ممتعضٍ سوف
يلقاك بعد ذلك ؟

شيترا : لأن يلقاني غضوباً ممتعاً ، خيرٌ عندي من هذه الحال . سوف
أكشف له عن حقيقة نفسي التي هي أنبل من هذا القناع ، فإن
صرفني وازدراني وصدع قلبي فلسوف ألوذ بحزني ، ساكتةً
راضيةً .

هازانتا : أعيري سمعك نصيحتي : حين يهلّ الخريف ، ينعدم موسم
الأزهار ، ويحلّ ، عندئذ مجد الفاكهة ، سيأزف الوقت الذي
تذبل فيه زهرة الجسد المشبعة بالحرارة ، وعندئذ سوف يرضى
(أوجونا) مغتبطاً ، بالحقيقة الأزليّة الناضجة ، الكامنة فيك ،
والآن... هيا ياطفتي ، استأنفي وليمتك المجنونة .

المنظر الرابع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا : إيوي فارسي ، لِمَ تنظر إليّ هكذا ؟
ارجونا : إنني أتأمل ، كيف تفسرين إكليلك . إن الرشاقة والرقّة ، هذين
التوأمين ، يرقصان على أطراف أناملك ، إنني أرمقك وأفكر .

شيترا : في أيّ شيء تفكر يا سيدي ؟
ارجونا : أفكر في أنّك تفسرين أيام غربتي ، بالرقّة نفسها ، برشاقة
اللمسة نفسها ، في إكليل خالد تتوجيني به ، حين نعود الى
البيت .

شيترا : الى البيت ؟ ولكن حبّنا لم يخلق للبيت .

ارجونا : لم يخلق للبيت ؟

شيترا : أجل .

ارجونا : لماذا ؟

شيترا : لا تتحدّث إليّ بهذا أبداً ، انقل الى بيتك القوة والاستقرار ، دع
الزهرة الوحشيّة حيث ولدت ، ذرها تمت نضيرةً في العشيّة ،
بين الأزهار الذابلة والأوراق الجافة ، لاتأخذها الى قصرك ،
لتحبسها في قاعاتك الحجرية ، قاعاتك التي لاتعرف الرأفة
بالأشياء الذاتية المنسيّة .

ارجونا : تُرى ؟ أيكون حبّنا كهذا النمط ؟

شيئاً : أجل إنه لكذلك ، فلم الحسرة عليه ؟ إن ما أعدت لأيام الفراغ .
ينبغي ألا يدوم أكثر مما تدوم . إن الفرحة تنقلب الى ألم .
حين يفلق عليها الباب الذي كان في ميسورها أن تمضي منه .
فأمسك بالفرحة واقتنصها حين تسنح لك ، ولكن... لا تدع بشم
مسائك يطالب لذة صباحك بأكثر مما تستطيع أن تبذل
وتعطي . لقد ولّى النهار ، فضع هذا الأكليل على رأسك ، أشعر
بإعياء يا حبيبي ، فخذني بين ذراعك ودع جدلنا الفارغ يتبدد
في اللقاء العذب من شفاهنا .

ارجونا : صه ، اصفي يا حبيبتي ، إن رنين الأجراس المبتهلة ، يخلص
الى سمعنا من معبد القرية النائية على أجنحة نسيم الماء ، عبر
الأشجار الصامتة .

المنظر الخامس

(فازانتا ، مادانا)

فازانتا : أنا لا أستطيع أن أتابعك يا صاحبي ، فأنا متعب ، إن تأريث النار التي أضرمتها لعمل ناصب شاق ، إنني أهوم من النعاس ، والمروحة تنزلق من يدي ، والرماد البارد يكسو وهج الجمر ، وأستيقظ ، وأحاول بجماع قوتي ، أن أذكي النار الوائية ، ولكن هذه الحال لا يمكن أن تستمر .

مادانا ، أنت طَرف^(١) ملول كطفل ، إنك لاتني تلهو في الأرض والسماء ، وماتعنى ببنائه في تؤدة ومهل ، في أيام ، تقوضه ، غير آسف ، في هنية . غير أن مهمتنا تكاد تشارف الانتهاء . فالأيام المجنحة بالسرور ، سرعان ماترفرف ، ماضية ، والعام الذي شارف ختامه ، ينقضي في هناءة غامرة .

(١) الطرف : المتقلب .

المنظر السادس

(ارجونا ، شيترا)

ارجونا ، وأفتت صباحاً ، فألفت أحلامي قد استصفت جوهره ، ولم يكن بحوزتي سنفط أحفظها فيه ، ولا تاج أرصعه بها ، ولا سلسلة أنوطها بها ، وعلى رغم هذا فإن قلبي يأبى أن أرمي بها بعيداً ، إن ساعدي الأيمن ، ساعد رجل من (كشاتريا) ، ساعدي الذي يحملها في كسل وتراخ ، ليتخلف عن أداء واجبه .

(تدخل شيترا)

شيترا ، فيم تفكر ياسيدي ؟

ارجونا : تفازل خاطري رحلة صيد أقوم بها ، اليوم ، انظري الى المطر كيف يسح غزيراً ، كأنه السيل ، ويجلد جانبا الأكمة ، في ضراوة ، إن الظل الأسود المتطاوّل من السحب يجثم ، بوطأته على الغابة ، والجدول المتدفق كالشباب المغامر يتخطى السدود ، في ضحكة ساخرة ، لقد تعودت أن أذهب وإخوتي الأربعة ، الى غابة (شيتراكا) في الأيام المظيرة ، كهذا اليوم ، لطراد الوحوش ، تلك أيام خلت . . كانت قلوبنا ترقص على هزيم الرعد ، في السحب المتوعدة . وكانت الغابات تتجاوب بصياح الطواويس ، وكان هدير الشلال وهمس المطر يحجبان

عن سمع الظبي النفور ، خفق خطانا القادمة وكانت الفهود تترك
على الأرض الوحلة ، آثار براثنها الواشية بدروب أوجرتها .
وكنا نتبارى في أوبتنا الى البيت ، بخوض السيول المعرّبة ،
في النهر ، سابحين . إنّ هذه الروح القلقة ماتزال كامنة في
نفسي وإنني لاضطرم شوقاً الى الطراد .

شيترا : اعدّ ، أولاً ، خلف طريدتك التي تنشدها ، الآن ، ولكن قل لي
أواثق أنت ، بأن ظبيك الساحر الذي تتقصّاه ، لا بد أن يقنص ؟
لا . ليس الآن... إنّ هذا المخلوق الوحشي ليروغ منك ويسنح
كحلم . في حين يتراءى لك أنه دأن قريب . انظر الى المطر
المجنون كيف يطارد الريح ، ويلاحقها ، مصوباً إليها ألف
سهم ، ومع هذا ، فإنها تأبى الغلبة ، وتهبّ حرّة ؟ كذلك طرادنا
نحن ، يا حبيبي ، إنّك لتلاحق روح الجمال الشرود ، مسدداً
إليه سهامك كلّها ، ومع هذا فإنّ هذا الظبي الساحر ليعدو ويظنّ
دوماً ، حرّاً ، سليماً .

ارجونا : حبيبي ، أليس لديك بيتٌ ، تنتظر فيه قلوبٌ برّةٌ عودتك إليه ؟
بيتٌ ملأته بعنايتك الحلوة رقّةً ولياناً ؟ بيت قد انطفأ نوره ، بعد
أن هجرته لتعوذي بعزلتك هذه ؟

شيترا : فيمَ هذه الأسئلة كلّها ؟ ترى أ تكون ساعات الهناء الغافلة قد
انقضت . ألا تعلم أنني لست سوى تلك التي تراها أمامك ؟ وأرى
أنه ليس خلف ذلك خيال أو صورة . إنّ قطرة الندى المعلقة على
فوف زهرة (الكينسوكا) لاتملك اسماً ولا مصيراً ومن ثمّ فليس
في طوقها أن تجيب عن أيّ سؤال . إنّ تلك التي تحبّها وتكلّف
بها تشابه هذه القطرة من الندى مشابهة تامّة .

ارجونا : أليست لها صلةٌ تشدها الى هذا الكون ؟ أليست ، في الحق ،

سوى ذرة من السماء تهامت على الأرض ، في غفلة من ربّ
عابث؟

شيترا : بلى .

ارجونا : آه ، لهذا فإنه يخيل إليّ دوماً أنني أوشك أن أفقدك . إن قلبي
لم يألف الرضى وفكري لم يجد الطمأنينة والهدوء . ادني مني
أيتها الأبية العصي نوالها ، واستسلمي الى قيود الاسم والبيت
والنسب ، وادعي قلبي يشعر بك كلّك وينعم معك بحبّ قرير
آمن .

شيترا : فيمّ هذه الجهود المبذولة عبثاً ، للإمساك بشيات الغيوم ،
برقص الأمواج ، بأريج الزهور ؟

ارجونا : سيّدتي ، لا تأملي ، بهذه الكلمات الخفيفة الطائفة ، أن تحدي
من غلواء الحي ، امنحيني شيئاً أمسك به ، شيئاً ، يبقى أكثر
من اللذة العابرة ، شيئاً يدوم ولو أتى عبر الألم .

شيترا : يا بطلي ، إن العالم لم يستوف ختامه بعد ، ومع هذا فقد برمت
وتعبت ، إنها لنعمة من السماء ، أفهم معناها ، الآن ، أن تكون
حياة الزهرة قصيرة ، لو كتب لجسدي أن يزوي ويموت ، مع
زهور الربيع الأخير ، لقضي محفوفاً بالاكبار ، غير أن أيتامه
معدودة يا حبيبي ، مع ذلك ، لاتفلته ، استصف منه شاهده كلّه
لئلا يعود إليه قلبك المستجدي ، برغبته المستوفزة ، كما تعود
نحلة ظمأى ، الى أزاهير الصيف الذابلة المطروحة على التراب .

المنظر السابع

(مادانا ، فازانتا ، شيترا)

مادانا ، هذه الليلة هي ليلتك الأخيرة ؟
فازانتا ، غداً سوف تؤوب مفاتن جسدك الى ثروات الربيع المبخترنة التي
لاتنفد ، وإما تحررت أثارة شفتيك من ذكرى قبلات (ارجونا)
فلسوف تبرعم زوجين من أفواف زهرة (الأسوكا) الريا ، وسوف
تبعث نضرة إهابك اللدن الناعم في منات من زهور الياسمين
الفاغمة .

شيترا : إيه أيتها الآلهة لبي هذا الدعاء : دعي جمالي ، الليلة ، يبذل في
ساعاته الأخيرة ، أروع بريقه ، كأنه الألق الأخير من شعلة
محتضرة .

مادانا : لقد استجيب دعاؤك .

المنظر الثامن

(الفلاحون ، ارجونا ، شيترا)

الفلاحون : ثرى من الذي يحمينا الآن ؟
ارجونا : أيّ خطر يتهدّدكم ؟
الفلاحون : إنّ عصابة من اللصوص ، تندفع نحونا من الهضاب الشماليّة ،
منحدرة كالسيل العارم لتخرب قريتنا .
ارجونا : أليس لمملكتكم هذه حاكم ؟
الفلاحون : لقد كانت الأميرة (شيترا) حاكمة مرهوبة من جميع الأشرار ،
ولم نكن نخشى ، حين كانت بين ظهرانينا ، أيّ بأس ، فيما
عدا الموت المعهود .
ارجونا : أأكون حاكمة بلدكم امرأة ؟
الفلاحون : أجل ، امرأة ، لقد كانت لنا أمّاً وأباً .

(ينصرف الفلاحون ، تدخل شيترا)

شيترا : لماذا تجلس منفرداً ؟
ارجونا : إنني أحاول أن أتمثّل أيّ طرازٍ من النساء ، يمكن أن تكون
الأميرة (شيترا) . لقد أنهى إليّ كثيرٌ من الرجال قصصاً جمّة
عنها .
شيترا : آه ، ولكنها ليست رفاةً الحسن ، وليس لها عينان ساحرتان

كعيني ، عينان سوداوان كالمنية . إن في مكنتها أن تصيب أي هدف ، ولكنها لا تستطيع أن تصيب قلب بطلي .

ارجونا : يقال إنها رجل في شجاعتها وامرأة في حنانها .

شيترا : هذه هي ، في الحق ، مصيبتها الكبرى ، حين تكون المرأة امرأة بكيانها كله ، حين ترود حول قلوب الرجال ، بابتساماتها ، بعبراتها ، بعنايتها ، بعطفها الرقيق ، فإنها تكون سعيدة ، فماذا تفيد من العلم والمآثر العظيمة ؟ لو أنك التقيت بشيترا ، مصادفةً ، في درب الغابة ، أمس ، قرب معبد (شيفا) ، لتجاوزتها دون أن تحبوها بنظرة ، ولكن... تراك عفت جمال المرأة ، الى حدّ يحملك على أن تنشد لديها قوة الرجل ؟ لقد أعددت في غارٍ مظلم كالليل فراشنا الذي نأوي إليه ، في الظهيرة ، من أغصانٍ خضِرٍ مخضلةٍ برذاذ الشلال المزيد هناك تسري ، من الطحلب الطري الأخضر الذي يكسو الحجر الأسود النديّ - تسري رطوبةٌ عذبةٌ لتلثم عينيك وتهب لهما النوم .

دعني أقُددك الى هناك .

ارجونا : لا يا حبيبتي ، دعني ذلك الى يومٍ غير هذا .

شيترا : لِمَ غير هذا اليوم ؟

ارجونا : لقد تأذى إليّ أن عصابةً من اللصوص ، تقترب من السهل ، عليّ أن أمضي وأعدّ سلاحِي لأحمي الفلاحين .

شيترا : لا تخشَ بأساً عليهم ، فإن الأميرة (شيترا) قد نصبت ، قبل أن تفرّغ إلى هجرتها ، حراساً أشداء على الحدود كلها .

ارجونا : دعيني أذهب لفترةٍ قصيرةٍ أؤدي فيها شعائِر (كشاتريا) . إن ساعدي العاطل سيضحي إمّا تحلّى بمجدٍ جديدٍ خيرٍ وسادر لرأسك .

شيترا : وإذا أبيت عليك المضي وتشبعت بك بين ذراعي ، فهل تفلت
من ضمّتي قسراً ، وتدعني ؟! اذهب اذن ، ولكن . . اعلم أنّ
غصن العريشة ، لاسبيل الى التثامه ، بعد أن ينقصف .
إذا كان ظمأك قد ارتوى فامض ، وإلا يكن فاذا كر أنّ ربة اللذة
متقلبة ، لانتظر أي رجل . إبق لحظة ياسيدي ، قل لي أي أفكار
قلقة تضنيك ؟ من يشغل ذهنك ؟ تراها (شيترا) ؟

ارجونا : أجل ، إنها (شيترا) إنني أتساءل ، أي نذر غريب قد حملها
على الهجرة ، ترى أي رغبة يمكن أن تصبو إليها ؟
شيترا : أي رغبة ؟ ؟ ولكن أي شيء ظفرت به هذه المخلوقة التعسة ؛
إنّ خصالها الحقيقية هي جدران سجن يحبس قلبها ، قلب
امراة ، في زنزانه خاوية . إنها غامضة ، إنها غير كاملة ،
ومادامت عاطلة عن الجمال ، فإن حبها الأنثوي ليقع بالتسّر
خلف ثياب خلقه . إنّ الجمال ليتنكر لها ، إنها أشبه بصباح
جهنم ، يتكى على قنة جبل صخري ، قد محت السحب الداكنة
كل ضيائه ، لاتسلني عن حياتها ، فحديث حياتها لا يحلو في
سمع الرجل .

ارجونا : أنا تواق الى سماع كل شيء عنها ، إنني كراند قادم في موهن
من الليل ، إلى مدينة غريبة ، فالقباب والأبراج ، والحدائق
الغلب ، تتراى له ، غائمة ظليلة ، وتتردد زفرة البحر ، كثيئة ،
بين الفينة والفينة ، عبر صمت الكرى ، وإنه لينتظر ، بصبر
نافذ ، منبج الفجر ، لينفض له الروائع العجيبة كلّها ، إيوهلاً
سردت لي قصة (شيترا) .

شيترا : ليس ثمة شيء أقصه عنها .

ارجونا : يخيل إلي أنني أراها بعين فكري ، ممتطية سهوة جواد أبيض ،

يدُها اليسرى تمسك ، تياهةً ، بعنانه ، ويدها اليمنى تجذب قوساً ، إنها تريق الأمل الرغيد حولها ، كربةً من ربات النصر ، وتحمي بشغفٍ مفترسٍ كلبوةً يقظى أشبالها الراضعة من ضروعها . إن ذراعي المرأة جميلتان ، إن ازدانتا بالقوة الظافرة . إن قلبي ليهتز ويجب ، كشعبانٍ يستيقظ من غفوته الشتوية ، تعالي ولنمتطِ جوادين سريعين ، يخبان بنا ، جنباً الى جنب ، كنجمين وضيئين يشقان الفضاء ، لنهجر هذا لسجن الهاجع من الكابة الخضراء ، لنحسر هذا الستار الرطب الصفيق من التسمم العابق الضاغط على الأنفاس .

شيترا : أرجونا ، قل لي الحقيقة ، لو قُدر لي ، الآن ، بأعجوبةٍ ما ، بأن أتحرّر من هذه الرقة المثيرة ، من هذه الوسامة الخجلى التي تفرّج من لمسة الكون المترعة قوةً وعافيةً ، ثم انزعها من جسدي كما أنزع ثياباً معارة ، ثراكَ تحتمل ذلك ؟ لو قُدر لي أن أنتصب مشيقةً ، مدلّةً بقلبيّ جصور ، مستهينةً بحيل الضعف الساحر وفنونه ، وأن أرفع رأسي شامخاً كشجرة التنوب السحوق الفتية الجبلية ، غير زاحفة على التراب كالعريشة تُراني اجتذب نظرات الرجال ؟ لا ، لا ، يا (أرجونا) لن تستطيع احتمال ذلك إنني أوثر أن أدع كلّ الدمى الحلوة ، دمي الشباب الهيمان ، منثورةً حولي ، وأن أنتظرك صابرةً... وحين يروق لك أن تؤوب ، فلسوف أهرق لك ، وأنا أبتسم ، خمر اللذة في كأس هذا الجسد البديع وحين تروى من هذه الخمر وتملأها ، فلسوف تستطيع العودة إلى عملك أو إلى لهوك ، وحين أضحي عجوزاً ، فلسوف أنتبذ ، شاكراً ، راضيةً ، أي ركنٍ باقر لي ، أفلا يحلو لروحك الباسلة ، أن تتشوف خدينة ليلك أن تصبح

رفيقة نهارك ؟ وأن تتمنى الذراع اليسرى مشاركة الذراع اليمنى
القوية بحمل عبئها ؟

ارجونا ، أحسب أنه لن تشق لي معرفتك أبداً ، تتراءين ، ربة خبيثة في
تمثال ذهبي ، لأجرؤ على لمسك ، لا أقدر على أن أفي بما
يجب عليّ نحو لقاء هباتك الشمينة ، لهذا فإنّ حبي يظلّ
دوماً ، ناقصاً ، وألمح أحياناً في الأغوار الدفينة من نظرتك
الحزينة ، وفي كلماتك اللعوب الساخرة من معانيها نفسها ،
ألمح مخلوقة جديدة تحاول أن تدمر رقة جسدها المضنية ، ثمّ
تشرئب ، مغلفة بالبسمات الطلية ، وتطفو في نار الألم النقية .
إنّ الوهم هو أول مظاهر الحقيقة ، فإنها تدنو متكررة من
الحبيب ، ولكن... يقبل يوم تجفو فيه زينتها وقناعها ،
وتنتصب ، واقفة ، متلفعة بأنفتها الكشيفة ، إنني استقرئ
الحقيقة العارية ، استقرئ... بساطتها العارية ، استقرئ كمالها
النهائي فيك أنت ، (شيترا) ، فيمّ تنهمر هذه الدموع ؟ لماذا
توارين وجهك براحتيك ؟ تُراني أملك أيتها العزيزة ؟ إنسي
ماقلت لك ، سأرضى بما لديّ ، دعي كلّ لحظة من لحظات
الجمال تقبل نحوي . كمصفور مبهم يهفو من عشه الخفي ،
حاملاً رسالته المجنحة بالنغم ، دعيني استمسك بأمنيّتي دوماً ،
فلعلّها أن تتحقّق يوماً وأنهى بها أيتامي .

المنظر التاسع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا (مرتدية معطفاً) : إيه يا رب ، أتكون الكأس قد فرغت ، حتى آخر قطرة من ثمالتها ؟ أهذه هي النهاية حقاً ؟ لا ، حين يولي كل شيء ، فإن بعضاً منه يبقى ، إنه آخر تضحية أزجيتها الى قدميك . لقد قطفت من حديقة السماء زهوراً لا مثيل لروائها ، لأرفعها إليك يا مليك قلبي ، فإن انتهت العبادة .

(تنضو شيترا معطفها وتبدو في دثار رجل)

انظر ، الآن ، بعين الرفق الى معبودتك ، لست أملك الجمال الكامل الذي ترتع به الزهور المقدمة الى العبادة . إن في بُردِي عيوباً وتقائص ، إنني كراندريهيم في طريق الكون المنفسحة الكبرى . ثيابي ملوثة وقدماي داميتان بالأشواك . تُرى أين أظفر بزهرة الجمال ؟ بالألقة الصافية ، ألقة لحظة الحياة ؟ إن الهدية التي أقدمها إليك ، في خيلاء ، هي قلب امرأة ، قد انتلفت فيه الآلام والهناات ، والتقي في حناياه خفر فتاة الأرض وتعلاتها ومخاوفها . وانبجس منه الحب الذي يتوق الى الحياة الخالدة ، وانساب فيه النقص ، ولكنه النقص النبيل السامي . سيدي ، إن انتهت صلاة الزهر ، فأقبل هذه الزهرة ، كخادم

للأيام المقبلة . أنا (شيترا) ، ابنة الملك... لعلك أن تتذكر تلك المرأة التي قدمت إليك في معبد (شيفا) وكانت رافلةً بحليها وزينتها . لقد سمعتُ إليك هذه المرأة الجريئة ، تطارحك الحب كما لو كانت رجلاً فصددتها . وحسناً فعلتُ . إيه ياسيدي ، إنني تلك المرأة ، لقد كانت لي قناعاً ، ولقد تمتعت بفضل الآلهة ، في مدى عام واحد ، بأروع جمال حظي به أي إنسانٍ فإن . بيد أن قلب بطلي قد ناء بعبء هذه الخدعة . وفي الحقيقة ، لستُ تلك المرأة . أنا (شيترا)...

لستُ ربةً تُعبد ، ولا شيئاً جديراً بالرافة ، يطرح دون اكتراث كأنه فراشة . فإن شئت أن تقبلني إلى جانبك في درب الخطر والإقدام ، وسمحت لي بأن أشاركك في واجبات حياتك الجسماء فلسوف تدرك أنذاك حقيقة ذاتي ، وإن جنينك الذي أحمله وأغذوه في رحمي صبيّاً ، سوف أعلمه أن يصبح (أرجونا) الثاني... وسوف تتمُّ لك حينذاك معرفة نفسي . ليس لديّ ، اليوم ، ما أقدمه إليك سوى (شيترا) ، (شيترا) ابنة ملك...

أرجونا : إيه يا حبيبتي لقد أترعتِ كأسَ حياتي .

البراعان

خواطرُ شعرية

في رحلة الشاعر الهندي العظيم (رابندرانات طاغور) إلى الصين واليابان ، كان يطلب إليه بعض المعجبين ، أبياتاً من الشعر ، لتطرّز على مناديلَ حريريةٍ أو تنقش على مراوح اليد .

وكذلك ولدت هذه الأبيات الشعرية الرقيقة ، التي ضمّنها ديوانه (اليراعات) وهي فراشات تضيء ليلاً (ويسمّيها العرب أيضاً ، الحُباحِب) وتأتلف هذه الأبيات في صورٍ رائحة ، وحكمٍ وخواطر ، تتلامح ومضاتها خاطفةً ، كأنها شرارات اليراعة المضيئة في الليل ، وتجلو كلماتها الموجزة ، ومعانيها العميقة ، فلسفة الشاعر الإنسانية ، وخياله المبدع .

المعرب

د. بديع حقي

أيتها اليراعات ، يا بدوات فكري
أيتها الشرارات الحية ،
المتواضعة في حَلْكِ الليل .

* * *

إن ركّز الأزهار الزائلة ،
التي تنوّر على عِذار الطريق ،
والتي تقتحمها الأنظار ، دون مبالاة ،
يهمس ، خلال هذه السطور المترادفة ، بلا رابط .

* * *

في الكهوف المظلمة من الفكر الغافي ،
يبني طائر الحلم عشّه ،

على حطام قافلة النهار .

* * *

إن الفرحة المتحرّرة من عرى الأرض الهاجعة ،
تنطلق ، عبر مدى الأوراق الرحب ،
وترقص في الفضاء ، سحابة نهارٍ بأكمله .

* * *

ينثر الربيعُ أفوافَ أزهاره ، خليّ البال ، غير مبالٍ بشمار المستقبل ،
متتبّعاً نزوته ، في الحاضر .

* * *

حين تغرق مؤلفاتي المثقلة بالمغاني ،
فلعل كلماتي الخفيفة ،
تظل متراقصةً ، طافيةً فوق موجات الزمن .

* * *

تبسط فراشاتُ الفكر الخبيثةُ ،
أجنحتها الضبابيةُ ،
وتهنو برفرفةٍ مودّعةٍ نحو سماء الغروب .

* * *

تحصي الفراشات ، باللحظات لا بالأشهر ،
وهذا يكفيها .

تكشف الشرارة في انطلاقتها ،
إيقاعاً زائلاً ،
تلك هي فرحتها .

ترامق الشجرة ، بشغفر ،
ظّلها الرائع الذي تسفحه
ولكنها لا تستطيع البتة ، أن تضمّه .

الأيام هي فقاعات ذات شياتٍ قزحية ،
تتطاير على سطح الليل الذي لا يمكن أن يسبر غوره .

ألا فليؤت حبي القدرة على أن يسربك ، كالشمس ، بالنور ،
وأن يترك لك ، مع ذلك ، حريةً متلألئة .

ان قرابيني هي جدٌ ضعيلة ؛
بحيث لا تملك الزعم بأنك ستذكرها ،
فلعلها أن تمرَّ ببالك .

* * *

إذا كان اسمي ، ينهض عبثاً عليك ،
فامحُ من قرباني ،
ولا تحتفظ لديك إلا بأغيتي .

* * *

يخطُ نيسان ، كأنه طفل غرير ،
يخطُ بالأزهار ، نقوشاً هيروغليفيةً ، فوق التراب ،
ثم يمحوها وينساها .

* * *

الذاكرةُ ، هي الراهبة التي تقتل الحاضر ،
وتقدّم قلبها قرباناً على مذبح الماضي الميت .

* * *

يلعب الأطفال في فناء المعبد ،
وينسى الربُّ الكاهنَ ،

فيما هو يرامقهم يلعبون .

ما يكاد يتلامحُ برقٌ على موجة فكري ،
حتى يرتعش ، كما يرتعش جدولٌ على نغمٍ مفاجئٍ و طلي ،
لم يتردد قط ، من قبل .

تنتصب السكينة ، على الجبل ،
ليتسنى لها أن تتقرّى ، مدى ارتفاعها نفسه ،
تتوقف الحركة ، فوق البحيرة ،
ليتسنى لها ، أن تتملّى مدى عمقها نفسه .

إن وميض نجمة الصبح ،
هو القبلّة التي يطبعها الليلُ الهاربُ ،
على عيون الفجر المقتمضة .

إيه أيتها الفتاة ،
إن جمالك هو كالعمرة التي ينبغي لها أن تنتظرَ أوانَ نضجها ،

مفعمةً بسرٍ ، ما يزال متوارياً .

* * *

الألم ، بلا ذاكرة ،
هو كتلك الأويقات القاتمة المضمنة ،
التي حرمت تغريد الطير ،
ولم يبقَ لديها سوى صرير الجداجد .

* * *

إن التعصبَ ، في حفاظه على الحقيقة ،
يهتصرها ، بقوةٍ ، على نحوٍ يفضي بها الى الموت .

* * *

حتى يتأتى لليل الرّحب ، أن يشجع سراجاً خجولاً ،
فإنه يشعل نجومه كلّها .

* * *

يفضل الفضاء ، رغم احتضانه لزوجته الأرض ،
يظل دوماً ، بعيداً عنها بعداً لا نهاية له .

* * *

يبحث الرب عن مرافقين ، ويطالبهم بالمحبة ،
أما الشيطان الذي يبحث عن أرقاء ، فإنه يتطلب منهم الطاعة .

* * *

تتمسك الأرض ، بالشجرة المنتصبه فوقها ،
لما تزجيه إليها من خدمات ،
أما السماء فتدع الشجرة حرّة ، ولا تطلب إليها أي شيء .

* * *

إن الخلود ، هذه الجوهرة
التي تُزهى لا بأعوامها المديدة ،
بل بالقة لحظة واحدة خاطفة .

* * *

يظل الطفل قابلاً ، دوماً ،
ضمن لغز الأزمنة التي لا عمر لها ،
والتي لا يجعلها غبار التاريخ قاتمة .

* * *

إن ضحكة رقيقة ،
تنسرب في إثر خطأ الإبداع .

لا تلبث أن تتجاوزه ، سريعاً ، على مدى الزمن .

* * *

حين يعتزم السلام ،

أن يكنس أدراثة ،

تهبُّ العاصفة .

* * *

تنكفي ، الغائبة ، عند منبلج الفجر ،

إلى جواري ،

ويجعلها الليل ، إذ يحملها إليّ ، أكثرَ قريباً .

* * *

في حديقتك ، تُزهرُ شجرات غارٍ أبيض ،

في حديقتي ، تُزهر شجرات غارٍ قرمزية ،

وفي صمتٍ ، تتبادل التحايا ،

حين يضع نيسان خاتمةً لرقادهما .

* * *

على سفح الجبل ، تمتد البحيرةُ

كأنها التماسٌ مضمّن ، يبسطه الحب ،

أمام أقدام المتعنت ،
الذي لا يمكن أن يلين .

يبتسم الطفل الرباني ، بين دُماه ،
التي هي أنوارٌ زائلةٌ وظلالٌ عابرةٌ ،
وقواربٌ من غيومٍ تنطلق ، نحو السماء .

همس النسيم لزهرة اللوتس :
- تُرى ما هو سرُّك ؟
وأجابت زهرة اللوتس :
- إنه نفسي ذاتها ،
خبّي : هذا السرُّ ، أغيبُ أنا .

إن حرية العاصفة ،
وعبودية ساق الشجرة ،
يتدانيان في رقصة الأغصان المتحركة .

يبث الياسمين ، بزهراته ،
حبّه للشمس .

* * *

يريد الطاغية ، أن يكون حراً ،
في وأده للحرية ،
محافظاً بها لنفسه ، في الوقت ذاته .

* * *

تغبط الآلهة الناس ،
إمّا برمت وضافت بفردوسها .

* * *

الغيوم هي هضابٌ من بخار ،
والهضاب هي غيومٌ من حجر ،
هي توقُّ إلى عناقٍ ،
لا يني ينساب في حلم الزمن .

* * *

يأمل الله أن يبني له الحبُّ ، معبدّه

وألا يجلب له الإنسان سوى الحجارة .

* * *

إنني أصل إلى الله بغنائي ،
كما يصل الجبل إلى الأوقيانوس القصي ،
بشلالاته .

* * *

يعثر النور على كنز ألوانه
عبر معارضة السحب ، لبعضها بعضاً .

* * *

في هذا الصباح ، يتسم قلبي لليلتي المخضلة بالدمع .
كالشجرة الرطبة الرئياً ، التي تتوأمض للشمس ،
غيباً المطر .

* * *

إن زلات حياتي ، تتوسل ، ضارعةً إلى الجمالِ الرؤوف ،
الذي يستطيع ، وحده ، أن يذيب عزلتها .
في مؤالفةٍ متناغمةٍ مع الكل .

* * *

إنني أسدّد ، بالحب ، الدينَ غير المحدود ،
الذي ينبغي لي أن أفيه لك ، مقابل أن تطلّ أنت نفسك

إن الأشجار التي جعلت حياتي غنيّة بالثمار ،
قد أزجيت إليها شكري ،
أما العشب الذي حفظت لحياتي ندواتها المخضوضرة ،
فلم أتذكر قط ، ما أسداه إليّ .

إن المنفرد المنعزل ، ليس سوى العدم ،
والغير هو الذي يجعله موجوداً حقاً .

إنه ليطلب الى الطير المنفيّة المهجّرة من الأعشاش ؛
أن تؤدّي عرفائها ،
لأنها تجد ملاذّها ، في قفص جميل .

يا زهورَ النيلوفر ،
أيتها القصائد التي تفجّرُها بركة الماء من أعماقها القاتمة ،

وتتطلع إليها الشمس ، معجبة .

* * *

إنه لوجود أن يبسط المرء لسانه في النيل من عظام الناس ،
لأن في ذلك إساءة إلى نفسه ،
وإنها لدناءة أن يبسط لسانه في النيل من صغارهم ،
لأن في ذلك إساءة إلى الآخرين .

* * *

الأشجار هي الجهود الأزلية ،
التي تبذلها الأرض ،
لتتاجي السماء المصغية إليها .

* * *

إنني أضحك من نفسي ،
فأتخفف من عبء ذاتي .

* * *

يمكن أن يضحى الضعيف رهيباً
لأنه يجهد ، بضراوة ، ليتراءى قوياً .

* * *

لعبة الحياة سريعة ،

أما دُمى الحياة ،

فإنها تتهاوى ، خلفها منسيّة ،

دميةٌ في إثر دميةٍ .

* * *

إيه أيتها الزهرة لا تبحي عن فردوسك ،

فوق عروة سترة أحرق .

* * *

إيه يا هلالي لقد أطللت ، متأخراً

ولكن طائر ليلي ما يزال ساهراً ، ليلقي إليك بتحيته .

* * *

الليل ، هذه الزوجة المحجّبة ،

التي تنتظر ، بصمتٍ ، أن يؤوب النهار الشارد ،

ويفيء إليها ، جاثياً ، في كنف قلبها .

* * *

إن الزهرة الأولى المتفتّحة ، على هذه الأرض ،

قد دعت الأغنية ، لتهلّ وتولد .

* * *

حين يشحب الفجر ، هذه الزهرة المتألّفة الألوان ،
تتراءى ، كما لو أنها ثمرة النور الدانية البسيطة .

* * *

إن العضل الذي يرتاب في حكمة نفسه ،
يخنق الصوت الذي يودّ أن يجأّر ، صارخاً .

* * *

تتوق الريح إلى الشعلة ،
بيد أنها تطفئها إمّا أمسكت بها .

* * *

تزار ريح السماء ،
وتتشبّث المرساة يانسة ، بذراعها ،
غير أن قاربي الذي نفذ صبره ،
يبغي أن يحلّ سلسلته ويطلقها .

* * *

تَتَقَدُّ زُرْقَةُ السَّمَاءِ رَغْبَةً فِي خَضْرَاءِ الْأَرْضِ ،
وَتَتَنَهَّدُ الرِّيحُ ، فِيمَا بَيْنَهُمَا ، مُرَدَّدَةً : وَأَسْفَاهُ .

* * *

إِنَّ الْأَلَمَ الْمَسْرُوبَ بِأَلْقَى النَّهَارِ ،
يَتَضَوَّعُ ، فَاعْغَمًا ، فِي اللَّيْلِ ، بَيْنَ النُّجُومِ .

* * *

يُبْذَلُ السَّحَابُ ، ذَهَبُهُ كُلُّهُ ، لِلشَّمْسِ الْغَارِيَةِ ،
وَلَا يَسْتَقْبِلُ الْقَمَرَ إِلَّا بِابْتِسَامَةٍ شَاحِبَةٍ .

* * *

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ ، يَصِلُ إِلَى بَابِ الْمَعْبَدِ ،
أَمَّا مَنْ يَحِبُّ فَإِنَّهُ يَفْضِي إِلَى الْمَحْرَابِ .

* * *

أَيْتَهَا الزَّهْرَةُ ، هَلَاءُ أَشْفَقْتَ عَلَى الدُّودَةِ ،
إِنَّهَا غَيْرُ النَّحْلَةِ ،
لَأَنْ شَفَفَهَا بِكَ هُوَ زَلَّةٌ وَخَطَأٌ .

* * *

من أنقاض الطفيان المنتصر ،

يبني الأطفال بيتَ دميّتهم .

* * *

ينتظر السراجُ المهملُ ، طوالَ النهار ،

قبلةَ الشعلةِ التي تسوقُ إليه الليل .

* * *

إن الريشات المطروحةَ على التراب ، متعطلةٌ ، قانعةٌ ،

قد أنسيّتْ كيف تطير ، في السماء .

* * *

ليس للزهرة المنزوية ،

أن تغبِطَ الأشواكَ الجمّةَ .

* * *

يتألم الناس ، بصورة خاصة ، من الطفيان اللامبالي ،

الذي يبيده من يريد لهم الخير .

* * *

إننا لا نظفر بالحرية ،

إلا بعد أن نسدّد تماماً ، حقناً بالحياة .

* * *

إن هباتك الشاردة ، والساهمة ،
المماثلة للشهب في ليلة خريفية ،
تتصرّم ، متّقدة ، في أغوار كياني .

* * *

إن الإيمان الذي يكمن ، منتظراً ، في لباب بذرة ما ،
يعدّ بمعجزة حياة ،
لا يتأتّى له أن يثبتها ، إلا فيما بعد .

* * *

يتردّد الربيع ، أمام باب الشتاء ،
بيد أن زهرة العنباء (المانغا) تهفو إليه ،
وتعثر ، قبل الأوان ، على قدرها .

* * *

أيها الكون ، أيها الزبد المتغيّر ،
الذي يطفو على سطح بحر الصمت .

* * *

يمزج الشاطئان المنفصلان أصواتهما ،
في نغم حزين لا يمكن أن يُسَبَّر غوره .

* * *

إن العمل ، كالنهر المفضي الى البحر ،
يحقق إنجازَه ،
في طيَّات الفراغ .

* * *

لقد تأخرتُ فيما كنت أضرب في الدرب ،
حتى تفقد شجرتك ، شجرة الكرز ، زهراتها ،
بيد أن زهرة (الصحراوية) ، يا حبيبي ،
تنقل إليّ ، صفحك عني .

* * *

إيه يا برعم الرمانة الغض الخجول ،
المتضرِّج ، اليوم ، حمرةً ، خلف قناعك ،
سوف تنوِّر ، في زهرة جُلنار ، مشبوبة العاطفة ،
حين أغيب ، غداً ، عن الوجود .

* * *

الولادة ، هي ممرٌ من لغز الليل ،

إلى لغزٍ مبهمٍ ، من النهار ، أكثر عمقاً .

* * *

إن القوةَ الرعناءَ تزَيِّفُ المفتاحَ ،
وتفزعُ إلى معولِ الهدمِ .

* * *

قد صنعتُ قواربي الورقيةَ ،
لتراقصَ فوق موجاتِ ساعاتِ الزمنِ ،
لا لتشارفَ هدفًا ما .

* * *

تطير من كياني أغنياتُ مهاجرةٌ ،
ساعيةٌ ، لتبني عشَّها على صوتك العاشقِ .

* * *

إن بحرَ الخطرِ والريبةِ والجحودِ ،
الذي يغمر جزيرةَ اليقينِ ،
يدعو الإنسانَ إلى ارتيادِ المجهولِ .

* * *

يعاقب الحب المهان بصفحه ،
ويعاقب الجمال المهان بصمته النبيل .

إنك تعيش ، منفرداً ، وحيداً ، دون أجرٍ أو تجزية ،
لأنهم يخشون قيمتك المرموقة العالية .

إن الشمس نفسها ، لا تألو تلد فوق أراضٍ جديدة ،
في دورة من الأصباح متصلة ، دون انقطاع .

إن عالم الله ، لا يني يتجدد بالموت ،
أما عالم الطاغية فإنه مسحوقٌ بوجوده نفسه .

إن دودة القطرب^(١) المضيئة التي تتقرى التراب ،
تجهل أن في السماء نجومًا .

الشجرة هي بنت اليوم ،

(١) دوية نقي. ليلاً .

أما الزهرة فقديمة ،
إنها تحمل رسالة البذرة ،
التي لا تعيها الذاكرة .

تحمل إليّ ، كلُّ وردةٍ جديدةٍ ،
تحيةً وردة الربيع الأزلي الخالد .

يشرفني الله ، حين أعمل ،
ويحبني حين أغني .

إن الحب الجديد ، لا يجد البتة ، ملجأً له ،
في العش الذي هجره الحب السابق ، من قبل .

تشقُّ نارُ العذاب ، من أجل روحي ،
درباً مضيئاً ، عبر وجعها .

يبقى العشب ويعيش ، أكثر مما تعيش الربوة ،

عبر مياتٍ لا عدادَ لها .

لقد تواريت ، وأضحيتِ بمنأى عني ،
دون أن تخلفي شيئاً ، سوى لمسةٍ رقيقةٍ في زرقة السماء ،
وصورةٍ خفيةٍ ، في الريح التي تلعب ، بين الظلال .

إن الريح ، في رافته بالغصن المقفر المهجور ،
يدع له قبلةً ،
ترتعش فوق ورقته المنعزلة ، المنزوية .

في الحديقة ، يشغف الظلُّ الخجولُ بالنور ، في صمت .
وتحسر الأوراقُ عن السر ،
وتبتسم الأزهار .

لا أخلفُ أيَّ أثارةٍ من الجناح ، في الفضاء ،
ولكنني سعيدٌ ، لأنني قد انطلقت طائراً .

البراعات التي تتوامضُ ، في ثنايا الأوراق ،
تجهر النجوم ، دهشةً .

* * *

الانتصار الظاهر للضباب ،
يدع الجبلَ ، غير آبهٍ ، مكتث .

* * *

بيننا تردد الوردة للشمس :
- لن أنساك أبداً .
تتهاوى أقوافها ، على التراب .

* * *

الجبالُ هي الحركاتُ اليائسةُ التي تقوم بها الأرض ،
أمام ما لا يمكن التفوذُ إلى كنهه .

* * *

إيه أيها الجمال ،
على الرغم من أن شوك زهرتك قد جرحني ،
فإنني معترفٌ ، مقررٌ بفضلك .

* * *

يعرف الناس جميعاً ، أن العدد اليسير ،

أكثر اعتباراً من الحشد الكبير .

* * *

يا صديقي ، لا يكن حبي لك عبئاً عليك ،
واعلم أنه يجزي نفسه بنفسه .

* * *

يضرب الفجر ، على مزهره أمام أبواب الليل ،
ويرضى بأن يتوارى ، حين تبرز الشمس .

* * *

يتراءى الجمال ابتسامة للحقيقة ،
حين تلمع الحقيقة محياتها ،
في صقال مرآة كاملة .

* * *

إن قطرة الندى ، لا تعرف الشمس ،
إلا ضمن فلكها الدقيق الصغير .

* * *

إن سرباً من الخواطر اليتيمة ،
هارباً ، منطلقاً ، من خلايا الأعمار ،

يدندن ، هازجاً حول قلبي ،
فيما هو يبحث عن صوتي .

الصحراء هي حبيسة ،
ضمن سور من جذبها الذي لا حدَّ له .

في ثنايا رعدة الأوراق الفضة ،
ألمح رقصة الهواء المتوارية ،
وفي وميضها ،
أستجلي نبضات السماء الخفية .

كشجرة منورة مزهرة ،
تدهشين ، حين أطري عطايالك .

إن النار المقدسة ، نارَ الأرض ، تشتعل بين الأشجار ،
مذرذرة شراراتها ، خلال الأزهار .

إن الغابات ، هذه الغيوم الأرضية ،

تبسط للسماء صمتها ، وتتطامن ، من عل ،
وتهمي وتصوب ، في ديم مرئاة .

* * *

يخاطبني الكون بالصور ،
وتجيب روعي بالأغاني .

النجوم الجمّة ، هي لآلىء المسبحة ،
التي تسلسل السماء حباتها ، طوال الليل ،
إحياءً لذكرى الشمس .

* * *

ظلمة الليل الداجية ، خرساء كالآلم ،
أما سدقة الفجر فصامتة كالسلام .

* * *

ينقش الغرور تهديده ووعيده ، على الحجر ،
ويبسط الحب استسلامه ، في الأزهار .

* * *

إن ريشة التصوير الذليلة ، تشوّه الحقيقة ،

في تكثفها ومراعاتها للوحة الضيقة .

* * *

حتى يسوَّغوا تبديدهم للمداد ،
فإنهم يسجلون الليلَ نهراً .

* * *

إن الجبل ، في حنينه إلى السماء القصية ،
ينفس على السحاب انطلاقاته العاجلة في بحثه الخالد .

* * *

تبسمُ المصلحة للطيبة ،
حين تلفي لديها ريحها .

* * *

إن الفقاعة ، المنفوخة صلفاً ،
تشكُّ في وجود البحر ، مستضحكة ، ثم تنفجر في العدم .

* * *

أيها الحب ، أيها اللغز الخالد ،
الذي لا يتأتَّى لغيرك أن يجلوه ويفسره .

* * *

إن غيومى التي تضيئها الظلمات .
تنسى أنها هي نفسها التي حجبت الشمس .

* * *

يكشف الإنسانُ غناه ذاته ،
حين يطلب الله إليه قرباناً .

* * *

إنك تخلف ذكراك ، كشمعة ،
تتألف في سراج فراقنا .

* * *

لقد قدمت إليك ، منذ أمد قريب ، زهرةً ،
ولكن ، خذْ حديقتي كلها ،
فإنها لك .

* * *

التصوير هو ذكرى النور ،
التي اكتنزها الظل .

* * *

إنه لمن السهل على المرء أن يعايب الشمس ، بمحياه المكشّر ،
فإن نورها نفسه ، يكشفه ويعرضه من جميع جوانبه .

* * *

يظلّ الحب سرّاً مستغلقاً ، حتى بعد البوح به ،
لأن العاشق ، وحده ، يعرف أنه محبوبٌ حقاً .

* * *

يخلق التاريخُ ، ببطءٍ ، حقيقته تفسّها ،
بيد أنه يجهد أن يبعثها ، سريعاً ، حيةً ،
ضمن توبة الألم الرهيبة .

* * *

يستوفي كدحي أجره ، بضماناتٍ يوميةٍ ،
وانتظر من الحب ، تقديره النهائي لهذا الأجر .

* * *

يطيب للرب أن يجد بشخصي ، لا خادمه ،
بل ذاته نفسها ، هو المولى الكلي الشامل .

* * *

تأتلف ظلمة الليل ، مع النهار ،
أما الفجر الغائم بالضباب فهو نشأ وتنافر .

* * *

الحب هو الخمر ، في زمن الورود الكريم ،
هو القوت في زمن المجاعة ،
حين تنتثر أفواف الورد ، مبددة .

* * *

على أرض مجهولة غريبة ،
تفسي زهرة مجهولة للشاعر قائلة :
- إيه يا حبيبي ، ألسنا نحن من بلد واحد ؟

* * *

ان معزفي غير المضبوط (المدوزن) يلحف في طلب الموسيقى ،
بنداءات من الخزي ، جزعة ، مرتاعة .

* * *

تجد الأرضة ، أنه من المستغرب المنافي للمعقول ،
ألا يقرض الإنسان كتبه ويأكلها .

* * *

تترأى ، اليوم ، السماء الغائمة ،
كأنها ظلُّ الحزن الرباني ،
المتفرق على جبهة الخلود الحالم .

* * *

ظل أشجاري ممدود ، مبذول لمن يمرون ،
أما ثمارها فمبذولةٌ لتلك التي أنتظرها .

* * *

إن الأرضَ المتضرّجة حمرةً ، في بريق الشمس الغاربة ،
تترأى ثمرةً ناضجةً ،
مهيأةً ، معدّةً ، لأن يقطفها الليل .

* * *

يرضى النهار بالظل زوجةً له ،
لمصلحة الإبداع والخلق .

* * *

تنتظر شبّابة الراعي لهاته لينسمَ فيها ،
فيما ينتظر صاحبها ، بحثاً عنها .

* * *

يخيل إلى القلم الأعمى ، أن التي تكتب به ،
هي وهمٌ لا حقيقة له ،
وأن الكتابة خاويةٌ من أي معنى .

* * *

يضرب البحرُ نهده العقيم ،
لأنه لا يملك أزهاراً يزجها إلى القمر .

* * *

يزدري الجشعُ الزهرة ،
إيثاراً منه للثمرة .

* * *

ينتظر الربُّ ، في معبده الزاخر بالنجوم ،
أن يجلب له الإنسانُ سراجَه .

* * *

تصوغ النارُ ، الحبيسةً في الشجرة ، الزهرة ،
فإذا ما انعمت وأضحت حرةً ، تحركت شعلتها الوقاحُ ،
وانتفضت رماداً عقيماً .

* * *

تنصب السماء فحاً لتأسر القمر ،
إن حرقتها نفسها هي التي تستدرجه وتشده إليها .

إن النور الذي يملأ السماء ،
يبحث عن حدوده في قطرة الندى .

إن الألقّة القاسية المتواضعة من النصل الفولاذي ،
تستهزئ بالشمس .

تتمتع الفراشة بأويقاق الفراغ ،
لتصبو فيها إلى زهرة اللوتس ،
ولا يتاح ذلك للنحلة المشغولة باختزان شهدها .

أيها الطفل ، إنك تنقل إلى قلبي ،
لغو الريح والماء ،
وأحلام السحاب ، وأسرار الأزهار الخبيثة بلا كلمات ،
ونظرة السماء الصاحبة ، الخرساء من عجبٍ ودهشة .

يمكن أن يضحي قوس قزح كبيراً بين رُكام الفيوم ،
بيد أن الفراشة تظل أكبر منه ، بين الأدغال .

ينسج الضبابُ شبكته حول الصباح ،
ثم يحبسه ، ويحميه .

همست نجمة الصبح للفجر :
هلاً قلت لي : إنك ستكون لي وحدي ،
وأجاب الفجر :
- أجل ، وسأكون أيضاً لتلك الزهرة المجهولة .

لربما ابتسم الهلال ، مرتاباً ، متشككاً ، حين يقال له :
- لست سوى جزء ينتظر أن يكتمل .

ألا فليغفر المساء للنهار ذنوبه ،
ليتأتى له أن يظفر بالأمن والسلام .

يبتسم الجمال ، الى جوار البرعم ،
في لب تناقص ، ناعم عذب .

يلامس حبك الشارد ، بأجنحته ،
زهرتي ، زهرة عباد الشمس ، ملاسمة رفيقة ،
دون أن يسألها عما إذا كانت مستعدة لتجود له بشهدها

الأوراق هي هنيهات من الصمت ،
تسريل الأزهار وتحيط بها ، الأزهار التي هي لغو وكلام .

تحمل الشجرة ألوف أعوامها ،
كما لو أنها مؤتلفة في لحظة واحدة ، مهية .

إن قرابيني ليست مقدمة الى المعبد الضخم القائم في نهاية الدرب
بل إلى المعابد الصغيرة القائمة على حيد الدرب ،
التي تفاجئني ، في كل منعطف .

مثل أريج زهرة غريبة ،
تظل ابتسامتك ، يا حبيبي ،
بسيطة ، تستعصي على التفسير .

* * *

حين يسرف الناس في إيراد مآثر الفقيد ،
يتهانف الموت ، ضاحكاً ،
لأن ذلك ، يضيف إلى ذخائره ،
مزيداً يفيض عما يستطيع أن يدعيه .

* * *

إن زفرة الشاطئ ، تتعقب عبثاً ،
النسيم الذي يدفع بالسفينة ،
في خضم الأوقيانوس الرحيب .

* * *

تحب الحقيقة حدودها ،
لأنها تلتقي ، ثمة ، بالجمال .

* * *

ما بين شطآني أنا ، وشطآنك أنت ،

يمتد أوقاينوس ذاتي ، الذي يَمُور هادراً ،
والذي أتشوف أنا الى عبوره .

* * *

إن حق التملك يُزهى ، بصفاقٍ ،
بحقه في التمتع .

* * *

الوردة هي أكبر من أن تكون ،
ثناءً مخضباً بالحمرة ، مُزجىً من أجل الشوك فحسب .

* * *

يقدمُ النهارُ معزفه الذهبي إلى صمت النجوم ،
ليتاح له أن يضبط أوتاره ويؤلفها مع الحياة الأزلية .

* * *

يعرف الحكيم كيف يعلم ،
في مركز دوائر الرقصة الخالدة .

* * *

لا يملك السراجُ ، في النهار ، سوى زيته ،

فلا تتطلب منه نوراً ، ليس في وسعه أن يبذله ،
إلا في الليل .

* * *

إن الزهرة الأسيرة المعقودة فوق تاج الملك ،
تبسم ، بمرارة ، لزهرة الحقل التي تغطيها وتنفس عليها منزلتها .

* * *

يُشكّل رُكامُ الثلوج ،
العبة الوحيد الذي ينهض به الجبل ،
بيد أن مياهها المتدفقة ،
تنهض الأرض كُلّها بعَبءِ حملها .

* * *

تتوسل براعم الغابة الى الشمس ، هاتفة :
- هلاً فتحت عيوننا للنور .

* * *

إلا فليؤت حُبُّك القدرة على رؤيتي
ولو تَمَّت ، عبر جدار الإلفة .

* * *

إن روح العمل في الإبداع ،
تظل ثمة ، ماثلة ،
لتساعد روح اللعبة المبدعة ، وتجذبها .

* * *

أن ينهض المرء بعبد الآلة الموسيقية ،
مقوِّماً ثمن مادتها فحسب ،
جاهلاً ، دوماً ، أنها صنعت لتَهْتَرَّ ، عازفةً ،
تلك هي مأساة أولئك الذين يعيشون دون أن يحسنوا الإستماع .

* * *

الإيمان هو ذلك الطائر الذي يتوقَّع مطلق النور ،
فيفرِّد والفجر مظلم ، لم ينشقَّ بعد .

* * *

إيه أيها الليل ،
إنني أقدم إليك كأسَ نهاري الفارغة ،
نقَّها وطهرها بظلماتك الرطبية ،
من أجل عيد فجرٍ جديد .

* * *

تنسَّق صنوبرةُ الجبلِ ، وتؤلف برعشتها ،
ذكرياتِ نضالها ضد الإعصار ،
في نشيدِ هازجٍ بالسلام .

* * *

يشرفني الله بنضاله ،
حين أثور ،
ويتجاهلني حين أقبع ، غير مكتثر بشيء .

* * *

يخيّل إلى المتعصّب أن البحرَ الواسعَ قد تمَّ عبوره
ضمن مستنقعه الخاص به .

* * *

في الأغوار الظليلة من الحياة ،
تختبئ الأعشاشُ المنعزلةُ ،
أعشاشُ الذكريات التي تجتوي الكلام .

* * *

ألا فليستمدَّ حيي قوّته ،
من الكدح ، في النهار ،

وسلامه من اتحاده بالليل .

* * *

تعطو الحياة ، بحزمة أعشاب ،
تسبيحها المؤتلف من المدائح الصامتة ،
الى النور الهامد .

* * *

تترأى لي نجوم الليل ،
ذكرى الأزهار المصوَّحة من نهاري .

* * *

ينبغي لمن ينبغي أن ينسلخ ، خارجاً من الروح ،
ألا يضع أيَّ عائق ،
فإن الإكراه يجعل الدمارَ أشدَّ خطراً .

* * *

النهاية الحقيقية ليست في استشراف الحد الأقصى ،
بل في بلوغ كمالٍ لا حدَّ له .

* * *

الشكل هو ضمن المادة ،
والإيقاع هو ضمن القوة ،
والمعنى هو ضمن الشخص .

* * *

يبحث بعضهم عن المعرفة ، وبعضهم الآخر عن الثروة ،
بيد أنني لا أرغب إلا في حضورك ،
ليتسنى لي أن أغني .

* * *

كما تنثر الشجرة أوراقها ،
فإنني أزرع كلماتي في أديم الأرض ،
وأدع خواطري غير المعبر عنها ،
تُزهر في صمتك .

* * *

إيه أيها المعلم ،
إن إيماني بالحقيقة ، ورؤيتي للكمال ،
تعينانك في إبداعك .

* * *

يهمس الشاطئ للبحر :
أكتب لي ما تجهد أمواجك أن تقوله ،
ويسطر البحر كلماته ، زبدًا ،
ثم يمحو السطور ، في يأسٍ هادرٍ صاخبٍ .

* * *

ألا فلتهتز أوتارُ حياتي ،
بلمسةٍ من أناملك ،
مؤتلفةٍ في موسيقا ، تمتح من ذاتي وذاتك ، في آنٍ .

* * *

ان العالمَ الداخلي ، المصوغَ ، المسوّى ضمن حياتي ،
والمماثلَ لثمرة أنضجها الفرح والألم ،
سوف ينهار ، متداعياً ، ضمن دياجير ظلمة الأرض الأصلية ،
ليتابع ، من ثم ، سلسلةً جديدةً من الإبداع والخلق .

* * *

دعني أقوِّم جميع اللذات التي تخلص إليّ ،
من ثمار الحياة وأزهارها -
دعني أقدمُها إليك ، في نهاية العيد ،

في اتحادٍ كاملٍ مع الحب .

* * *

لقد تسنّى لبعض كبار المفكرين أن يسبروا معنى الحقيقة ،
تلك هي عظمتهم ،
ولقد أصفيت إليك ، ليتسنى لي أن أدرك انسجام عزفك ،
تلك هي فرحتي .

* * *

تضحي الشجرة ،
إمّا تحرّرت من رق البذرة ، روحاً مجنّحة ،
لا تني تتابع مخاطرة حياتها ، عبر المجهول .

* * *

تقدّم زهرة اللوتس سناءها الى السماء ،
وتقدّم حزمة العشب ، خدماتها الى الأرض .

* * *

إن قبلة الشمس تحيل شحّ الثمرة الفجّة ،
المتعلقة بجذع شجرتها ،

الى عطاءٍ طمَّعَ عذبٍ .

تلتقي الشعلة ، بالسراج الفخاري ، ضمن كياني ،
يا لها من معجزةٍ نورانيةٍ كبرى ، تتحقق ، آنذاك .

في الليل الصامت ،
أسمع أمنيات الصباح ، المشردة ،
تنكفئ ، لتقرع قلبي .

تتراءى السحابة للنهر المشغول بجريانه ،
كما لو أنها نافلةُ النفع ، عقيمة .

بعضهم يعبر الحياة ،
كالطفل الذي يقلِّب صفحات كتاب ،
مقتنعاً بأنه يقرأ فيه .

كان الزمن خلال رحلتي ،
يتراءى لي سلسلة من الأيام القادمة ،
أما الآن ، وقد اجتمعت إليك ،
فلم يعد يتسَّق ، إلا في حاضري .

* * *

في صباوتي وحبِّي لك ،
وعيت معنى الفرح المتجلي في معرفة الحقيقة .

* * *

يقول لي الحب :
إن الموت ليس إلا سوء تفاهم .

* * *

سخر السحابُ من قوس قزح قائلاً :
- لست سوى وصولي تيّارٍ مترفٍ ، في فراغه ،
فأجاب قوس قزح بهدوء :
- أنا ، لا محالة ، حقيقي ، كالشمس نفسها .

* * *

جلب لي الحب الجديد :

الثروة الخالدة التي خلفها الحب الراحل .

* * *

لا تدعني أتقرّئ ، باحثاً ، في الليل ، عبثاً ،
ولكن دع فكري يؤمن بأن النهار سوف يولد ،
وأن الحقيقة سوف تتجلى ،
في بساطتها .

* * *

إن المدينة التي حسرت في نور الشمس ،
عن عمرٍ جديرٍ لها ،
تحمّر خجلاً ، لأنها أضاعت أغنياتها كلها .

* * *

إن نايّ حياتي ، الخاوي كالظلمات الأولى ،
المنتشرة ، قبل مطلع النجوم ،
ينتظر أغنيته النهائية .

* * *

لن تتمتع الشجرة بحرية أكبر ،

حين تنفتق من رق التراب .

يتجلى تاريخ الحياة ، على النحو التالي ،
بساطاً منسوجاً من أواصر الحياة ،
وخيوط لا تأتلي ، تتصل وتنقطع .

إن أفكارى التي لا يتسق للكلمات أن تحبسها ضمنها ،
تحطّ على أغنياتي ، لتتراقص فوقها .

القواقع اللؤلؤية التي لفظها البحر ،
على الشاطئ المجدب من الموت ،
هي البذل المعطاء الذي تسخو به الحياة المبدعة .

يفتح لي نور الشمس باب الكون ،
 ويفتح لي نور الحب باب كنوزه .

تماثل حياتي ، النايّ المليء بالثقوب ،
في تلاعبه بالألوان ،
عبر فواصل تعلّاته وفرحاته .

* * *

فلتعمل كلمات شكري ،
على ألا تحرم صمتي البتة ،
من إزجاء تقدير إليك ، أكثر كمالاً .

* * *

تنطلق تطلعات الحياة ،
كفوجٍ من الأطفال .

* * *

تتهدّد الزهرة الذابضة قائلة :
- لقد ولّى الربيع ومضى الى الأبد .

* * *

إن كنوزَ حديقة حياتي ،
قد انتلفت في الظلال والأضواء ،

التي لم تقتطف ولم تُحتجِ قط .

* * *

إن الثمرة التي فزت بها واستصفيتها لي دوماً ،
هي الثمرة نفسها التي رضيّت بها أنت .

* * *

يعرف الياسمينُ أن الشمسَ ،
هي شقيقته في السماوات .

* * *

إن النورَ ، النورَ القديمَ ،
هو دوماً غضُّ فتى ،
أما الظلالَ ، فهي وليدة اللحظة الحاضرة ،
ولكنها تولد ، هرمةً .

* * *

أشعر بأن قاربَ أغنياتِي ،
سوف ينقلني ، عند انقضاء النهار ،
إلى الشاطئِ الآخرِ ،

حيث استمرىء العيش .

* * *

إن الفراشة التي تهيم ، متنقلةً من زهرةٍ الى أخرى ،
تظلُّ ، في حوزتي ، دوماً ،
ولكنني أضيع الفراشة التي تقتنصها شيكتي .

* * *

توافي أغنيئك ، كمصفورٍ خفيفٍ ، الى عشٍ راحتي ،
وتحلم أجنحتي المطويةً ،
برحلةٍ نحو النور ،
فوق الغيوم .

* * *

إذا التوى على فهمي ،
معنى الدور الذي أنهضُ به في لعبة الحياة ،
فذلك لأنني أجهل الدور ،
الذي يقوم به ويلعبه الآخرون .

* * *

إنني أهجر أغنياتِي وأدعها خلفي ،
إمّا شرع نباتُ (زهر العسل) ينوّر ، في تفتحٍ متجدّد ،
وإمّا هلّت فرحةُ نسيم الجنوب .

* * *

تخسر الزهرةُ جميعَ أفوافها ،
لتظفرَ بالثمرة .

* * *

كالسما ، في ظلماتها وضيائها ،
يبحث الفكرُ عن كلماته دوماً ،
بين الأنغام والصمت .

* * *

ينفخ الظلامُ المتواري الخفي ، في نايه ،
ويتهزّم إيقاع النور ، عاصفاً ،
مبدداً نجوماً وشموساً ،
منتفضاً خواطرَ ورؤى .

* * *

لا أتغنى في أناشيدي ،
إلا بعبادتي لغنائك .

* * *

حين يلامس صوتُ الصامتِ ، كلامي ،
فإنني أتعرفُ عليه ، وهكذا أتعرف على نفسي ذاتها .

* * *

سينحو وداعي الأخير ،
إلى من يعرفون نقائصي ،
ويكنُّون لي المحبةَ ، في آنٍ .

* * *

يقول النجم :
- دعوني أشعل سراجي ،
دون أن يستوضح البتة ،
عما إذا كان نوره سيبدد الظلمة .

* * *

ثُراني أستطيع ، قبل أن أختم رحلتي ،
أن أستشرف ، في أعماق ذاتي ، ذاك الذي يَسْقُ في الكل ،
تاركاً الغلاف ، يطوف ،
منساقاً في التيار ،
غائباً في شتيت الأشكال ،
على سطح نهر المصادفة والتحول .

* * *

حين يوافي الموت ، ويفضي إليّ بصوتٍ خفيضٍ :
- إن أيامك في الحياة قد شارفت نهايتها ،
ثُراني أستطيع أن أجيب :
- إنني لم أعشُ فحسب ،
بل عشتُ في الحب ،
سيطلب إليّ :
- تُرى أوتي لأغانيك أن تبقى ، وتعيش من بعدك ؟
سأجيب :
- أجهل ذلك ، ولكنني أعرف ،
أنني ظفرتُ ، أكثر الأحيان ،
بالخلود ، فيما كنت أغني .

* * *

الفهرس

5	المقدمة
29	جيتنجالي
87	جني الثمار
141	البتاني
207	الهلال
245	دورة الربيع
321	شيترا
353	اليراعات

رابدرانات طاغور

نوبل ١٩١٣

- ولد في ٧ أيار ١٨٦١ .
- عاش طاغور في أسرة اشتهرت بالعلم والتقوى ، ونشأ في بيئة ثقافية ابداعية ، حيث كان أبوه واخوته يؤلفون المسرحيات الشعرية والموسيقية ويتسلون بتمثيلها في فناء منزلهم .
- في الرابعة عشرة من عمره بدأ نشاطه الابداعي حيث نشر أعمالاً شعرية ونثرية . وانقطع عن الدراسة الى حيث مدرسة الحياة .
- في عام ١٨٧٧ ألف أول تمثيلية ميلودرامية تقدم على المقامرة والفناء ولم يكن حينها سوى حدث صغير .
- درس الأدب الانكليزي في جامعة لندن .
- في عام ١٨٨٠ كتب قصة «القلب الكسير» بعد أن عاد من انكلترا الى موطنه .
- في العشرين نشر ديوانه الأول «أغاني السماء» . ثم نشر ديوان «أشعار الصباح» و«الملك والمملكة» ومسرحية «الضحية» و«ملكة الغرفة المظلمة» و«مكتب البريد» .
- في عام ١٩١٠ أصدر «عهد طاغور» وهو كتاب عرض فيه ، تأملاته في الحياة والوجود وآرائه في الكون .
- توفي في آب ١٩٤١ .

روائع في المسرح والشعر - طاغور

مسرح 3

S.P300



1 0 5 8 2 1

عالم المعرفة